أنوار السيرة

تأمّلات و ثمرات و إجابات عن شبهات

بقلم

حمدى شفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا و نَذِيرًا (٤٥)
وَ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ و سِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦).سورة الأحزاب

مقدمة

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على خاتم النبيين،وإمام المرسلين،و رحمة الله للمخلوقين أجمعين..أمّا بعد..فقد تبارى العلماء والشعراء والمُفكّرون والمؤلّفون-جيلًا بعد جيل-فى تناول السيرة العطرة بالبحث والدرس والعرض،كُل حسب ما أُوُتى من فهم و علم..و لم و لن يقدر شخص واحد على الإحاطة بجميع جوانبها و كنوزها وأسرارها،فهى كالبحر الزاخر،لا يظفر منه باحث أو كاتب أو شاعر،إلا بمقدار ما يعلق بمنقار أصغر طائر..و سيبقى الرسول الأكرم،صلى الله عليه و سلم،أكبر و أعظم،ممّا ينطق فم،أو يسطر قلم.

و قد حاولت -فى هذا الكتاب-تقديم عرض مُوجز للسيرة،بأسلوب سهل،و لُغة يسيرة مُعاصرة،تكون فى مُتناول شبابنا،مع تأمّلات،و ثمرات،،و ردود على كثير من الشبهات،حول حياة الرسول،صلى الله عليه و سلم..فإن كنت قد وُفّقت،فهذا من فضل ربّى..وإن أخطأت،فما هذا أردت..والكمال لله وحده،والعصمة لأنبيائه و ملائكته،و هو سبحانه و تعالى الغفور الرحيم.

المُؤلّف

القسم الأول

العهد المَكّى

١- إن الله لا يُضَيّع أهله

من المعلوم أن إبراهيم عليه الصلاة و السلام لم يُنجب فى شبابه.و بعد أن نجّاه الله تعالى من النار، سار بأهله من العراق إلى الشام..ثم إلى مصر،حيث حاول ملكها الفاجر أن ينال من زوجته "سارة"وطرًا،فأذلّه الله،و شُلّت يده المَرّة تلو الأُخرى.واستبدّ به الرُعب،فأمر بإخلاء سبيلها، و وهب لها أميرة مصرية من أرفع البيوت،هى"هاجر"لتخدمها.و كانت"سارة"عجوزًا عاقرًا،فوهبتها لزوجها،لعله يُنجب منها ولدًا.و هو تصرف نبيل من زوجة أبى الأنبياء.و قد كافأها الله تعالى عليه لاحقًا.و بالفعل قَدّر الله تعالى أن يُرزق إبراهيم عليه السلام بولده البكر إسماعيل من"هاجر"المصرية..و لحكمة يعلمها المولى،أوحى إلي الأب أن ينقل الرضيع وأمّه "هاجر"إلى صحراء الجزيرة العربية..

و أطاع الخليل أمر ربّه..و ذكرت الروايات أن إبراهيم عليه السلام سار بهما حتى بلغوا مكة ،فتركهما فى موضع بئر"زمزم"و كانت-فى ذلك الوقت-صحراء ليس بها أحد و لا ماء.و ترك لهما جرابًا فيه تمر و ماء،و مضى عائدًا إلى الشام.

راحت هاجر تناديه،و لا يلتفت إليها.و كرّرت السؤال:يا إبراهيم أين تذهب و تتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس و لا شيء ؟! فلم يرد..فسألته أخيرًا: أالله أمرك بهذا ؟ قال: نعم.قالت رضى الله عنها بعزم و يقين وإيمان:إذًا لا يُضَيّعنا..وانطلق أبو الأنبياء،حتى إذا بلغ موضع"الثنية"دعا قائلًا: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) سورة ابراهيم : ٣٧.

و ظلت أم إسماعيل تأكل من التمر و تشرب مما معها من ماء و ترضع وليدها.حتى إذا فنى ما فى الجراب عطشت و عطش ابنها..نظرت إليه و هو يتلوّى من شدّة العطش،فكرهت أن تراه هكذا،و انطلقت هائمة على وجهها ..صعدت "الصفا" فلم تر أحدًا..فنزلت حتى بلغت " المروة"فلم تجد أحدًا أيضًا..فعلت ذلك سبعة أشواط.ثم قالت لنفسها: لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي،فذهبت فإذا هو على حاله،يكاد يحتضر..

و بعد الصبر على الابتلاء جاء الفرج .. وأرسل الله الرحمن الرحيم بعباده"جبريل"عليه السلام ،فضرب الأرض بجناحه -فى موضع زمزم- فانبعث الماء بقدرة الله.و جعلت هاجر تحوّضه (تجعل حوله حوضًا من الرمال) و تغرف في سقائها والماء المُبارك يفور .و يروى ابن عباس رضي الله عنهما -والحديث في صحيحى البخاري ومسلم- قول النبي صلى الله عليه و سلّم : ((رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال لو لم تغرف من الماء- لكانت زمزم عينًا معينًا..قال: فشربت وأرضعت وليدها..فقال لها

المَلَك:لا تخافوا الضيعة،فإن ها هنا بيتًا لله،يبنيه هذا الغلام وأبوه..وإن الله لا يُضَيّع أهله))

و هذه هى الحكمة الكبرى فى نقل إسماعيل وأُمّه إلى موضع بيت الله الحرام، ليبنيه الرضيع ،عندما يكبر،مع أبيه عليهما السلام .

و بالفعل لم يمض وقت طويل حتى جاءت قبيلة "جرهم"لتسكن إلى جوار زمزم

بإذن من أم اسماعيل،ثم تلتها قبائل أخرى.و هكذا تكوّنت "مكّة"أم القرى،و موضع الكعبة المُشرّفة.

و عندما بلغ إسماعيل الصبا،كان الابتلاء الثانى،و هو أمر الله لخليله إبراهيم بذبح

ولده الوحيد- قبل أن يرزقه الله من سارة بإسحاق لاحقًا- فأطاع الأب و الابن والأُمّ.

و ما كاد يضجعه على الرمال،و يهم بوضع السكين على رقبته،حتى ناداه ربه،

مُثنيًا على طاعة أهل البيت و إحسانهم و صبرهم على البلاء العظيم،وافتدى إسماعيل من الذبح،بكبش عظيم جاء به جبريل عليه السلام.فهو الذبيح و ليس إسحاق،كما يزعم اليهود حسدًا و حقدًا على العرب والمسلمين..و من نصوص التوراة التى لم تتعرّض للتحريف ، يُوجد نص على أن الذبيح هو (ابنه البكر) والثابت أن البكر،أى أوّل ولد إبراهيم وأكبرهم ، هو إسماعيل جدّ العرب عليه الصلاة والسلام.

و بعد أن شبّ إسماعيل تزوّج من نساء"جرهم"وأنجب العديد من الأبناء والبنات.

و كثرت ذُرّيته..و فى إحدى الزيارات أخبر الخليل إبراهيم ولده بأن الله أمره أن يبني

بيتًا له فى مكة ،فسمع إسماعيل وأطاع..وجعل الخليل يرفع القواعد من البيت،وإسماعيل يأتيه بالحجارة.و يحكى القرآن الكريم قصة بناء بيت الله الحرام فى آيات كريمات: ((وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ و يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)..سورة البقرة.و استجاب الله للنبيين الكريمين، فأرسل من ذريتهما خاتم الأنبياء والمرسلين،الصادق الأمين،صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين.

٢ - ابن الذبيحين

ظل أبناء وأحفاد إسماعيل عليه السلام قرونًا–بعد وفاته-على عقيدة التوحيد ،دين أبيهم إبراهيم و كل الأنبياء عليهم الصلاة و السلام..و بمرور الزمان ضعفت العقيدة فى نفوس الأجيال اللاحقة،و تسرّبت إليهم عقائد وثنية من جيرانهم،فى الشام و فارس وغيرها من المناطق.و قد تولىّ كِبَر تضليل الناس عمرو بن لحى الخزاعى،فهو أول من جلب الأصنام من الشام إلى مكة،ووضعها فى الكعبة،و تبعه آخرون،و راحوا يتقرّبون إليها بمختلف ألوان العبادة ، زاعمين أنها واسطة تُقرّبهم إلى الله ! و ما لبثت قريش أن وقعت فى براثن الشرك،إلا قلة نادرة بقيت على المِلّة الحنيفية–التوحيد- و رغم هذه الوثنية الطاغية،كان أحفاد إسماعيل هم سادات العرب،و خاصة قُصَىّ بن كلاب،وأولاده،و على رأسهم عبد مناف،و من بعده ولده هاشم،ثم ولده عبد المطلب،الجدّ المُباشر للنبى صلى الله عليه و سلّم..و ورث عبد المطلب عن آبائه شرف خدمة الكعبة و حجّاج البيت الحرام،الذين ظلّوا يتوافدون عليه كل عام،رغم اضطراب العقائد و عبادة الأصنام..و قد نال عبد المطلب شرفًا آخر لم يسبقه أحد إليه،و هو إعادة حفر بئر زمزم..فقد تسببت الصراعات و الحروب بين القبائل فى ردم البئر المباركة..و عجز الناس بعد مئات السنين،عن الاهتداء إلى مكانها..و كان عبد المطلب يبذل جهدًا مُضنيًا فى نقل الماء من آبار خارج مكة،لسقاية الحجيج..و ذات ليلة رأى فى منامه هاتفًا يأمره بحفرها..و تكرّرت الرؤيا ٤ مرات ..و فى المرّة الأخيرة أرشده الهاتف إلى مكانها بعلامات واضحات.و تتبّع عبد المطلب الإرشادات المنامية،و تمكن بالفعل من حفر"زمزم" بمساعدة ولده الحارث،و لم يكن قد أنجب غيره فى ذلك الوقت..و عندما انبثق الماء كَبّر عبد المطلب فرحًا،فتكاثرت عليه قبائل قريش،تريد مشاركته فيها،رغم أن أحدًا منهم لم يساعده فى حفرها بشىء ! و حلًّا للمشكلة،فكّر الجميع فى الاحتكام إلى كاهنة تسكن بالبادية خارج الحَرَمْ.و فى الطريق نفد الشراب منهم ،فانفجرت عين ماء تحت ناقة عبد المطلب،فشربوا جميعًا ،و نجوا من الهلاك عطشًا.و كانت هذه الكرامة الظاهرة لعبد المطلب سببًا فى إذعان قريش و اعترافها له بالفضل،وإقرارها بحقه وحده فى إدارة شؤون بئر زمزم المباركة، فإن الذى سقاه هنا هو الذى سقاه هناك..و تظل زمزم عبر ألوف السنين آية للعالمين .. فهى البئر الوحيدة فى العالم التى لم ينقص منها الماء،حتى اليوم ! و ارتوى منها مئات الملايين فى مئات السنين،فضلًا عن أن التحاليل الحديثة قد أثبتت أن خواص ماء زمزم تختلف عن أى ماء آخر عرفه البشر،و هى كما ورد بالحديث الشريف،و كما أثبتت التجارب دائمًا : ((طعام طعم و شفاء سقم)) رواه مسلم و غيره..و بسبب النزاع عليها،نذر عبد المطلب،إن اكتمل له عشرة من الولد،أن يذبح أحدهم عند الكعبة شكرًا لله ! و استجاب الله تعالى له،فرزقه بعشرة من الذكور– سوى الإناث-وأجرى القُرعة بينهم لتحديد من سيُذبح وفاءً بالنذر.و جاءت القُرعة على

أحبهم إليه،و هو عبد الله..و فزعت قريش،فقاموا إليه، ليمنعوه من ذبح الصبى،حتى لا تكون تلك عادة و سُنّة مُتّبعة من بعده،فيفنى الناس بهذا.و كعادة الجاهلية،احتكموا إلى كاهنة،فأمرتهم بإجراء القُرعة بين عشر من الإبل و بين الصبى،فإن أصابت الإبل ذبحوها،و ينجو عبد الله، وإلا زادوا عشرًا عشرًا حتى تُصيب القُرعة الإبل..و كانت العشر هى الدية عندهم..و نَفّذَ القوم ما قالت،و تكرّرت القُرعة حتى بلغت الإبل مائة،فأصابتها.وأبى عبد المطلب إلا أن يُكرّرها ثلاث مرّات،فخرجت جميعًا على الإبل،فذُبحت،و تُركت فى الخلاء،لا يُمنع من أكل لحمها إنسان أو وحش أو طير.و بادر عبد المطلب بتزويج عبد الله من آمنة بنت وهب بن زهرة،أحد سادات العرب،فحملت منه بسيد ولد آدم،صلى الله عليه و سلم.و لهذا أطلقوا علي الحبيب صلى الله عليه و سلّم لقبًا آخر،هو"ابن الذبيحين"يقصدون بهما والده عبد الله،و جدّه الأعلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام..و لا شك أن نجاتهما من الذبح كانت مقدمة و تمهيدًا لمجىء خير مولود خلقه الله من أشرف الأصلاب فى أطهر الأرحام .

3- (أصحاب الفيل)

انقلب الجندى"أبرهة"على سيده"ارياط" الحاكم المُعيّن من قبل الملك الحبشى-زمن احتلال اليمن-و قتله غدرًا،واستولى على السُلْطَة بدلًا منه.وغضب ملك الحبشة،فسعى الخائن إلى استرضائه بكل السُبُل،و منها بناء كنيسة ضخمة بصنعاء.و كتب إليه:إنى قد بنيت لك كنيسة لم يُبن مثلها من قبل،و لن أدّخر وسعًا حتى أصرف إليها حج العرب،بدلًا من بيتهم الذى فى مكة -يقصد الكعبة-و سمع بهذا رجل عربى من بنى كنانة،فغضب حمية لبيت الله الحرام،و تسلّل إلى داخل كنيسة أبرهة الأشرم،فقضى فيها حاجته،و لطّخها بالفضلات.و جنّ جنون الأشرم حين علم باستهزاء العرب به و بكنيسته،وأقسم أن يهدم الكعبة.و جهّز لهذا الغرض جيشًا يضم ٦٠ ألفًا من الجنود،و فيلًا ضخمًا،ليستخدمه فى هدم الكعبة.و فشلت جميع القبائل-طوال الطريق-فى منع أبرهة من مواصلة السير إلى مكة المُكرّمة.ووصل الجيش إلى ضواحى الحرم الشريف،فضرب خيامه هناك للراحة بعض الوقت.وأرسل اللعين إلى عبد المطلب بن هاشم سيد مكة،فجاء إليه..كان عبد المطلب رجلاً طويلًا وسيمًا مهيبًا،فلم يقو أبرهة على الجلوس على كرسيه دونه،و هبط عنه،ليجلس إلى جواره.و فوجىء أبرهة بالرجل المهيب لا يطلب منه سوى رد مائتى جمل،استولى عليها جنوده من المراعى خارج مكة **!!** فقال لمترجمه: قل لعبد المطلب أننى أكبرته حين دخل علىّ،و لكننى زهدت فيه الآن..فسأله عبد المطلب عن السبب..ردّ أبرهة:

أتترك بيتاً هو دينك و دين آبائك،جئت لهدمه،فلا تكلمنى فيه،و تكلمنى فى مائتى بعير؟**!** أجاب عبد المطلب بشجاعة و يقين و إيمان:

"أنا صاحب الإبل..أما البيت فله رب يحميه و يمنعه منك"

غضب الطاغية و صاح: ما كان ربك ليمنعه منى.فعقّب عبد المطلب بهدوء و ثبات:

فأنت و ذاك".وأمر أبرهة برد إبل عبد المطلب اليه ، فأخذها و انصرف الى البيت " الحرام..تعلّق حفيد إسماعيل بحلقتى باب الكعبة و دعا ربّه :

((لاهم إن المرء يمنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم و محالهم غدوًا محالك

إن كنت تاركهم و قبلتنا فافعل ما بدا لك))

و فى الصباح حاول أبرهة دخول مكة،لكن الفيل تجمّد فى مكانه وأبى التحرّك.ضربوه بالعصى و قطع الحديد فلم يتزحزح.وجّهوه إلى طريق العودة إلى اليمن فهبّ واقفًا،و هرول بعيدًا.وجّهوه نحو كافّة الإتجاهات، فكان ينطلق فيها جميعًا،بإستثناء الطريق إلى مكة !و بينما هم على هذا العناء مع الفيل الثائر،فوجئوا بأسراب هائلة من الطيور،تأتى من جهة البحر الأحمر،لتنقض على الجيش،و ترميه بالأحجار،فتقتل أغلب الجنود،و لم يبق منهم حيًّا سوى أبرهة،مع قلّة من حُرّاسه،حملوه جريحًا إلى اليمن ،حيث هلك بعد عودته إلى صنعاء بأيام.و هكذا حمى الله بيته الحرام من العدوان الصليبى،وانتهى أيضًا –بعدها بقليل-الإحتلال الحبشى لليمن العربية إلى الأبد.و قد حكى القرآن الكريم القصة فى سورة عظيمة، تُتلى الى يوم القيامة،تحمل اسم"الفيل" بسم الله الرحمن الرحيم:

((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ))..و بالإضافة إلى السورة الكريمة،فالحادث معلوم مُتواتر لدى العرب و المؤرخين من كل الأجناس و الأديان،و رواه أبرهة نفسه قبل هلاكه،و شهدت به القلة التى عادت معه.و كأن الله تعالى أراد أن يكون هناك شهود على الواقعة من غير العرب أيضًا !و من المؤسف حقًّا أن يحاول بعض كُتّاب السيرة من المُعاصرين،تحريف الكلم عن مواضعه،إرضاءً لخصوم الإسلام،بحجة منح الأمر قدرًا من القبول فى أذهان غير المسلمين! فزعموا أن هلاك جيش أبرهة كان نتيجة (وباء الحصبة أو الجُدَرى) استنادًا إلى رواية ضعيفة – عند ابن اسحاق-تقول أن الجزيرة العربية لم تعرف هذا الوباء قبل عام الفيل !! و فات هؤلاء أنه حتى لو سلّمنا جدلًا بهذا ، فإن المعجزة تظل قائمة،لا سِيّمَا أن المرض لم يُصب أحدًا قبل جيش أبرهة فى تلك المنطقة..ثم كيف اقتصرت الإصابة بالوباء على أبرهة و جنوده،و لم تنتقل العدوى إلى أحد من أهل مكة ؟.أليست هذه أعجوبة بذاتها ؟!و كان الأقرب الى المنطق أن يقولوا إن الوباء جاء (نتيجة للإصابة بالأحجار) وأن يتولّد عن الجراح التى لحقت بالأحباش،و ليس هو السبب الأوّلِى فى مصارعهم..و يُلاحظ العلّامة محمد متولى الشعراوى-رحمه الله-أن كثيرًا من المشركين عاصروا هذه الواقعة"و لو لم تكن قد حدثت،كما وصفها القرآن،لسارعوا إلى تكذيبها،لكنهم لم يفعلوا"..انتهى..كما أن الميكروبات والجراثيم تحتاج إلى وقت طويل لإحداث آثارها الضارة بجسم الإنسان،و ليس هذا هو ما جرى لجيش أبرهة،فالثابت أن هلاك معظمهم كان فور تعرّضهم للضرب بالأحجار من الطيور،ثم ما هذه الطيور"العاقلة"والجراثيم"المُوجّهَة"التى تصيب أعداء الكعبة دون غيرهم من الموجودين ؟! الفاعل هو الله تعالى،و طالما كنت مؤمنًا به فعليك تصديق ما جاء فى كتابه،وألّا تُدخل عقلك القاصر فى أمور الغيب التى أخبرك بها..

والصحيح الثابت أن هلاك جيش أبرهة قد جاء بقصف مباشر من ((حجارة)) رمتها جماعات من ((طير)) بالنص الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، ثم بشهادات ألوف من العرب والأحباش الذين عاينوا الحدث التاريخى.وإذا كانوا يزعمون صعوبة تصديق هذه الخارقة للعادة ،فما بال (الصواعق) و هى أخطر وأشد وأكبر ؟! و ما زال العلماء فى عصرنا يجهلون كيف تتكوّن الصاعقة،و لا متى ،و يستحيل توقّع مكانها أو زمانها أو حجم الدمار الناتج عنها.و ذات الأمر بالنسبة (للشُهُب و النيازك) التى تُقْذَف من السماء حتى يومنا هذا ! و بمنطق البشر: فلا شك أن الصواعق و الشهب و النيازك أكبر وأشد وأعتى بما لا يُقاس من الطيور والأحجار..وأمّا نحن فنؤمن بأن الله تعالى قد أرسل جنوده من الطير الأبابيل ،لسحق الجيش الصليبى الغاشم ،و حماية بيته الحرام من العدوان، و بشارة بمجىء الرسول الأعظم ،صلى الله عليه و سلّم -كان مولده فى عام الفيل- و إيذانًا بفجر جديد ،يسود فيه الحق و التوحيد.

٤- اليتيم الأعظم

مات عبد الله بن عبد المطلب،عندما كانت زوجته آمنة بنت وهب حاملًا بطفله .و كأن الله تعالى قد خلقه لوظيفة واحدة-فقط -هى إنجاب خير مولود وأعظم مخلوق ! و بعده ماتت أُمّه أيضًا،و هو فى السنة السادسة من عُمره الشريف.ثم مات جدّه عبد المطلب و هو فى الثامنة من العمر.. و كَفَلَه من بعده عمه"أبو طالب".و يُتم النبى ليس كغيره،بل فيه حكمة إلهية كُبرى،و هى أن يكون الله تعالى وحده،هو الذى يرعاه و يصنعه على عينه..والأنبياء كلهم يصطفيهم الله و يرعاهم،،و يحفظهم بيد قدرته و حكمته..كما خلق آدم بغير أب و لا أم ،و خلق عيسى بلا أب..و كان أبو إبراهيم كافرًا ، و لا نجد لا فى قصة نوح و لا موسى،و لا هارون أى دور للأب فى تربيتهم، و لا إعدادهم للرسالة.و مما يزيد هذه الجزئية إيضاحًا قول الحق تبارك و تعالى لموسى عليه السلام : ((و لتُصْنَعَ على عينى)) سورة طه : ٣٩..أى -كما قال المُفسّرون- لتُربّى و لتكون حركتك وتصرفك بمشيئتي وعلى عين مني.و قوله سبحانه للمصطفى صلى الله عليه و سلم : ..((ألم يجدك يتيمًا فآوى)) سورة الضحى : ٦

و من الجائز أيضًا أن يكون موت أبيه و أُمّه مُبكّرًا ، لحكمة إضافية أُخرى ،

هى منع الطعن فى رسالته،إذا لم يؤمنا به..كي لا يستخدمهما المشركون سلاحًا،بتشكيك العرب فى دعوته،و إثارة الشغب و الصياح:إذا كان أقرب الناس إليه ، أبوه و أمُه لم يؤمنا به،فكيف يُطالب الآخرين بهذا ؟!! و حتى لو آمَنَا به،ربما يقول الخصوم:إنما عَلّمه أبواه ما جاء به..و فى يُتمه

أيضًا العزاء و السلوى لكل يتيم إلى قيام الساعة،فقد ابتلى الله باليُتم من قبله أحب خلقه إليه..و الراجح من الروايات أن مولده صلى الله عليه و سلم كان فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل..و كان هلاك جيش أبرهة عام مولده،و لم يثبت غير هذا من بشائر الميلاد الشريف -بمقاييس رجال الحديث- سوى أن أُمّه رأت نورًا يخرج منها إلى قصور (بُصرى) بالشام .و من المعلوم أن السيدة آمنة عاشت طوال عمرها القصير فى مكة،و لم تُغادرها إلا إلى المدينة،حيث ماتت. فلم تُسافر قط إلى الشام،و لم تُشاهد تلك القصور ! و هى إشارة واضحة الى ما تحقّق بعد ذلك -بعشرات السنين- من انتشار الاسلام ،وإنعام الله تعالى على أهل تلك المناطق و غيرها بنور الهداية والتوحيدُ.

و الغريب أن من يُنكرون بشارات و إرهاصات مولده الشريف،لا ينطقون بحرف،و لا يُنكرون ما ترويه كُتُب النصارى عن الإرهاصات بمولد أخيه عيسى عليه الصلاة و السلام ! و المنطق الذى يتعلّلون به يفرض عليهم إنكار تلك كما يُنكرون الأُخرى ! أمّا

نحن فنقول إن قدرة الله الواحد الأحد لا يُعجزها شيء و لا يستعصى عليها فعل..و من المستحيل قياس الإرهاصات والمُعجزات الالهية ،بمنطق البشر ،لأنها خوارق خارجة عما يألفه أو يستوعبه العقل البشرى القاصر.. ثم كان من تدبير الله تعالى لحبيبه و رسوله الخاتم أن هيأ له الرضاع فى بادية بنى سعد..ليكون أفصح العرب وأوضحهم بيانًا وأكثرهم بلاغة .فقد كان من عادة أشراف قريش أن يعهدوا بالمواليد إلى مراضع من البادية للقيام بهذه المهمة ..فيكتسب أطفالهم الفصاحة من معاشرة البدو،والجَلَدْ والشجاعة والقوة البدنية من شمس الصحراء و هوائها الطلق ..

و شاء الله أن تنال حليمة السعدية شرف الدارين،بحضانة سيد المرسلين اليتيم الهاشمى العظيم..و تحكى السيدة حليمة بنفسها عجائب ما جرى..فقد زهدت كل المراضع فى اليتيم،لأن أُمّه لم تكن تملك مالًا تدفعه أجرًا للرضاع،مثل باقى أغنياء مكة ..و اضطرت حليمة إلى أخذه،لأنها لم تجد غيره،و لم تشأ العودة خالية الوفاض،دون غيرها من سيدات قومها..و كانت السنة قليلة المطر،والقوم لا يجدون عُشبًا لرعى إبلهم وأغنامهم.

و لم يكن فى صدرها لبن لإرضاع طفلها الآخر، و كانت و زوجها لا ينامان من شدة بكائه بسبب الجوع ..و ما كادت تضم اليتيم إليها حتى فاض اللبن غزيرًا، فرضع و رضع معه أخوه السعدى حتى شبعا ..و قام زوجها إلى ناقتهما ، فإذا بضرعها مُنتفخ لأول مرة باللبن على غير العادة ! فصاح"أبو كبشة"و هو لقبه بين الناس: تعلمين يا حليمة،والله لقد أصبت رضيعًا مُباركًا !! و كذلك نشطت الأتان"أنثى الحمار"التى كانت تركبها حليمة ، فى رحلة العودة، حتى سبقت باقى الركب ..و قد كانت فى رحلة القدوم إلى مكة هزيلة ضعيفة تتسبّب فى تأخير الرفاق !! و كانوا يهتفون بحليمة لتتوقّف، كى يلحقوا بها،و يعربون عن دهشتهم ، سائلين : أليست هذه أتانك التى قدمت عليها !؟!فتجيبهم:نعم،فيقولون فى صوت واحد:والله إن لها لشأنًا

! و ما علموا أن الأتان قد سعدت ،بحمل سيد الأنام ،حفيد آل إبراهيم الكرام

.. و توالت البركات على حليمة وأسرتها بعد العودة إلى ديار بنى سعد

فكانت أغنامها وحدها تجد المرعى و العشب الوفير،و تحلب اللبن الغزير،و ما فى أغنام غيرها من قومها قطرة ،حتى كان القوم يصيحون بالرُعاة:و يلكم..اذهبوا إلى

حيث ترعى أغنام ابنة أبى ذؤيب

. و ما كانوا يعلمون أنه رزق الله،يسوقه إلى حبيبه و مصطفاه فى كل مكان

صلى الله عليه و سلّم.

٥- معجزة شق الصدر

كان صلى الله عليه و سلّم فى بادية بنى سعد عندما بلغ الرابعة،و وقعت معجزة شق صدره الشريف.و هى ثابتة متواترة بأحاديث صحيحة،رواها الإمام مسلم و غيره.

و يُروى عن بعض العلماء أن شق الصدر بواسطة الملائكة،و تطهيره،وإعداد الجسد البشرى لتلقى أنوار الوحى الإلهى،قد حدث أيضًا لكل إخوته من الأنبياء و المرسلين، صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين.. و خلاصة القصة أن جبريل عليه السلام قد جاء إلى النبى ، و هو صغير يلعب مع الغلمان ، فأضجعه ، و شق صدره ، و استخرج منه "عَلَقَة" صغيرة ، ثم غسل موضعها،و خاطه، و قال له:"هذا حظ الشيطان منك"..و جرى الغلمان فزعين إلى السيدة حليمة فأخبروها.و خافت عليه فأعادته فورًا إلى أُمّه بمكة..و رُوى أنس بن مالك خادم الرسول صلى الله عليه و سلم أنه كان يرى أثر المخيط فى صدره الشريف،بعد الحادث بعشرات السنين..و رُوى أيضًا أن شق الصدر تكرّر قبل بدء تلقى الوحى،و قبيل رحلة الإسراء والمعراج ..و قد حاول بعض المستشرقين إنكار شق الصدر.و بسبب سوء فهمهم لمعانى اللغة العربية،ظنّ بعضهم أن شق الصدر هو المقصود بالآية الكريمة: ((ألم نشرح لك صدرك)) سورة الشرح:١..و ليس الأمر كذلك ..لأن معنى شرح الصدر الوارد بالآية هو كما قال الإمام القرطبى: (شرح الصدر: فتحه ،أي ألم نفتح صدرك للإسلام).وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال أن المعنى: ألم نلين لك قلبك ؟.وروى الضحّاك عن ابن عباس قال:قالوا يا رسول الله، أينشرح الصدر؟ قال:"نعم و ينفسح "قالوا:يا رسول الله،وهل لذلك علامة؟ قال:"نعم التجافي عن دار الغرور،والإنابة إلى دار الخلود"أى بالاستعداد للموت،قبل مجيئه.والحديث رواه البيهقى والطبرى و غيرهما.و هذا المعنى في سورة الزمر فى قوله تعالى: (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه).وروي عن الحسن أنه قال: (ألم نشرح لك صدرك) أى مُلئ حكمة و علمًا..انتهى.و قال الإمام ابن كثير":يعني أما شرحنا لك صدرك،أي: نوّرناه وجعلناه فسيحًا رحيبًا واسعًا كقوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) [الأنعام:١٢٥] وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحًا واسعًا سمحًا سهلًا لا حرج فيه و لا إصر و لا ضيق" انتهى..وإذا كان للفقير الى الله تعالى أن يُضيف شيئًا،نقول إن الآية المذكورة التى فى سورة الأنعام،و مثلها التى فى سورة الزمر،صريحتان فى أن الشرح الوارد فى القرآن الكريم،هو الشرح المعنوى،والمقصود به الإستبشار والإرتياح والتوفيق والهداية للاسلام،و ليس الشق المادى للصدر.و فى العالم اليوم أكثر من مليارين من المسلمين ، فهل كل واحد من هؤلاء تم شق صدره فعليًا ؟ أم أن المعنى الواضح هو الشرح المعنوى -مثلما جاء فى الحديث- الذى أخبر فيه عليه السلام أصحابه بأن الصدر يتسع

و ينفسح للإسلام،أو يضيق عنه إن كان كافرًا مُعاندًا ؟! و التعسّف فى تفسير ألفاظ القرآن الكريم أو التشبث بروايات ضعيفة،هو -كما سنرى فى مواضع كثيرة- محاولات فاشلة من خصوم الإسلام للتشكيك فى السيرة العطرة.و فى كُل الأحوال فشق الصدر ثابت بأحاديث صحيحة.و من البديهى عند أصحاب العقول الراجحة،أنه لابد من إعداد الجسد البشرى المخلوق من الطين،للقاء جبريل عليه السلام،و هو مخلوق من النور.ألا ترى -مثلاً- أنهم فى عصرنا -و لله المثل الأعلى - يقومون بإعداد رواد الفضاء - بدنيًا و نفسيًا - قبل إرسالهم فى الرحلات إلى خارج الغلاف الجوى أو الكواكب الأُخرى؟! والأمر أعظم و أشد فى لقاء الأجساد البشرية بأنوار الملائكة،التى لا يعلم كنهها سوى خالقها سبحانه و تعالى،وإن الذى أنزل عليه و على إخوته الوحى من فوق ٧ سماوات،لهو أعلم و أقدر على كل ما يخطر،و ما لا يخطر بعقول البشر.

و سيبقى القرآن الكريم،إلى الأبد،المعجزة الخالدة للحبيب،بما فيه من الأسرار والأعاجيب.

٦- قصة الراهب

ماتت أُمّ الحبيب صلى الله عليه و سلّم و هو فى سن السادسة.و لحق بها جدّه عبد المطلب -و النبى فى سن الثامنة -بعد أن أوصى ولده أبا طالب بكفالة ابن أخيه اليتيم.و ممّا قدّر الله لرسوله أن أبا طالب كان عطوفًا رقيق القلب،وألقى الله محبته فى قلبه،فاحتضن الصغير،و كان أقرب اليه من كل أولاده..و رواية خروجه معه إلى الشام-دون أى أحد من أولاده- دليل قاطع على صحّة ما نقول..و هذه الرواية تستحق التوقّف أمامها،و بالتحديد بشأن ما ورد فيها عن"الراهب"و تعرّفه على الرسول صلى الله عليه و سلم..و خلاصة القصة أن"الراهب" تعرّف على الصغير،و رأى سحابة تُظلّله،كما رأى خاتم النبوة أعلى ظهره الشريف،عليه الصلاة و السلام.و علم أنه يتيم،و سأله عن أحواله،فوجدها كلها تُطابق أوصاف الرسول الخاتم،التى وردت فى التوراة و الإنجيل-قبل تحريفهما-و تكريمًا له صنع طعامًا لأول مرة-للقافلة المكية التجارية-و كانوا يمرّون من قبل بصومعته فلا يهتم بهم.و حذّر"الراهب"أبا طالب من اليهود،لأنهم لو رأوا الصغير،و عرفوه سيقتلوه،و طالبه بالعودة بابن أخيه فورًا إلى مكة،حرصًا على حياته.والقصة صَحّحَها الألبانى،وأوردها الترمذي في سننه،وأبو نعيم في"دلائل النبوة "والحاكم في"المستدرك "وابن عساكر في"تاريخ دمشق"وابن إسحاق والواقدى و غيرهم..والعجيب أن خصوم الاسلام حاولوا استخدام قصة "الراهب"للطعن فى الرسالة الغرّاء،و زعموا أن بحيرا هو الذى علّمه ! و فاتهم عدة أمور تنسف مزاعمهم كلها ! فمن ناحية،كان عليه السلام صغيرًا،و اللقاء لم يستمر سوى بضع ساعات،

و يستحيل تعليم أى شخص كل ما جاء بالقرآن الكريم،و مئات الألوف من الأحاديث فى ٤ أو ٥ ساعات على الأكثر.و من ناحية ثانية،كان عليه السلام أُميًّا لا يقرأ و لا يكتب،و كانت لغته هى العربية،و لغة"بحيرا"أجنبية،و لم تكن هناك ترجمة عربية للتوراة والأناجيل فى ذلك الوقت،فكيف تعلّم منه ؟! و من ناحية ثالثة،فالإسلام به مئات التشريعات غير المسبوقة عند أهل الكتاب،و مئات من الآيات استعرضت ظواهر علمية لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان يعرف عنها شيئًا،فضلًا عن أن عقيدة التوحيد تهدم تمامًا ما كان عليه النصارى و اليهود من ضلال و شرك،مثل زعمهم أن عيسى هو الله أو ابن الله،لأن الإسلام ينص على أنه عبد الله و رسوله،مثل باقى إخوته من الأنبياء و المرسلين،لا أكثر و لا أقل !! و من ناحية رابعة،فإن ألفاظ و تراكيب و لغة القرآن الكريم قد أعجزت العرب والعجم عن الإتيان بمثلها..وإذا كان عرب الجاهلية الذين هم أفصح الناس،قد عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله،فهل يستطيع هذا راهب أعجمى،لا يدرى عن لغة العرب شيئًا ؟!

و من ناحية خامسة،لا تتّفق المصادر حتى على اسم الراهب نفسه، فالبعض يقول أن اسمه جرجس،و آخر يقول ان اسمه بحيرا،و فريق ثالث يُسمّيه سرجيس،و رابع يُسميه سرجس ! و من ناحية سادسة،لو كان الراهب هو الذى عَلّمه، فلماذا يصمت الصغير عشرات السنين، و لا يُبَلّغ ما لَقّنه إياه ؟ !

و من ناحية سابعة:لو صَحّ ما زعموا لكان"بحيرا"هو النبى و ليس محمدًا،و ما كان لرسول أن يمتنع عن إبلاغ الناس ما أُنْزِلَ عليه من وحى،و لا أن يُفَوّض شخصًا آخر فى إبلاغ الرسالة،وإلّا كان خائنًا لرَبّه،متخاذلًا فى أداء دوره المفروض،و مثل هذا لا يستحق شرف الرسالة أصلًا !و هل من المعقول أن يُؤثر المُكَلّف بالرسالة شخصًا آخر ،على نفسه ،بشرف الدعوة،و مقام النُبُوّة الرفيع ؟!

و أخيراً: فالقصة صريحة قاطعة الدلالة على أن بحيرا الراهب قد آمن بسيدنا محمد صلى الله عليه و سلّم، وأنّه أخبر أبا طالب و من معه أنه هو الرسول الخاتم،

فلماذا تجاهلوا هذه الجزئية، و لم يتّبعوا الراهب فى هذه ،و لم يؤمنوا به مثله، إن كانوا صادقين ،أو على الحق يحرصون ؟!

٧- الصادق الأمين

لم يترك عبد الله بن عبد المطلب و لا زوجته السيدة آمنة للصغير ميراثًا يُذكر.و لأنه كان لَمّاحًا،عفيف النفس،أَبَى أن يكون عالة على عمه"أبو طالب"قليل المال،كثير العيال،و احترف رعى الغنم منذ باكورة الصبا،ليُخفّف عن عمّه بعض أعباء المعيشة..و قد أخبر صلى الله عليه و سلّم أنه ما من نبى إلا احترف–فى فترة ما من حياته-رعى الأغنام..و هذا من إعداد الله تعالى لهم.و السِر هنا أن رعى الغنم فيه تدريب لهم على الرفق بالخلق،و الرحمة بصغارهم و ضعفائهم،و الصبر عليهم،و الجَلَد و التَحَمّل،و التعامل مع كافة الطبائع،و الاعتماد على النفس،و إيجاد حلول لمشاكل المجتمعات المختلفة..و هى فرصة للنبى أيضًا للخلو بالنفس،و صفاء الذهن،و التأمل فى بدائع الخلائق، وسط المراعى و الصحراء الفسيحة،بعيدًا عن صخب الناس و ملاهى المدن و القرى.

و كذلك تتسم حياة الرعاة بالبساطة و التقشّف و الزهد،و هو شأن الكبار و أصحاب الرسالات العظمى على مدار التاريخ الإنسانى..و لا يأتى الترف أو البذخ بخير أبدًا،لا للأفراد و لا للجماعات..و هنا يجدر التنبيه إلى خطأ شائع، و هو وصف بساطة معيشة النبى و إخوته صلى الله عليهم و سلم أجمعين"بالفقر"! و سبب وقوع بعض الباحثين فى هذا الخطأ الفادح هو تقدير الأمور بالمقاييس الدنيوية القاصرة –كما سنرى فى مواضع كثيرة-بعكس المعيار الإلهى للرسالات و حياة الأنبياء عليهم السلام ..فالغنى بمقياس الحق-والعقلاء من الناس-ليس هو كثرة الأموال ،كما يتوهّم الجاهلون و المفتونون بزخارف الدنيا،إنما الغنى الحقيقى هو غنى النفس..و هل خلق الله أعظم أو أنبل أو أشرف أو أكرم أو أغنى من أنفس أنبيائه و صفوته من خلقه ؟! و لنتذكُر هنا ما نص عليه الحديث الشريف: (لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ و لَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ) رواه الإمام البخارى .. و قال الإمام ابن بطال فى شرحه : (ليست حقيقة الغنى كثرة المال،لأن كثيرًا ممن وسّع الله عليهم في المال لا يقنعون بما أُوتوا،و يجتهدون في طلب المزيد،و لا يبالون من أين يأتي،فكأنهم فقراء لشدة حرصهم،وإنما حقيقة الغنى غنى النفس.و الغنى هو من استغنى بما أُوتي،و قنع به و رضي ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب).انتهى..و قال الإمام القرطبى:" المرء إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع ، فعزّت و عظمت،و حصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه،فإنه يُوَرّطه في رذائل الأمور و خسائس الأفعال،لدناءة همته و بُخله،و يكثر من يذمّه من الناس،و يصغر قدره عندهم،فيكون أحقر من كل حقير،وأذل من كل ذليل" انتهى.و نُلاحظ أن القرآن الكريم لم يصف الحبيب بأنه (فقير) و إنما خاطبه الحقّ تبارك و تعالى-فى مقام الامتنان-

قائلًا: (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) سورة الضحى: ٨.و قال الإمام القرطبى فيها: (ووجدك لا مال لك فأغناك).انتهى.. أفلا نتعلّم من القرآن أدب الخطاب مع الأنبياء ؟!

و من الثابت أن الله تعالى خلق الأنبياء و الرُسُل فى الذروة العليا من الأنساب و الأحساب،حتى لا يطعن فيهم الخصوم ،بدعوى أنهم جاءوا بالرسالات ليرفعوا بها شأنهم بين الناس،تعويضًا لتواضع النسب..و هى مقولة هرقل لأبى سفيان:

(و كذلك الرُسُل تُبعث فى أنساب قومها) أى يختارهم الله دائمًا من أفضل القبائل و أكرم العشائر.و هم أيضًا أغنى الناس بنُبل المقاصد و الرسالات،و مكارم الأخلاق.

و كان الحبيب صلى الله عليه و سلّم فى أعلى و أشرف الأنساب،فهو حفيد الخليل إبراهيم من ولده إسماعيل.و قد عُرف منذ الصغر بالعفّة و الشهامة و المروءة والكرم و الرحمة و الصدق و الأمانة ،و كُل ما تعارف عليه البشر من مكارم الأخلاق.. و يكفى أنه الوحيد فى مكة الذى غلب عليه بينهم هذا اللقب قبل الإسلام: (الصادق الأمين) و قد طابقت الصفة الموصوف،فعلًا و حقيقة.و لا أدلّ على هذا من أن أصحاب الأموال كانوا لا يجدون من يُؤتمن على ودائعهم،سوى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب- رغم قلة ماله -فكانوا يضعون عنده أثمن ما يمتلكون،دون ذرّة من خوف أو شك فى احتمال الضياع أو التبديد. .صلى الله عليه و سلّم دائمًا أبدًا ، كما يُحب و يرضى.

٨- الزوجة الأُولى

لم يثبت أنه صلى الله عليه و سلم قد شهد فى شبابه حرب الفجار التى اندلعت قبل الاسلام،بين قريش و كنانة من جانب،و قيس عيلان من جانب آخر.و الذى صحّ أنه قد شهد حلف الفضول فى دار عبد الله بن جدعان أحد سادة مكة..و قد سُمّى الحلف بهذا الإسم،لأن عددًا من السادات فى الجاهلية تعاهدوا على فضائل،منها نصرة المظلوم،سواء كان من قريش أو من خارجها،و إكرام الضيف ،و مواساة الضعيف،و غيرها من المكارم.و قد أثنى عليه الصلاة والسلام-بعد الإسلام-على هذا الحلف،و أكّد أنه لا يحب أن يكون له به حُمُر النعم–أى: لا يبيعه بأغلى الأموال–و فى رواية قال عليه الصلاة و السلام: (و لو دُعيت به فى الإسلام لأجبت) أى: لو سأله مظلوم النصرة استنادًا إلى بنود هذا الحلف لأجابه و نصره.و هذا هو الأمر الذى يتفق مع مبادىء الإسلام تمامًا،لأنه كما قال عن نفسه الشريفة : (إنما بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق) صحّحه الإمام الألبانى.و ما كان من خير فى الجاهلية يُبقى عليه الاسلام و يزيده،و ما كان غير ذلك يمحوه و يقضى عليه.

و قد كانت مكارم أخلاق الشاب الهاشمى و نبله و فضله و جمال روحه و شكله،كافية لتجعل منه زوجًا تحلم به أية امرأة شريفة عفيفة فى قريش وغيرها،و منهن السيدة خديجة بنت خويلد الأسدى رضى الله عنها و أرضاها.

و كانت،رضى الله عنها،أرملة عاقلة شريفة جميلة ثرية تاجرة،تبعث بتجارتها مع الأمناء من قومها لاستثمار أموالها ،فى تبادل البضائع بالمنطقة،أى الشراء و البيع فى الحرم الشريف والشام و اليمن.و سمعت بأمانة و صدق الشاب الهاشمى،فكلّفته بتولّى أمور تجارتها،مقابل ضعف ما كانت تعطيه أجرًا لغيره.و قد ربحت تجارتها مع الصادق الأمين أضعاف ما كانت تربح من قبل،و حكى لها غلامها "ميسرة" الكثير عن مزايا الشاب النادر ،فأدركت أنها لن تجد زوجًا أفضل و لا أكرم منه.و يُروى أنها أرسلت إليه صديقتها "نفيسة بنت مُنية"لتعرض عليه الزواج من خديجة،فوافق عليه الصلاة و السلام.و انطلق مع أعمامه إلى أبيها –أو عمّها- فخطبها منه،و تمت الزيجة المُباركة.و نُلاحظ هنا أن السيدة خديجة قد علّمت النساء و أوليائهن أنه لا عيب فى إرسال وسيط مأمون إلى الشاب الصالح،لعرض الزواج عليه.كما أن هذه الزيجة الشريفة المُوفّقة،تُثبت أن فارق السن بين الزوجين ليس عائقًا فى سبيل السعادة الزوجية..فقد كانت-رضى الله عنها-فى الأربعين من عمرها،بينما كان صلى الله عليه و سلم فى الخامسة و العشرين من عمره الشريف.و منها أنجب ولديه القاسم و عبد الله - ماتا صغيرين-و بناته الأربع زينب و أم كُلْثوم و رقية و فاطمة.فكان منها كُلّ ذُريّته- بإستثناء إبراهيم-الذى أنجبه من السيدة مارية القبطية،صلى الله و سلّم علي الجميع.و قد

كان زواجها من سيد الخلائق شرفًا رفيعًا،لا مزيد عليه لامرأة،و أكرم الله به أُمّنا السيدة العظيمة خديجة،بما سبق فى علمه الأزلى سبحانه،من أنها ستكون أول من يؤمن برسالته،و أنها سوف تسانده بنفسها و مالها و قومها،حتى الرمق الأخير.و لم يتزوّج صلى الله عليه و سلّم سواها،إلى أن لقيت ربّها،رضى الله عنها وأرضاها.

٩- إعادة بناء الكعبة

كان عمر النبى صلى الله عليه و سلم ٣٥ سنة عندما شرعت قريش فى إعادة بناء الكعبة المُشرّفة،بعد أن هدم حريق ثم سيل جارف أجزاءً منها.و كانوا قد تعاهدوا على ألا يدخلوا فى نفقات بنائها إلا الحلال الطيّب من أموالهم.و هذا دليل على تعظيمهم لبيت الله الحرام حتى فى الجاهلية.و يسّر الله لهم،إذ جاءتهم أمواج البحر الأحمر بحطام سفينة تجارية ضخمة،و قدّر الله وجود نَجّار مصرى مُحترف بمكة فى ذلك الوقت.فشجّعهم هذا على البدء فى هدم البناء القديم المتواضع،و تشييد بناء أحدث وأعلى،و تشييد سقف خشبى للكعبة لأول مرّة.و تقاسمت القبائل العمل،فكان لكل قبيلة،ومن يحالفونها،ركن تتولّى هدمه ثم تبنيه.و ثبت أن الرسول صلى الله عليه و سلّم قد شارك مع أعمامه فى إعادة بناء الكعبة.و من حفظ الله له-حتى قبل الإسلام- أنه اضطر إلى رفع ثوبه—و هو بعيد عن الناس فى الجبل-لجلب الأحجار-ليحمل فيه ما يأتى به.و ما كاد يفعل حتى سقط مغشيًّا عليه (رواه الشيخان البخارى و مسلم) و نُودى من السماء أن:اشّددّ عليك إزارك يا محمد.فأعاد ثوبه على جسده الشريف فى الحال.و من المقطوع به أنه لم ير أحد عورته مُطلقًا،طوال عمره الأسعد .و عن هذه الواقعة قال الإمام ابن حجر رضى الله عنه -فى فتح البارى- :"إنه صلى الله عليه و سلّم كان مصونًا عن القبائح قبل البعثة و بعدها"انتهى..وهناك واقعة أخرى بالغة الأهمية .فقد اختلفت القبائل عندما حانت لحظة وضع الحجر الأسود فى موضعه من الكعبة.و هو شرف كانت كُل قبيلة تريد الانفراد به.و تشاحن الناس،واستعدوا للقتال فى سبيل هذا الأمر ! ثم ألهم الله تعالى أكبر قريش سنًّا فى ذلك الوقت"أبو أُمية بن عبد الله بن مخزوم" أن يقترح عليهم تحكيم أول من يدخل عليهم من باب المسجد،فوافقوا جميعًا.و كانت المفاجأة السعيدة أن القادم هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب،فصاح القوم كُلّهم :هذا الأمين.هذا محمد..رضينا به..و حكوا له المُشكلة،فألهمه الله تعالى الحل الذى يحقن الدماء، و يرضى به الجميع ،و هو أن يبسط ثوبه وأن يضع عليه الحجر الأسود،ثم يحمل مُمَثّلون لكل قبيلة أحد أطراف الثوب،فينال الجميع شرف المشاركة فى نقل الحجر المُبارك إلى مكانه..و رضى القوم جميعًا بأن يتناوله الصادق الأمين منهم ليضعه فى موضعه.و هذه القصة تُثبت على وجه القطع و اليقين ما كان للحبيب فى شبابه من منزلة رفيعة،لأمانته وصدقه و نبله و خلقه الرفيع،ثم حكمته و توفيق الله تعالى له،حتى قبل نزول الوحى عليه..و لو كان المُشركون يعقلون،لكفاهم هذا الموقف،الذى فيه حقن الله بمحمد دماءهم،و حَلّ خلافاتهم،و جمع بحكمته شَمْلَهم،ليوقنوا أن الرسول لن يأتيهم إلا بكل ما فيه صلاح معاشهم و معادهم..و لكن لله تبارك و تعالى فى خلقه شؤون..

((وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) سورة النور:٤٦

١٠- بشارات النبوة

من الثابت أن جميع الأنبياء قد بشّروا أقوامهم بمجىء النبى الخاتم صلى الله عليه و سلم..و قد فشل أكابر المجرمين الذين حَرّفوا نصوص التوراة و الإناجيل المُختلفة فى إخفاء اسم الحبيب و بشارات الأنبياء به..ففى إنجيل "برنابا" -الذى حظرت الكنائس تداوله منذ القرن الخامس الميلادى–نص صريح على نُبوّة محمد صلى الله عليه و سلّم.و قد تم العثور على أقدم نسخة منه مُؤخرًا..ففى الإصحاح الحادى و الأربعين منه نقرأ النص – رقم ٣٠ – و فيه : (فلمّا التفت آدم رأى مكتوبًا فوق الباب -باب الجنّة- لا إله إلا الله محمد رسول الله).و فى العبارة ٧:١٦٣ منه : (أجاب التلاميذ :يا معلّم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذى تتكلّم عنه الذى سيأتى إلى العالم ؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب: إنه محمد رسول الله)

و فى إنجيل لوقا (٢-١٤) وَرَدَ : (الحمد لله فى الأعالى ،و على الأرض إسلام، و للناس أحمد) لكن من ترجموا النص من اللغة السريانية قاموا بتحريف الترجمة.

و فى إنجيل يوحنا –الإصحاح السادس عشر- نص على: (إن لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط) و معنى كلمة الفارقليط هو أحمد أو الحَمّاد أو الحامد..و فى التوراة نصوص صريحة بمجىء النبى الخاتم،و كان يهود يثرب يتوعّدون الأوس و الخزرج (الأنصار) فى الجاهلية بقرب قدومه،و يُهدّدونهم بأنهم سيتّبعونه و سيقتلون الأوس و الخزرج معه قتل عاد و إرم ! فلما جاء صلى الله عليه و سلم جحده اليهود حسدًا له،لأنه من العرب،و كفروا به،بينما آمن به الأوس و الخزرج و صاروا أنصاره،لما أراد الله بهم من الهدى و الخير فى الدارين.

و هناك حديث "هرقل" مع " أبو سفيان" قبل إسلامه-فى صحيح البخارى-و فيه اعترف هرقل بنبوة محمد صلى الله عليه و سلم،و أنه كان يعلم بقرب مبعث نبى خاتم،لكنه لم يكن يحسب أنّه سيأتى من بين العرب.و رُوى مثل هذا عن المقوقس حاكم مصر،و عن النجاشى ملك الحبشة الذى آوى المهاجرين من المسلمين،و حماهم من بطش الكُفّار ،و أسلم لله الواحد القهّار،و أمر الرسول أصحابه بأداء صلاة الغائب عليه،عندما أبلغه جبريل عليه السلام بوفاته. و فى النسخة المطبوعة من التوراة (طبعة ريجارد واتس- لندن) نص يقول :

(جاء الرب من سيناء،و أشرق لنا من ساعير،و استعلن من فاران،و معه ألوف الأطهار) و"فاران" هو جبل حراء بمكة المُكرّمة.والمقصود بألوف الأطهار هم الصحابة،الذين يتطهّرون قبل الصلاة، بالاغتسال أو الوضوء.

و من أدلّة النبوة عند أهل الكتاب ما شهد به عبد الله بن سلام ،كبير أحبار اليهود فى يثرب،الذى أسلم بعد تأكّده من مطابقة مواصفات النبى-صلى الله عليه و سلم-لما ورد فى التوراة عن آخر الأنبياء و الرُسُل.و قرأ ما نَزَل من القرآن،فآمن به على الفور .وأراد رضى الله عنه أن يفضح ضلال و تضليل اليهود،فطلب من النبى ﷺ استدعاء اليهود و سؤالهم عنه ،و هو مختبىء لا يظهر لهم..فأثنوا عليه،و قالوا : (ابن سلام سيدنا و ابن سيدنا و خيرنا و ابن خيرنا) فلما خرج عليهم و أخبرهم بأنه قد أسلم،صاحوا : (بل هو شرّنا و ابن شرّنا) و راحوا يسبّونه بأبشع الألفاظ !!

و هناك قصة سلمان الفارسى،رضى الله عنه،الذى رحل من فارس،و تنقّل بين أديرة العراق و الشام،و أخبره الرهبان،واحدًا تلو الآخر،بقرب ظهور النبى الخاتم ﷺ فى بلاد العرب،و أنه سيهاجر إلى بلد بها نخيل كثير بين حرّتين من الأرض،و هى يثرب،و من علاماته أنه يقبل الهدية،و لا يأكل من الصدقة،

و أعلى ظهره الشريف خاتم النبوة..و صبر سلمان عندما اختطفه قوم و باعوه لليهود،و انتهى به المطاف الى يثرب ، عبدًا لأحد اليهود بها،و تعرّف على أوصاف النبى صلى الله عليه و سلم عندما قابله بعد الهجرة إلى يثرب و آمن به.

و هناك قصة ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة ، الذى كان من علماء الكتاب،

و كان يكره ما عليه قومه من عبادة الأوثان،و كان يُبشّر بقرب ظهور رسول خاتم،يعيد نشر عقيدة التوحيد،و يقضى على الشرك..و سيأتى مزيد من الكلام عنه بعد بدء نزول الوحى على الرسول صلى الله عليه و سلّم.

١١- الاعتكاف فى غار حراء

حَبّب الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه و سلم العُزْلة و الاعتكاف فى غار حراء،لا سيّمَا فى شهر رمضان من كل عام..و هو مكان هادىء أعلى الجبل،يوفّر السكون اللازم لصفاء الذهن،و التأمل فى بدائع خلق الله،مع البساطة ،والتجرّد من مُغريات الحياة و متاعها الزائل.و من الثابت أنه ﷺ لم يسجد قطّ لصنم،و كان حتى فى طفولته و صباه لا يأكل مما يُذبح تَقَرّبًا إلى الأصنام .والراجح أنه فى فترة ما قبل الوحى كان يتعبّد على دين أبويه الخليل ابراهيم ﷺ و الذبيح اسماعيل ﷺ ،و هو التوحيد الخالص لله الأحد الصمد،الذى لا شريك له و لا ولد. و لعبت السيدة خديجة رضى الله عنها دورًا عظيمًا فى احتضان الرسول و الرسالة.فكانت تُفرّغ زوجها ﷺ للتعبّد و التأمل فى الغار،و توفّر له الطعام و الماء،طوال فترة اعتكافه..و كان الفقراء والمساكين يعلمون مكانه ﷺ ،فيذهبون اليه لينالوا من عطفه و إحسانه،و لم يردّهم النبيل الكريم ﷺ خائبين قَطّ.و سبق نزول الوحى المُباشر،تمهيد له بالرؤى فى المنام،فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا تحقّقت مثل فلق الصبح،كما روت السيدة عائشة رضى الله عنها -الحديث فى صحيح البخارى-واستمر هذا ستة أشهر كاملة.و لأن فترة نزول الوحى عليه بعد ذلك كانت ٢٣ سنة،تكون الرؤيا الصادقة هى جزء واحد من ٤٦ جزءًا من النبوة.والثابت أن رؤيا الأنبياء وحى،وأن الشيطان لا سبيل له عليهم فى يقظة و لا فى منام.و هناك سوابق كثيرة من الرؤى فى حياة إخوته من الأنبياء و الرسل عليهم الصلاة و السلام أجمعين،منها رؤيا أبيه إبراهيم بشأن ذبح ولده البكر إسماعيل،و الرؤي التى تحقّقت فى حياة يعقوب وولده يوسف،و غيرهم،عليهم الصلاة و السلام أجمعين.و لا سبيل الى التشكيك فى الرؤى المنامية،فهى موجودة أيضًا فى التوراة و الأناجيل رغم التحريف،كما أنها واقع ملموس فى حياة الناس إلى يومنا هذا.و قد أخبر النبى صلى الله عليه و سلّم أنه لم يبق بعده من النبوة إلا المُبشّرات،و فسّرها بأنها الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له.وهناك أكثر من ثلاثين حديثًا حول هذا المعنى،منها قوله صلى الله عليه و سلّم: «لم يبق من النُبُوّة إلا المُبَشِّرَات» قالوا: وما المُبَشِّرَات؟ قال: «الرؤيا الصالحة» رواه البخاري. وقد رواه مالك في الموطأ مختصرًا و لفظه: «ليس يبقى بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة» ورواه أحمد وأبو داود وابن حبان في "صحيحه" والحاكم في "مستدركه".و هناك حديث آخر نصه:قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت،فلا رسول بعدي ولا نبي»،قال: فشق ذلك على الناس فقال:«ولكن المُبَشِّرَات»قالوا: يا رسول الله وما المُبَشِّرَات؟قال: «رؤيا الرجل المسلم و هي جزء من أجزاء النبوة» رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم.و صدق صلى الله عليه و سلم.

12- (اقرأ)

فى ليلة مباركة مشهودة من شهر رمضان،كان أمين الأرض مُعتكفًا فى الغار،عندما نزل عليه أمين السماء-جبريل عليه السلام-ليأمره قائلًا: (اقرأ).كان الجسد الشريف يرتعش، من هول المفاجأة،لأن التقاء النور الملائكى بالطين البشرى ليس شيئًا عاديًا و لا مألوفًا.رد عليه الصلاة و السلام :(ما أنا بقارىء) يُريد جبريل أن يعى النبى ما سيتلوه عليه و يحفظه ثم يقرأه،فأخبره النبى بأنه أُمّى لا يقرأ و لا يكتب،فكيف يقرأ ؟! و القراءة تكون للمكتوب،و تكون أيضًا للمحفوظ فى الصدر..ضمّه جبريل بقوة،ثم تركه و أعاد عليه الأمر: (اقرأ) و كرّر النبى الرَدّ (ما أنا بقارىء).احتضن ملك الوحى خاتم المرسلين بقُوّة للمرّة الثانية،ثم تركه و قال: (اقرأ) و تَكَرّر الرد: (ما أنا بقارىء..) و فى المرّة الثالثة ضَمّه جبريل ثم تركه،و قال: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ {٢} اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ {٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {٤} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {٥}..سورة العلق..و كانت هذه الآيات هى أول ما نزل من القرآن الكريم ،كما فى الصحيحين. و هى حكمة إلهية كبرى أن يكون أول ما نزل من الكتاب الأعظم،خاتم الكتب السماوية،هو الأمر الحكيم (اقرأ)..فالإسلام هو دين التوحيد و العلوم،وأعظم و أشرف المعارف هو العلم بالله الواحد الأحد و ملائكته و كُتُبه و رُسُله و شريعته.و قد كانت القراءة،و ما زالت،و ستظل هى الوسيلة الأساسية لتحصيل العلوم والمعارف الى أن يرث الله الأرض و ما عليها..و هى قراءة المكتوب و المحفوظ.و ربما يتسع المعنى ليشمل قراءة و تَدَبّر و دراسة آيات الله،فى الكتاب المسطور،و فى الكون المنظور..و القراءة تكون باسم الله تعالى الخالق الأكرم،سبحانه وحده لا شريك له،و ذكر أنه عزّ من قائل (عَلَّمَ بالقلم) تصريحًا بأهمية أداة الكتابة و تقييد و حفظ العلوم و المعارف،و يَمُنّ المولى على جنس الانسان،بأنه علّمه ما لم يكن يعلم،من لدن أبينا آدم إلى قيام الساعة..قال الإمام ابن كثير رضى الله عنه فى تفسيره : (أول شيء "نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات،و هُن أول رحمة رحم الله بها العباد،و أول نعمة أنعم الله بها عليهم.و فيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة،وأن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم،فشرّفه و كرّمه بالعلم،و هو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة.والعلم تارة يكون في الأذهان،و تارة يكون في اللسان،و تارة يكون في الكتابة بالبنان،ذهني و لفظي و رسمي،والرسمي يستلزمهما من غير عكس،فلهذا قال: (اقرأ وربك الأكرم الذي عَلَّمَ بالقلم عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم) و في الأثر: (قيّدوا العلم بالكتابة) وفيه أيضا:"من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يكن يعلم".انتهى.و قال الإمام الزمخشرى رضى الله عنه فى تفسيره للآيات البيّنات:" :

فدلّ على كمال كرمه بأنه عَلَّمَ عباده ما لم يعلموا،و نقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم،و نبّه على فضل علم الكتابة،لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يُحيط بها إلا هو.و ما دُوّنت العلوم،و لا قُيّدت الحِكَمُ،و لا ضُبطت أخبار الأولين و لا مقالاتهم ،و لا كُتب الله المُنزّلة إلا بالكتابة.و لولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، و لو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى و لطيف تدبيره دليل إلا أمر الخط والقلم لكفى به"..انتهى.

و كانت أُمّية النبى صلى الله عليه و سلم معجزة و شرفًا له،حتى يُوقن الجميع أن الله تعالى هو الذى علّمه وأنزل عليه القرآن من عنده،و لا يبقى مجال للتشكيك فيه،و هذا ما يشهد له قوله تعالى فى سورة العنكبوت: (وَ مَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَ لَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)

١٣- شبهات حول الوحى

من الشبهات التى حاول خصوم الإسلام إثارتها حول الوحى،ما زعموه حول حال النبى صلى الله عليه و سلّم وقت نزول جبريل عليه السلام عليه به.

فمنهم من زعموا أنها حالة"صرع" ! و فاتهم أن المريض بالصرع لا يتذكّر –بعد الإفاقة-شيئًا مما حدث له .و هل يأتى المصروع بمثل هذا البيان العُلوى،الذى يتضمن كل أوجه الإعجاز اللغوى و العلمى و العقلى على مرّ الزمان كُلّه ؟! و قد ردّ المشركون أنفسهم –أمثال عتبة بن ربيعة-على هذا .. و قال عتبة بعد أن سماع بعض القرآن و مناقشة النبى: (والله لقد سمعت قولًا ما سمعت مثله قط،ووالله ما هو بالشعر ولا بالكهانة،يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي،خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه،فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم..فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم،وإن يظهر على العرب، فمُلْكه مُلْككم،وعِزّه عِزّكم، وكنتم أسعد الناس به)

و عندما هاجمه قومه و اتهموه باتباع النبى،اضطر عتبة إلى إدعاء أنّه جاء بسحر من نوع خاص،يُفرّق بين المرء و زوجه وأُمّه وأبيه ! و من أفضل ما قيل تفنيدًا لهذه الشُبهة الباطلة ما كتبه العلّامة محمد رشيد رضا رحمه الله و خلاصته أن: (الذي يصاب بالصرع حقيقة يفقد وعيه،فإذا أفاق لا يذكر من تلك الفترة شيئًا،ولكن الوحي الذي كان يأتى نبينا محمدًا لا يذهب حتى يكون قد وعى و حفظ ما أوحي إليه به.. و المصاب بالصرع لا يمكن أن يأتي بدين و رسالة إلى العالم.ثم إن الوحي لم يكن دائمًا بالصورة التي تشبه الغيبوبة،بل كان يأتي في الواقع كثيرًا والرسول في يقظة تامة). انتهى.و يُلخّص"ساسي الحاج"هذه القضية قائلًا: (إن الصرع يُعَطّل الإدراك الإنساني،و ينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية،يفقد أثناءها الشعور و الحس. أما الوحي فهو سمو روحي اختص الله به أنبياءه،ليُلقي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغونها للناس.و قد يصل العلم إلى إدراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سُنَنِها وأسرارها بعد أجيال وقرون،وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم،ومع ذلك تبقى حقائق يقينية يهتدي بها المؤمنون الصادقون).انتهى.

و من الخصوم من زعم أن الوحى حالة من التأمل و الاستغراق.و لكن يُرد عليهم بأنه حالة من التلقّى من خارج نفس النبى،بواسطة كائن نورانى علوى.و الدليل القاطع هو أن أسلوب القرآن الكريم وألفاظه و تركيبه يختلف تمامًا عن أسلوب النبى صلى الله عليه و سلّم و لا يُشبهه من أى وجه،و لا يُشبه كلام أى أحد من البشر.و نظرة سريعة الى أسلوب الحديث النبوى –مع بلاغته النادرة-تُثبت أنه لا تطابق و لا تقارب بينه و بين أسلوب القرآن الكريم.و قد حاول الخبثاء التغلّب على هذه الحقيقة بادعاء أن القرآن

يصدر عن منطقة اللا شعور فى نفس النبى،أو العقل الباطن،بينما الأحاديث تصدر عن العقل الظاهر.لكن ملاحظة الإنتاج الذهنى للأدباء و الشُعراء و سائر المُبدعين،تُثبت كذب هؤلاء.فهناك دائمًا ما يُسمّونه (الوحدة الأُسلوبية) لكل مُبدع،و أسلوب الكاتب أو الشاعر أو الخطيب واحد ثابت لا يتغير،مهما مَرّ به من مراحل و تغييرات فكرية و تجارب ذهنية،و هو يُشبه بصمة الإصبع أو الصوت،التى تختلف من شخص الى آخر،و لا يتطابق فيها اثنان من البشر.و عن طريق التمييز (بوحدة الأسلوب) يتم اكتشاف السرقات الأدبية فى عصرنا.و مما لا جدال فيه أن الفوارق واضحة تمامًا بين تركيب و ألفاظ الآيات القرآنية و بين الأحاديث النبوية.و قد ردّ بعض المُنصفين من المستشرقين على دعاوى زملائهم حول الوحى.و من هؤلاء الذين أنصفوا الوحى (سال) و (تايلور) و قد أكّدا خطأ الزعم بأن الوحى الإلهى ناتج عن حالة من الصرع أو التأمل النفسى أو العقل الباطن،و أقرّا بأن الإسلام له مصدر علوى.

ثم ردّ كلاهما على فرية أُخرى هى أن النبى قد تعلّم من أحد من مُعاصريه،فأكّدا عدم وجود أى نموذج آخر مُشابه أو مُقارب للقرآن الكريم لدى أحد من الديانات أو الأفراد السابقين أو المُعاصرين لمحمد صلى الله عليه و سلّم..و يقول"سال"نافيًا الزعم بأن أحدًا علّم محمدًا القرآن:"إذا قرأنا التاريخ الكنسى بعناية سنرى أن العالم النصرانى قد تَعَرّض منذ القرن الثالث الميلادى لمسخ صورته،بسبب أطماع رجال الدين،و المشاجرات التى لا تنتهى،و الخلافات بين زعماء الكنائس لأتفه الأسباب.و أن المسيحيين فى سعيهم لإرضاء شهواتهم،يستخدمون كل أنواع الخبث و الحقد و القسوة،فانتهى بهم الأمر إلى طرد المسيحية الحقيقية ذاتها من الوجود ،بسبب خلافاتهم المُستمرّة حول فهمها.و فى هذه العصور المُظلمة ظهرت،بل ثبتت كل أنواع الخرافات و الفساد".و يقول تايلور:"ما قابله محمد و أتباعه فى كل مكان لم يكن سوى خُرافات مُنفّرة،و وثنية مُنحطّة و مُخجلة،و مذاهب كنسية مغرورة باطلة،و طقوسًا دينية مُنحلّة وصبيانية".و إذا كان هذا هو الحال فكيف ينقل عنها أو منها ؟ !

و يتساءل العلّامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله:"

لقد فَنَّدَ القرآن الكريم كثيرًا من العقائد و التقاليد اليهودية و النصرانية الباطلة،

فكيف ينقض النموذج الذى قَلّده و احتذاه على حد زعمهم "؟!

١٤- مرحلة الدعوة السِرّيّة

توقّف نزول الوحى بضعة أشهر..و لا شك أنها كانت فترة عصيبة ،اشتدّ فيها الابتلاء و التمحيص للنبى صلى الله عليه و سلّم ..و ربما كانت الحكمة المقصودة أن تهدأ نفس المصطفى،و إعداده لتلقّى المزيد من الوحى فيما بعد.كما أن الأصل هو التَدَرّج فى التنزيل و التشريع،رِفْقًا بالناس،و تهيئة لنفوسهم لقبول المنهج،على مراحل،لا مَرّة واحدة،حتى لا ينفروا منه..و ليس صحيحًا ما ذكرته بعض المصادر،من أنه عليه السلام حاول الانتحار بسبب توقّف نزول الوحى..فهذا من ناحية يُخالف عصمة الأنبياء و حفظ الله تعالى لهم.و من ناحية أخرى فإن راوى حكاية الهَمّ بالتردى من قمم الجبال قال عنها أنها (فيما بلغنا)و لم يذكر اسم الذى أبلغه إياها،و هذه الجهالة بالراوى ناقل الكلام تعنى ما يُسَمّيه علماء الحديث"انقطاع السند"و هذا ينسفها و يذهب بحُجّيتها،كما أوضح العالم الجليل الدكتور أكرم ضياء العمرى فى كتابه الرائع عن السيرة الصحيحة.ثم جاء جبريل عليه السلام فهدّأ من روع الحبيب،و تتابع نزول الوحى عليه بعد ذلك.و يُروى أن الوحى قد تَوَقّف مَرّة أُخرى لاحقًا، فتصايح المشركون فرحين زاعمين أن:رب محمد قد قلاه – يقصدون هجره و تخلّى عنه- فأنزل الحق تبارك و تعالى عليه : (وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) سورة الضحى:١-٥

و نُلاحظ هنا أنهم اعترفوا-بغير قصد-بأن لمحمد إله،و إن زعموا أنه تركه !

و طوال ٣ سنوات اكتفى الرسول صلى الله عليه و سلم بالدعوة إلى الله فى مكة سرًّا.و من المفهوم أن تُتّخذ أعلى درجات الحيطة و الحذر والكتمان فى البداية،حفاظًا على أرواح من يعتنقون الدين الحنيف،و تجنّبًا للصدام المحتوم،إلى أن يشتد ساعد أتباع الاسلام،و يكثر عددهم بعض الشىء.فقد كان من المُؤكّد أن دعوة التوحيد و نبذ عبادة الأصنام سوف تصطدم بصخور من الوثنية الموروثة عن الآباء،و مصالح اقتصادية و تُجارية لكبار أثرياء قريش،الذين يخافون أن ينفض العرب عن بلدهم،إذا أُزيلت الأصنام من البيت الحرام،فضلًا عن تقليص نفوذ كبار المشركين.و هذه الأخيرة اعترف بها صراحة الطاغية "أبو جهل"حين سمع القرآن خلسة مع بعض أصحابه،و عندما سأله الأخنس بن شريق عن رأيه فردّ عليه : (تنازعنا نحن و بنو عبد مناف الشرف..أطعموا فأطعمنا،و حملوا فحملنا،و أعطوا فأعطينا،حتى إذا تجاثينا على الرُكَب–تجالسنا و تقاربنا فى المنزلة-و كُنّا كفرسى رهان–كناية عن التساوى- قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء،فمتى نُدرك هذه ؟! و الله لا نؤمن به أبدًا و لا نُصدّقه). رواه الإمام البيهقى فى دلائل النبوة..و لهذا كان كثير ممن أقبلوا على الإسلام من الموالى (العبيد و الجوارى) المُضطهدين المسحوقين فى الجاهلية،و الفقراء و

المساكين،الذين وجدوا فى عقيدة التوحيد الحق و الحرية و العدالة و المساواة و الكرامة الإنسانية.و أسلم أيضًا–بمرور الوقت-عدد كبير من فلذات أكباد قبائل و عشائر قريش،على رأسهم أبو بكر الصديق و على بن أبى طالب و عثمان بن عفّان و الزبير بن العوّام و طلحة بن عبيد الله و سعد بن أبى وقاص و عبد الرحمن بن عوف و مصعب بن عمير وعثمان بن مظعون و المقداد و أبو عبيدة بن الجرّاح و أبو سلمة بن عبد الأسد و الأرقم بن أبى الأرقم ثم حمزة بن عبد المطلب و عمر بن الخطاب رضى الله عن الجميع ..كما أسلم كثيرون ينتمون إلى قبائل أخرى خارج مكة، منهم زيد بن حارثة –أصله من قبيلة كلب-و عبد الله بن مسعود الهذلى و عتبة بن غزوان المازنى و الطفيل بن عمرو الدوسى و أبو ذرّ الغفاري و عبد الله بن قيس الأشعرى و عمّار بن ياسر-و أصله عنسى-و عامر بن ربيعة العنزى و عمرو بن عبسة من سليم و صهيب بن سنان من بنى النمر بن قاسط و غيرهم،رضوان الله على الجميع.و خروجًا من الخلاف بين العلماء حول تحديد أول من دخل الاسلام من الصحابة،يرى الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه أن أول من أسلم من جميع الناس–و من النساء-هى السيدة خديجة بنت خويلد،و أول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة،و أول من أسلم من الغلمان على بن أبى طالب،و أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصدّيق رضى الله عنهم أجمعين.

١٥- فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ

كان الرسول صلى الله عليه و سلّم يأمر أصحابه بأن يكتموا إسلامهم ،إلا عمن يثقون فيه،أو يأملون فى هداية الله له.و كان يلتقى بهم سِرًّا فى دار الأرقم بن أبى الأرقم،يتلو عليهم ما ينزل من الآيات تباعًا،و يُفقّههم فى الدين،و يُصلى بهم .

و بعد ثلاث سنوات من الدعوة إلى الله تعالى سرًّا نزل قوله سبحانه:

(وَ أَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) سورة الشعراء:٢١٤

و بنزول هذه الآية الكريمة انتهت مرحلة الدعوة السرية-كما يرى الإمام الطبرى رضى الله عنه-و بدأت مرحلة الجهر بالإسلام،و دعوة الكافة إليه.و من الطبيعى أن يبدأ النبى بقبيلته و أقاربه أولًا.و لهذا صعد صلى الله عليه و سلّم أعلى جبل الصفا،و هتف على عادة العرب: يا صباحاه،فاجتمع الناس من كُل مكان.و سألهم صلى الله عليه و سلّم: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج-عليكم-بسفح هذا الجبل،أكنتم مُصَدّقِى"هل تصدقوننى"؟!فأجابوا جميعًا: نعم.ما جرّبنا عليك كذبًا قط.فقال عليه الصلاة والسلام:"فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد".و كان عمّه الضال"أبو لهب"قد سمع بالدين الذى يدعو إليه ابن أخيه و أبغضه،لأنه كان شديد التعصّب لأوثان قومه.فصاح اللعين فى وجه ابن أخيه الأمين: تبًّا لك..ألهذا جمعتنا ؟!

و على الفور نزل الرَدّ الصاعق من السماء،عليه و على امرأته الحاقدة على الإسلام "أُم جميل بنت حرب"أخت سفيان بن حرب: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ *وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ *فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) سورة المسد.و هذه السورة وحدها دليل قاطع على النبوة،لأنها أكّدت أن أبا لهب سيموت كافرًا و سيدخل النار.و قد أسلم أكثر مشركي قريش،فيما بعد،بإستثناء أبى لهب و زوجته و عدد ممن كتب الله عليهم الشقاء والهلاك..وهذا إخبار من الله بقدره المحتوم،فلم يستطع اللعين النطق بالشهادتين ، و لو لتكذيب ما جاء به ابن أخيه حول مصيره،و مات و زوجته على الشرك،ليثبت صدق ما نزل به القرآن بشأنه..و الله وحده هو الهادى إلى سواء السبيل..و قد تَفَرّق القوم بعد هذا الإعلان النبوى الأول،لتبدأ الحرب الشرسة على الإسلام و المسلمين فى مكة.

١٦- تضحيات المسلمين الأوائل

أدرك أكابر المشركين خطورة الدعوة الوليدة على مصالحهم و امتيازاتهم،خاصة بعد دخول أعداد كبيرة من الرقيق فى الإسلام.فانقضوا كالكلاب المسعورة على العبيد و الضعفاء يبطشون بهم بلا رحمة.و تعرّض بلال بن رباح و عمّار بن ياسر و أبوه و أُمّه و غيرهم لتعذيب مُروّع فى لهيب الصحراء الحارق،لإجبارهم على ترك دينهم بلا جدوى.و سطر هؤلاء الأصحاب العِظَام صفحات خالدات فى الثبات على العقيدة،و بذل الأرواح و الأموال رخيصة فى سبيلها..صمد بلال عاريًا تحت الصخور الملتهبة،و سياط المُجرمين تُلهب جسده، فما يزيد على الهتاف:"أحد أحد"و رفضت سُميّة بنت خياط– أُمّ عمّار-الكُفر،فطعنها الخبيث أبو جهل بحربة فى بطنها، لتصعد روحها الطاهرة الى أعلى الجنان،و تكون أول شهيدة فى تاريخ الإسلام.و تعرّض زوجها"ياسر"و ابنها"عمّار"و صُهيب الرومى و خبّاب بن الأرت-مع آخرين-لأبشع ألوان البطش و النكال،فما زادهم إلا إيمانًا و تسليمًا.و امتدّ الأذى إلى الرسول صلى الله عليه و سلّم نفسه.و تراوحت درجاته ما بين السَبّ و الشتم،و التهديد، و رمى القاذورات عليه و أمام بيته،إلى محاولة قتله عليه الصلاة والسلام .و يُروى أن أحدهم–عُقبة بن أبى مُعيط-ألقى فضلات جمل ذبيح علي النبى صلى الله عليه و سلّم،و هو ساجد إلى جوار الكعبة،و راح الحاضرون من المشركين يضحكون.و لم يخرج الحبيب من صلاته رغم ذلك.و جاءت ابنته السيدة فاطمة-و كانت طفلة صغيرة-فأزاحت عن ملابس أبيها الفضلات و هى تبكى و تَسُبّ المجرمين.فلمّا فرغ صلى الله عليه و سلم من الصلاة دعا ربه:"اللهم عليك بقريش"ثلاثًا، ثم دعا على الحاضرين بالأسماء:اللهم عليك بعقبة بن أبى مُعيط،اللهم عليك بعمرو بن هشام-أبو جهل- اللهم عليك بعتبة بن ربيعة،اللهم عليك بشيبة بن ربيعة،اللهم عليك بأُميّة بن خلف،اللهم عليك بعمارة بن الوليد"..و يقول راوى الحديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه:فو الله لقد رأيتهم -كل من دعا عليهم النبى- صرعى يوم"بدر"مدفونين فى القليب..و عندما اشتد أذى المجرمين للنبى و أصحابه،دعا عليه الصلاة والسلام ربّه أن يُصيبهم بسنوات قحط و شِدّة لعلهم يثوبون إلى الرُشد،و يتركون ما هم عليه من الكُفر.و بالفعل اشتدت عليهم سنة المجاعة،فجاء إليه أبو سفيان أحد زعماء قريش،قائلًا: يا محمد إنك تأمر بطاعة الله و صلة الرحم،وإن قومك قد هلكوا،فادع الله لهم..و عاهدوه على ترك عبادة الأصنام،لو كشف الله عنهم المحنة.واستجاب الله لدعاء رسوله صلى الله عليه و سلم ،و فرّج عنهم الكرب و البلاء،و لكنهم نكثوا عهودهم،وأصرّوا على كُفرهم !

١٧- قصة إسلام أبى ذر الغفارى

كان أبو ذر الغفارى رضى الله عنه،قبل إسلامه،يُنْكر عبادة الأصنام،و يصلى لله الواحد على دين الخليل إبراهيم،بدون اتجاه إلى قبلة بعينها.و سمع ببعثة نبى فى مكة،فجاء إلى الحرم،و كتم أمره،و مكث بجوار الكعبة ليلًا.فرآه على بن أبى طالب رضى الله عنه،و فهم أنه غريب فاستضافه.و لم يسأله عن شىء.و فى الصباح عاد أبو ذر إلى بيت الله الحرام،و أمضى نهاره كله فيه.و فى الليل رآه على،فاستضافه مرة أخرى.و بعد الليلة الثالثة سأله عن غرضه من القدوم إلى مكة،فأخبره أبو ذر أنه يريد مقابلة النبى و التأكّد من أمره.فقال له على:إنه على الحق،و هو رسول الله.و اتفقا على أن يمشى على و أبو ذر خلفه من بعيد،فإذا رأى على أحدًا يخافه عليه يتظاهر بأنه يقضى حاجته فى جانب من الطريق،ليبتعد أبو ذر،حتى يزول الخطر،فيعاود السير وراء على.ووصلا أخيرًا إلى بيت الحبيب صلى الله عليه و سلم،الذى رحّب بأبى ذر،و شرح له قواعد الإسلام،فانشرح صدره،و نطق بالشهادة على الفور.و أمره الرسول صلى الله عليه و سلّم بكتمان أمره و العودة الى قومه،إلى أن يسمع بظهور الإسلام فيأتى اليه.لكن الصحابى الجليل رضى الله عنه أَبَى إلا أن يجهر بإسلامه،فى قلب البيت الحرام،مهما كانت العواقب.و جاء رضى الله عنه إلى الكعبة و صاح أمام طواغيت المشركين جميعًا:أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدًا رسول الله..و جُنّ جنون الكافرين فتكاثروا عليه،و راحوا يضربونه بكل غِل ووحشية،حتى أوشك على الموت.لكن الله تعالى سَخّرَ له العباس بن عبد المطلب–عم النبى-الذى كان يُخفى إسلامه،فصاح بهم مُحَذّرًا من عواقب قتله،لأن طريق تجارة قريش يمر على ديار قبيلته"غفار"و لن تسكت القبيلة على مقتل ابنها.و خاف المشركون على تجارتهم و أموالهم فكَفّوا أيديهم عن أبى ذرّ.و ما كاد أبو ذر يعود الى قومه حتى بدأ فى دعوتهم إلى الإسلام. وأسلم بسببه – تِباعًا- أكثر من نصف القبيلة،ثم أسلم الباقون بعد الهجرة النبوية الشريفة.و ظل أبو ذر رضى الله عنه طوال حياته يصدع بكلمة الحق،لا يخشى فى الله لومة لائم.و صدق فيه الحديث الشريف: (ما أظلّت الخضراء و لا أقلّت الغبراء أصدق من أبي ذر)) رواه الامام أحمد و الترمذى و ابن ماجه و غيرهم و صَحّحه الألبانى.

١٨- مفاوضات مع أبى طالب

فشلت كل أساليب القمع فى القضاء على الدعوة الوليدة فى المهد.فلجأ المشركون إلى أسلوب الضغط على النبى صلى الله عليه و سلم عن طريق عمه"أبو طالب"الذى كان على شركه،لكنه كان يدعم ابن أخيه و يحميه بكل قواه.و تكرّر إلحاحهم على العم عدة مرات.فقد كلّمه بعض سادة مكّة أولًا بلطف و تودّد،و أشاروا إلى ماله من مكانة و فضل فى قريش،و أنه على مثل ما هم عليه من عبادة الأوثان التى يعيبها ابن أخيه و يُسفّه عقيدة من يُقدّسونها.و طلبوا منه أن يكُفّ ابن أخيه.

فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقًا،و تلطّف معهم فى الجواب حتى انصرفوا.لكن الرسول صلى الله عليه و سلّم لم يتوقّف عن دعوة الحق،و زاد عدد أتباعه بمرور الوقت،فعاد الكافرون إلى أبى طالب و خاطبوه فى المرّة الثانية بلهجة أكثرتشدّدًا:

يا أبا طالب إن لك سِنًّا و شرفًا و منزلة فينا،و إنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا.و إنّا و الله لا نصبر على شتم آبائنا و تسفيه أحلامنا و عيب آلهتنا،حتى تَكُفّه عنا،أو نُنازله و إياك فى ذلك،حتى يهلك أحد الفريقين.

و اشتدّ كلامهم على أبى طالب،فاستدعى النبى صلى الله عليه و سلّم،و قال له:يا ابن أخى إن قومك قد جاءونى،فقالوا كذا و كذا،فأبق علىّ و على نفسك،و لا تُحمّلنى من الأمر ما لا أُطيق.فظنّ صلى الله عليه و سلّم أن عمّه قد ضعف عن نُصرته،فقال له: (يا عم.و الله لو وضعوا الشمس فى يمينى،و القمر فى يسارى،على أن أترك هذا الأمر-الإسلام-ما تركته حتى يُظهره الله،أو أهلك دونه) و غلبته دموعه عليه الصلاة و السلام فقام باكيًا.و تأثّر أبو طالب بشدّة.و كان الله تعالى قد ألقى فى قلبه شفقة و محبة للنبى،تفوق محبته لأولاده،فهتف به:اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت،فو الله لا أُسلمك لشىء أبدًا.و سمع الكُفّار بذلك ففكّروا فى إغراء أبى طالب بدلًا من تهديده.و جاءوا إليه فى المَرّة الثالثة بعرض ظنّوه مُغريًا ! فقد أحضروا إليه عمارة بن الوليد بن المغيرة،و قالوا:يا أبا طالب،هذا أجمل فتى فى قريش،فخذه و لك عقله و نصره،و اتخذه ولدًا لك،و أسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك و دين آبائك،و فرّق جماعة قومك،و سَفّه أحلامهم،فنقتله،فإنما هو رجل برجل ! و كان العرض بالغ السُخف و الإجحاف،فصاح بهم أبو طالب: و الله لبئس ما تُسومونى ! أتعطونى ابنكم أُطعمه لكم،و أُعطيكم ابنى لتقتلوه ؟! هذا و الله ما لا يكون أبدًا .

و كان ابن عمه المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف حاضرًا،فقال له:و الله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ! و جهدوا على التخلّص مما تكره،فما أراك تريد أن تقبل منهم

شيئًا ! و لم يكن ما ذكره المُطعم (المُشرك) صحيحًا على الإطلاق،إذ كيف يكون إنصافًا أن يرعى و يُربّى لهم ابنهم وهم يقتلون ولده ؟!

و ردّ عليه أبو طالب بمرارة و استنكار: و الله ما أنصفونى،و لكنك أجمعت (قَرُرْتَ) خذلانى،و مُظاهرة (مُناصرة) القوم علىّ،فاصنع ما بدا لك !

و يبدو أن كلمات أبى طالب قد تركت أثرًا فى نفس المُطعم بن عدى،و دفعته إلى تغيير سلوكه،فكانت له فيما بعد مواقف رائعة،سَجّلَها التاريخ،و بسببها ذكره الرسول صلى الله عليه و سلم لاحقًا بالخير،رغم أنه مات على الشرك.

١٩- شهادة زعيم المشركين للقرآن الكريم

من الوسائل التى لجأت اليها قريش لاجهاض الدعوة الناشئة،تلك المحاولات المُتكرّرة لمُساومة و إغراء الرسول صلى الله عليه و سلم للتخلى عن الإسلام..و فى إحدى هذه المرّات جاء إليه عُتبة بن ربيعة أحد سادات مكّة،بعد مشاورات مع كبار الطواغيت،فقال له:يا ابن أخى،إنك مِنّا حيث قد علمت من شرف العشيرة،و رفعة النسب،و قد أتيت قومك بأمر عظيم،فَرّقْتَ به جماعتهم،و سَفّهْتَ به أحلامهم،و عِبْتَ به آلهتهم،و كَفّرْتَ به من مضى من آبائهم ،فاسمع منى،أعرض عليك أمورًا تنظر فيها،لعلك تقبل بعضها.فرَدّ الرسول صلى الله عليه و سلّم: (قل يا أبا الوليد أسمع) قال عُتبة:يا ابن أخى إن كنت تريد بما جئت به مالًا جمعنا لك من أموالنا،حتى تكون أكثرنا مالًا.و إن كنت تريد به شرفًا سَوّدناك (أعطيناك السيادة) علينا،فلا نقطع أمرًا دونك.و إن كنت تريد به مُلكًا مَلّكْنَاك علينا.و إن كان هذا الذى يأتيك شيئًا تراه لا تستطيع رَدّه (مرض أو جنّ) طلبنا لك الطب،و بذلنا فيه أموالنا حتى تُشفى منه،فربما غلب التابع (الجِنّى) على الرجل إلى أن يُداوى منه.و بعد أن انتهى عُتبة من عرض ما عنده قال له النبى صلى الله عليه و سلّم : (أو قد فرغت يا أبا الوليد) ؟! أجاب عُتبة:نعم،فقال عليه الصلاة و السلام :اسمع منى، بسم الله الرحمن الرحيم ((حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤)وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَ بَارَكَ فِيهَا وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ حِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ (١٣) سورة فُصّلت.

فهب عُتبة مذعورًا من وقع الإنذار الالهى بالصاعقة،ووضع يده على فم النبى صلى الله عليه و سلّم،و هو يناشده بالله و بالرحم (القرابة) مخافة أن يتحقّق الإنذار.و انصرف مُسرعًا،إلى حيث كان الباقون من سادات مكّة ينتظرون بفارغ الصبر،و قال لهم مقولته الشهيرة:

(سمعت قولًا و الله ما سمعت مثله قَطْ.و الله ما هو بالشعر ،و لا بالسحر،و لا بالكهانة.يا معشر قريش أطيعونى و اجعلوها بى،و خَلّوا بين هذا الرجل و بين ما هو فيه (اتركوه) فو الله ليكوننّ لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم .فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم،و إن يظهر على العرب فمُلكه مُلككم،و عِزّه عِزّكم،و كنتم أسعد الناس بـه) فصـاحوا بـه أجمعين:

سحرك يا أبا الوليد بلسانه.فردّ علـيهم بقُوّة:هـذا رأيـى فيـه فاصـنعوا مـا بـدا لكـم.و هنـا نُلاحظ أن الله تعالى قد أنطق لسان عُتبة بشهادة حقّ للإسـلام و القـرآن،و إن ظـل علـى شِرْكِه،و نَكَصَ على عقبيه،و قُتل مُشركًا يوم بدر.و هنـاك ملاحظـة أُخرى،هـى أن كُـلّ حُطام الدنيا الفانى الذى عرضوا جميع أصنافه على الرسـول،لم يخلـب لُبّـه،و لـم يفتنـه عَمّـا أنـزل الله اليـه،فهو الـذى خيّـره ربّـه،فاختار أن يكـون عبـدًا رسـولًا،يجوع يومًـا فيصبر،و يشبع يومًا فيشكر.و لو شاء لجعله الله ملكًا رسولًا،مثل أخويه داود و سـليمان ،عليه و عليهما الصلاة و السلام..و ما عند الله خير و أبقى.

و فى مرّة أخرى عرضوا عليه أن يأتيهم بكتاب غير القرآن الكـريم ! و فـى مـرّة ثالثـة عرضوا أن يعبد الجميع رَبّه مع آلهتهم (الأصنام) و هم يتوهّمون أن هذا حل للمشكلة ! لكن عقيدة التوحيد لا تقبل المُدَاهنـة،و لا المسـاومة،و لا أنصـاف الحلـول..و قـد نزلـت سورة (الكافرون) لتحسم هذا الأمر : بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَ لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَـا أَعْبُـدُ (٣) وَ لَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَ لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)

٢٠- إسلام الأسدين حمزة و عمر

فى غمرة المحنة التى مرّ بها المسلمون المُستضعفون بدأت بشائر التمكين فى الظهور..فقد كان الأذى الشديد سببًا مُباشرًا فى إسلام الأسد حمزة بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه و سلم.إذ خرج النبى ذات يوم الى الكعبة،فتعرّض له اللعين"أبو جهل"فشتمه و سَبّه سبابًا قبيحًا،و لم يردّ عليه صلى الله عليه و سلم.و كان حمزة عائدًا من الصيد،فأخبرته جارية لعبد الله بن جدعان بما أصاب ابن اخيه على يد أبى جهل.و أراد الله تعالى بحمزة الخير كل الخير،فاندفع غاضبًا إلى مجلس أبى جهل،وسط زعماء قريش،و صاح به:أتشتم ابن أخى ؟! فأنا على دينه،فرُدّ علىّ هذا إن استطعت،

و ضربه بالقوس ضربة أسالت الدماء من رأسه.و ثار بنو مخزوم،يريدون الإنتقام لكبيرهم، لكن الله تعالى أخزى أبا جهل،فمنعهم قائلًا

دعوا أبا عمارة (حمزة) فإنى سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا.و هكذا بدأ حمزة رضى الله عنه إسلامه حمية و انتصارًا لإبن أخيه أولًا،ثم شرح الله صدره للتوحيد بعدها.و ما كادت تمر ثلاثة أيام على إسلام حمزة،حتى فُجعت قريش بضربة أُخرى أشد،هى إسلام الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه.و خُلاصة الروايات المُتَعَدّدة فى سبب إسلام عمر أنه كان من المُجرمين الساخطين على الإسلام،و ممن يُلحقون أشد الأذى و البطش بضعفاء المسلمين.و وصل به الأمر إلى حد أنه حمل سيفه،و خرج يبحث عن النبى صلى الله عليه و سلم ليقتله.قابله رجل و سأله:أين تريد يا عمر؟ فأجاب:أُريد أن أقتل محمدًا.و كان الرجل مُسلمًا،فأراد أن يصرفه عما ينتوى،و قال له:و هل تظن أن قومه من بنى عبد مناف و بنى زهرة (أخوال النبى) يتركونك تمشى على الأرض إن قتلته ؟! غضب عمر و قال له:ما أراك إلا قد صبأت (أسلمت) و تركت دينك الذى كُنت عليه.و سارع الصحابى الذكى إلى توجيه عمر وجهة أخرى لعله يهتدى،أو يكفّ عن الشرّ،و هتف به:ألا أدلّك على العجب يا عمر؟! فإن أختك و زوجها (ابن عمه) تركا دينك و اتّبعا محمدًا..ثارت ثائرة عمر عندما سمع بإسلام أخته و زوجها فانطلق إلى بيتها..و كان عندهما الصحابى الجليل خبّاب بن الأرت،يتلو عليهما القرآن،فسارع إلى الاختباء عندما سمع صوت عمر،و هو يطرق الباب.سأل عمر أُخته و زوجها عن هذا الصوت الذى سمعه عندهما قبل دخوله، فأنكرا،فصاح بهما :لعلكما تابعتما محمدًا؟أجابه زوج أخته بثبات:أرأيت إن كان الحق فى غير دينك ؟ و كان هذا الجواب كافيًا للتأكّد من صدق ما أبلغه به الرجل،فانقض كالمجنون على زوج أُخته و طرحه أرضًا،و جلس على صدره.و جاءت أخته تحاول إنقاذ زوجها من بطشه،فلطمها عمر لطمة أسالت الدماء غزيرة من أنفها..صاحت باكية:نعم قد أسلمنا لله رب العالمين،فافعل ما بدا لك.و عندما رأى دماء و دموع أُخته ندم و ثاب إلى رشده،و ترك زوجها و قال

مُتلطّفًا:أعطونى هذا الكتاب الذى سمعتكم تقرأون،فأجابته:إنّك مُشرك نجس،و هذا القرآن (لا يمسّه الا المُطهّرون) فاغتسل عمر،و جاء ليقرأ فى الصحيفة التى عندهما: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) سورة طه.

انشرح صدر عمر رضى الله عنه،و هتف بانبهار:ما أحسن هذا الكلام و ما أكرمه.دلّونى على محمد.و هنا خرج خَبّاب بن الأرت من المخبأ،و صاح به:ابشر يا عمر،فو الله إنى لأرجو أن يكون الله قد خَصّك بدعوة نبيه بالأمس .

فقد دعا صلى الله عليه و سلم ربه قائلًا:

((اللهم أعزّ الاسلام بأحب الرجلين إليك،عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام "أبو جهل")).و ذهب عمر إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم،حيث نطق بالشهادتين بحضرة الرسول صلى الله عليه و سلم،فكبّر المسلمون تكبيرات سمعها كل سكان المنطقة.و يُروى أنه أصرّ رضى الله عنه على أن يخرج المسلمون (لأول مرّة) جهارًا نهارًا إلى الكعبة،ليطوفوا بها،و ليُصَلّوا علانية حولها.وأكلت الحسرة والرُعب قلوب المشركين،عندما رأوا النبى والمسلمين فى صفّين،فى مقدمة أحدهما حمزة و فى الآخر عمر بن الخطاب،رضى الله عنهم و رضوا عنه.و صدق الصحابى الجليل القائل:

(ما زلنا أَعِزّة منذ أسلم عمر)..رضى الله عن الجميع.

٢١- معجزة انشقاق القمر

من القضايا التى ثار بشأنها جدل واسع النطاق معجزة انشقاق القمر للنبى صلى الله عليه و سلم.فقد طلب منه المشركون دليلًا على نبوته،فشق الله تعالى القمر بقدرته،و عاين كل المشركين هذا بأنفسهم.و صاحوا:لقد سحر محمد أعيننا.لكن بعض عقلائهم قال: سنسأل القادمين من الرحلات خارج مكة وأهل البادية،لأنه لن يستطيع أن يسحر أعين كل الناس فى ذات الوقت.و بالفعل أخبرهم قادمون من مسافات بعيدة أنهم رأوا هذا الأمر المُذهل،و عاينوا انشقاق القمر إلى قطعتين منفصلتين تمامًا.و الحادث ثابت بنص القرآن الكريم فى الآية الأولى من سورة القمر (اقتربت الساعة و انشق القمر) كما نصت عليه أحاديث صحيحة،رواها الشيخان البخارى و مسلم و غيرهما.و شاء الله تعالى أن يُثبت العلم الحديث بعد ١٤ قرنًا من الزمان هذه المعجزة،على أيدى رواد فضاء من غير المسلمين ،و صور التقطتها سفن الفضاء الأمريكية التى هبطت على سطح القمر،و هى موجودة على الشبكة العنكبوتية لمن يرغب فى الإطلاع عليها.بل كان هذا سببًا فى إسلام رجل بريطانى تَشَكّك فى القرآن أولًا بسبب هذه الآية..يقول العالم الجليل الدكتور زغلول النجار:"في محاضرة بكلية الطب بجامعة كارديف،غربي بريطانيا،وجّه إليّ أحد الحضور سؤالًا عن مطلع سورة القمر: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) و هل تمثل هذه الآية ومضة من ومضات الإعجاز العلمي في كتاب الله؟ فأجبتُ:هذه الواقعة تمثل إحدى المعجزات الحسّية التي وقعت تأييدًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مواجهة مشركي قريش وإنكارهم لنبوته،عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم،وأن المعجزات خوارق للسُنَن، و السُنن الدنيوية لا يمكنها أن تفسر المعجزات الحسية التي جاء بها الأنبياء،و لولا ورودها في كتاب الله،و في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ما كان علينا أن نؤمن بها.و نص الآيات:

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آَيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) سورة القمر:١-٤

وبعد إنتهاء حديثي وقف رجل بريطاني من الحضور واستأذن أن يضيف شيئًا،فأذنت له،و بدأ بتعريف نفسه..و اسمه داوود موسى بدكوك، و هو مسلم،و يرأس الحزب الإسلامي البريطاني،و قال:إن هذه الآيات في مطلع سورة القمر كانت هي السبب في إسلامه،في أواخر السبعينات من القرن العشرين،لأنه كان يبحث بحثًا مستفيضًا عميقًا في الأديان،وأهداه أحد المسلمين ترجمة لمعاني القرآن الكريم،و فتح هذه الترجمة بدون تحديد لسورة مُعيّنة،فإذا بعينه تقع على تفسير قوله تعالى:

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آَيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)

و وقتها اعتبر الرجل غير المسلم أنها خرافة، وأغلق التفسير المترجم باللغة الإنجليزية،ووضعه في مكان قصي،وانتهى الأمر..ثم شاء الله تعالى أن يشاهد هذا الرجل على شاشة التلفاز البريطاني (بي بي سي) برنامجًا عن رحلات الفضاء، استضاف فيه المذيع البريطاني المعرف جيمس بلاك ثلاثة من علماء الفضاء،سنة ١٩٧٨.و أثناء الحوار كان المذيع ينتقد الإسراف على رحلات الفضاء وانفاق مليارات الدولارات-تكلّفت رحلة "أبولو"وحدها ٢٥ مليارًا- وأهل الأرض يتضوّرون جوعًا، و ملايين البشر في أمس الحاجة إلى هذه الأموال الطائلة،لعلاج الأمراض والجهل والتخلّف.و كان جواب العلماء الذين يحاورهم هذا المذيع:إنه بفضل هذه الرحلات،تم تطوير عدد من التقنيات المهمة التي تُطبّق في مجالات التشخيص والعلاج الطبي والصناعة والزراعة وغيرها.

وأثناء الحوار جاء ذكر أول رحلة نزل فيها رجل على سطح القمر-تكلّفت عشرات المليارات-وواصل المذيع إنكار هذا الإسراف،فقال العلماء:إن هذه الرحلة قد أثبتت لنا حقيقة لو أنفقنا أضعاف هذا المبلغ،لإقناع الناس بها ما صدّقنا أحد،و هى أن هذا القمر قد سبق له أن (انشق) ثم التحم ! لاحظوا أن الموضوع ليس له علاقة إطلاقًا بالأديان،و لا بالإسلام،و لا بالقرآن.إنها ندوة لعلماء الفضاء الثلاثة و مذيع في إذاعة بريطانيا"بي بي سي"!وأكّدوا أن آثارًا محسوسة تُؤيّد هذا الحدث،قد وجدت على سطح القمر،و قد صُوّرت هذه الآثار وأُرسلت إلى الأرض،وعُرضت على علماء كبار ،و بدون استثناء أكدوا جميعاً أن القمر كان قد انشق ثم التحم !و أضاف السيد بلكوك -الإنجليزى الذى كان قد اعتبر الآية خرافة-:

حينما سمعت ذلك قفزت من الكرسي الذي كنت أجلس:عليه أمام التلفاز،وقلت: مُعجزة تحدث لمحمد قبل ١٤٠٠ سنة،و يرويها القرآن بهذا التفصيل العجيب،يُسخّر الله من يُثبتها للمسلمين في عصر العلوم والتقنية الذي نعيشه،ويُرصد هذا المبلغ الكبير بواسطة غير المسلمين لإثباتها ؟! لا بد أن يكون هذا الدين حقًا..وهكذا عاد الرجل إلى ترجمة معاني القرآن الكريم ليقرأها بشغف شديد،وكانت آيات افتتاح سورة القمر هي السبب المباشر فى قبوله للإسلام..و صدق الله العلىّ العظيم: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ..سورة فصلت الآية:٥٣

٢٢- الهجرة إلى الحبشة

كان لابد من التفكير فى حل جذرى لإنقاذ المسلمين المُستضعفين من بطش المشركين،فى وقت لم يأذن الله تعالى فيه بالقتال دفاعًا عن النفس بعد..و لو أنصف خصوم الإسلام،لرأوا الدليل القاطع على سماحته فى العهد المكى،الذى استمر فيه العذاب ١٣ سنة كاملة،لم يرفع خلالها مُسلم سيفه فى وجه كافر،رغم استشهاد سُميّة أُم عمّار،و التعذيب المُرَوّع للأرقّاء و الضعفاء.

و كان الحل الأمثل هو الهجرة إلى الحبشة،التى ذكر الرسول صلى الله عليه و سلم سبب اختيارها،و هو أن ملكًا عادلًا"النجاشى"كان يحكمها ،و لا يُظلم عنده أحد.و "النجاشى"لقب كانوا يطلقونه على مَنْ يتولى حكم الحبشة،مثل"كسرى"لقب ملوك الفرس، و لم يكن هذا "النجاشى"المُعاصر للهجرة،قد أسلم بعد -اسمه الشخصى أصحمة- و لكن عدالته و نُبل أخلاقه كانا كافيان ليقيم المُسلمون إلى جواره و ليتمتعوا بحمايته.و بالفعل هاجر فى المرّة الأولى ١٢ صحابيًا،معهم ٤ من زوجاتهم.و كان على رأسهم عثمان بن عفان و زوجته رقية بنت النبى صلى الله عليه و سلم.و هما أول بيت فى الإسلام،هاجر فى سبيل الله،على غرار أبينا إبراهيم و ابن أخيه لوط عليهما السلام.و قد عادوا إلى مكة إثر شائعة سرت أن أهلها أسلموا جميعًا،فلمّا كانوا على مقربة منها تبيّنوا كذب الشائعة،فعاد بعضهم إلى الحبشة،و دخل آخرون مكة فى حماية بعض أقاربهم من المُشركين.و اشتد الأذى على المسلمين بعد ذلك أكثر من ذى قبل،فخرج ٨٣ صحابيًا و معهم ١٩ من زوجاتهم،إلى الحبشة.و فشلت قريش فى ملاحقتهم قبل ركوبهم البحر،فأرسلت خلفهم اثنين من دهاتها إلى النجاشى،لإقناعه بتسليمهم الى الكافرين و كان الرجلان عمرو بن العاص،و معه عبد الله بن أبى ربيعة - أو عمارة بن الوليد فى رواية أخرى-قد حملا الهدايا النفيسة إلى النجاشى و حاشيته و قساوسته..و عرضا عليه الأمر..لكن"أصحمة" كان ملكًا عاقلًا عادلًا،فرفض الإستجابة إليهما قبل سماع وجهة نظر اللاجئين إلى بلاده.و جاء وفد المسلمين بقيادة جعفر بن أبى طالب،رضى الله عنه،إلى مجلس النجاشى، فسألهم عن هذا الدين الذى فارقوا بسببه قومهم،و لم يدخلوا أيضًا فى دينه (النصرانية) و لا أى دين آخر معروف فى ذلك الوقت.فأجابه جعفر رضى الله عنه:"أيها الملك:كُنّا قومًا أهل جاهلية،نعبد الأصنام،و نأكل الميتة،و نرتكب الفواحش،و نقطع الأرحام،و نُسىء الجوار،و يأكل القوى منا الضعيف.حتى بعث الله إلينا رسولًا منا،نعرف نَسَبَه و صدقه و أمانته و عفافه.فدعانا

إلى عبادة الله وحده،و خلع ما كنا نعبد نحن و آباؤنا من دونه من الحجارة و الأوثان.و أمرنا بصدق الحديث و أداء الأمانة و صلة الرحم و حسن الجوار و الكفّ عن المحارم و الامتناع عن سفك الدماء"..و راح جعفر –رضى الله عنه- يذكر للنجاشى كل أوامر و نواهى الإسلام و ما جاء به من مكارم الأخلاق..فلمّا فرغ سأله النجاشى:هل معك مما جاء به محمد عن الله من شىء؟ أجاب جعفر:نعم.و هنا يظهر توفيق الله لجعفر و فطنته،فقد اختار للنجاشى و قومه (و هم نصارى) سورة تمسّ أخص ما يؤمنون به،و فيها أجمل و أنزه و أعفّ سرد،فى كل الكُتُب السماوية،لقصة عيسى و أُمه مريم،و هى سورة"مريم"و ما كاد جعفر يمضى فى تلاوتها بصوته العذب الشجىّ،حتى انهمرت دموع النجاشى و القساوسة،تأثرًا بإعجاز و جمال القرآن الكريم و (مِمّا عرفوا من الحق) و هتف النجاشى باكيًا: إن هذا و الذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

و صاح فى مندوبى قريش:انطلقا فو الله لا أسلمهم إليكما ..لكن دهاء عمرو بن العاص جعله يحاول إثارة الملك ضد المسلمين،فجاء إليه فى اليوم التالى ليُوقع بينه و بينهم، قائلًا :إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولًا عظيمًا،لا يُرضى الملك..فاستدعى النجاشى جعفر و صحبه مرّة أخرى ..وهنا ضرب جعفر و من معه من الصحابة أروع الأمثال فى الثبات على الحق،مهما كانت العواقب.و قال رضى الله عنه:نقول فى عيسى ما جاء به نبينا صلى الله عليه و سلم: هو عبد الله و رسوله و كلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول..فتناول النجاشى عودًا صغيرًا من الأرض،و قال: و الله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود.فتناخر القساوسة مستنكرين،فأفحمهم النجاشى قائلًا: هذا هو الحق-و إن نخرتم-و الله.و هتف الملك بجعفر و أصحابه:اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى.من سَبّكم غَرِم (كَرّرها ثلاث مرات) و ما أُحب أن لى جبلًا من ذهب و أنّى آذيت رجلًا منكم.و أمر برد هدايا مشركى قريش إليهم،و قال: ما أخذ الله منى الرشوة حين ردّ علىّ مُلكى،فآخذ الرشوة فيه،و ما أطاع الناس فىّ فأُطيعهم فيه.و أقام المسلمون عنده سنوات فى خير دار مع خير جار.و قد أكرم الله"أصحمة"بالإسلام قبل موته.و جاء الوحى إلى الرسول صلى الله عليه و سلم بخبر وفاته، فصلى بأصحابه صلاة الغائب عليه ..رضى الله عنه و أرضاه.

٢٣- الحصار

إزاء انتشار الإسلام و عجز قريش عن السيطرة على الموقف،اجتمع زعماء المشركين،و قرّروا فرض مُقاطعة شاملة على بنى هاشم و بنى المطلب.فلا يبيعون لهم و لا يشترون منهم و لا يُصاهرونهم،إلى أن يُسلّموا النبى صلى الله عليه و سلم إليهم،ليقتلوه.و كتبوا بذلك صحيفة عَلّقوها فى داخل الكعبة.

و روى البخارى أن النبى صلى الله عليه و سلم قد دعا على كاتب الصحيفة فشُلّت يده..و تلك مُعجزة شهدها كل أهل مكة،لكن الله لم يأذن لقلوب الكافرين فى التأثر بها، فمضوا فى مقاطعتهم الظالمة الفاجرة.و رأى أبو طالب أن الحل الأمثل لحماية النبى من بطش المشركين هو أن يجمع بنى هاشم و إخوتهم بنى المُطّلب فى شعب أبى طالب (منطقة محصورة بين جبلين) مسلمهم و كافرهم، ليكونوا حول النبى صلى الله عليه و سلم،و ليقاتلوا دفاعًا عنه إذا اقتضى الأمر.و استجاب له الجميع،بإستثناء أخيه"أبى لهب"الذى أعماه الحقد المسعور عن واجبه فى الانضمام الى أهله و حماية ابن أخيه..و استمر الحصار الخانق ثلاث سنوات عجاف،اضطروا خلالها الى أكل الجلود و أوراق الشجر،و كانت أصوات بكاء أطفالهم و نسائهم الجياع تُسمع من وراء الشعب.و منع المجرمون الكافرون كُل التجّار القادمين إلى مكة من الوصول ببضائعهم الى المُحاصرين داخل شعب أبى طالب.و لكن سخّر الله لهم بحكمته و تدبيره و رحمته من أقاربهم و أصهارهم من كان يُساهم فى تخفيف آثار الحصار،بتهريب بعض الطعام و الشراب إليهم،سرًّا،فى غفلة من المشركين.و كان أبو طالب يحرص على حماية ابن أخيه بنفسه،فينام عليه السلام فى مكان سرّى،و يأمر أبو طالب أحد أبنائه أو أولاد عمه بالنوم فى فراش الرسول،للتمويه على الكافرين المُتربّصين به .

و أذن الله تعالى بالفَرَج بعد الشدّة،فغضب بعض المشركين المُنصفين الذين لم يوافقوا على المُقاطعة،و ما استشارهم أحد فى أمر الصحيفة،و ثاروا رفضًا لقطع الأرحام و تجويع الأطفال والنساء بغير حق.و يذكر التاريخ لهشام بن عمرو بن عامر بن لؤى أنّه أوّل من نال شرف السعى لنقض الصحيفة الظالمة.فقد ذهب الى زُهير بن أُميّة المخزومى -و هو ابن إحدى عمّات النبى- و قال له مُعاتبًا: أرضيت يا زُهير أن تأكل و تشرب و أخوالك حيث تعلم ؟! فأجاب زُهير: و ماذا أصنع و إنما أنا رجل واحد ؟! و الله لو كان معى رجل آخر لقُمْتُ فى نقض الصحيفة..فأخبره هشام بأنه سينضم إليه فى ذلك،فقال زُهير : ابغنا رجلًا ثالثًا.و ذهب هشام الى المُطعم بن عدى،و هو ابن عم الهاشميين و المُطّلبيين،فعاتبه بمثل ما عاتب به زُهيرًا،و أجاب المُطعم بمثل جواب زُهير،فطمأنه هشام إلى أنه و زُهير بن أُمية معه فى العمل على إنهاء المقاطعة.و طلب منه المُطعم البحث عن مُؤيّد رابع،و استطاع هشام اقناع "أبو البخترى بن

هشام"و"زمعة بن الأسود بن المُطّلب بن أسد".و اجتمع الستة سرًّا،و اتفقوا على السعى فى نقض الصحيفة و إنهاء المقاطعة فى الغد .

و فى صباح اليوم التالى طاف زُهير بن أبى أُميّة بالكعبة سبعة أشواط ،ثم أقبل على مجلس زعماء الكافرين قائلًا: يا أهل مكّة.أنأكل الطعام و نشرب الشراب،و بنو هاشم هلكى،لا يُباع و لا يُشترى منهم ؟! و الله لا أقعد حتى تُشق (تُمَزّق) هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.فصاح أبو جهل:كذبت.و الله لا تُشَق..فصاح زمعة بن الأسود بأبى جهل: أنت و الله أكذب.ما رضينا كتابتها حين كُتبت.و انضم أبو البخترى بن هشام إلى زمعة قائلًا: صدق زمعة.لا نرضى ما كُتب فيها و لا نُقرّه..و هتف المُطعم بن عدى: صدقتما و كذب من قال غير ذلك.نبرأ إلى الله من تلك الصحيفة و مما كُتب فيها.و قال هشام بن عمرو مثل قول أصحابه.فصرخ أبو جهل اللعين غاضبًا: هذا أمر قُضى بليل.تشاورتم فيه بغير هذا المكان.و جاء أبو طالب فحسم الموقف بعرض وافق عليه الجميع.إذ قال لهم إن ابن أخيه محمدًا أخبره بأن الله تعالى قد سلّط على صحيفة المُقاطعة حشرة (الأرضة) فأكلت كل ما فيها من ظلم و قطع للرحم،و تركت فقط جملة (بسمك اللهم).فليُخرجوا الصحيفة من جوف الكعبة،ليتأكّدوا من ذلك.فإن كان ما أخبره به محمد صحيحًا يتم نقض الصحيفة و إنهاء الحصار الظالم.وإن كانت الصحيفة سليمة لم تُمسّ يُسلّم إليهم ابن أخيه ليفعلوا به ما أرادوا..فقالوا جميعًا: قد أنصفت يا أبا طالب.و ما كادوا يُخرجون الصحيفة من قلب الكعبة حتى رأوا بأعينهم عجبًا.فقد التهمتها الأَرضَة بالفعل-كما أخبر الصادق الأمين-و لم يبق منها سوى عبارة:

((بسمك اللهم))! فانكسر المشركون و أعلنوا الإذعان للاتفاق مع أبى طالب و إنهاء المقاطعة.و كانت تلك نهاية الحصار الإجرامى ..و هى أيضاً مُعجزة ثابتة شهدها الجميع بأعينهم،و كانت كفيلة بإقناعهم أن محمدًا رسول الله حقًّا و صدقًا. لكنهم أبوا إلا استكبارًا و جحودًا و إنكارًا للحق،لتنفذ فيهم مشيئة الله تعالى.

٢٤- ثمرات رحلة الحبيب إلى الطائف

فوجئنا - منذ فترة- بأحد الذين يتحدثون على شاشات القنوات الفضائية يزعم أن رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف هي :"محاولة فشلت ضمن ٢٥ محاولة

أخرى فشلت كلها"!! اتهمت أذني و قلت لنفسي:لعلى لم أسمع جيدًا،أو لعل الرجل لا يقصد،فإذا به يعيد الكلام بكل جرأة،وكأنه يتحدث عن رحلة أو محاولة فاشلة لزعيم سياسي-أو شخصية معاصرة-لحشد أنصار أو الفوز بالحُكْم،أو تحقيق مكاسب دنيوية !!

ولمّا كانت هذه المسألة قد أثارت جدلًا واسع النطاق في كثير من المواقع على الإنترنت،فقد استعنت بالله تعالى على إيضاح بعض الأمور المتعلقة برحلة الطائف،وإلقاء الضوء على الدروس المستفادة،والثمرات المُستطابة التي يرزقها الله سبحانه وتعالى-بحوله وفضله وإحسانه-من يشاء من عباده الباحثين في بستان السيرة العطرة.

وقد وفّق الله عبدًا فقيرًا إلى عفوه وكرمه ورضوانه فاستخرج ١٦ درسًا وثمرةً من هذه الأطايب .ولعل آخرين من أهل العلم والفضل يهتدون إلى أكثر من ذلك بمشيئة الله.

وفيما يلي نعرض هذه الثمار والدروس والحكم البالغة..

في البداية لابد من الإشارة إلى خطورة الكلام بهذا الأسلوب الذي يتسم بسوء الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم.فالكلام عنه أو عن أحد من إخوته الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام أجمعين-ينبغي أن يكون بكل توقير و حرص وهيبة وحذر والتزام بما فرضه الله تعالى علينا من احترام مقام الأنبياء الرفيع،وفى إطار ما هو معلوم من الدين بالضرورة من أنهم ليسوا كغيرهم من البشر،فهم معصومون من كل ما يُشين،تُحيط بهم رعاية الله تعالى وتوفيقه في كل لحظة.و لا يجوز مُطلقًا الحكم على نتائج أعمالهم بمقاييس البشر التي تبقى أبدًا ساذجة سطحية قاصرة.

وأقل ما يمكن أن يقال عن وصف الرحلة المباركة بأنها:"محاولة فاشلة"إنه نتيجة حتمية لنقص نصيب القائل من العلم بالسيرة العطرة،فهو يهذى بما لا يدرى!!

ثم من أين جاء برقم ٢٥ هذا ؟! من أين أتى بهذا القول :" فشلت ٢٥ محاولة للرسول"؟!

هذا الهذيان لم أجد له أثرًا إطلاقًا في أي مرجع علمي محترم من المراجع الموثوق بها في السيرة العطرة!!

سبحانك.. هذا باطل نبرأ إليك منه،ومن عمل كل من ينشره،ومن قول كل من يُصرّ علي التمسك به.ولا يقولن أحد أن النصيحة هنا يجب أن تكون سرّية،فقد بُثّت تلك الأباطيل علانية،و تلّقاها ملايين المشاهدين عبر تلك القناة الفضائية،ثم عشرات المواقع على شبكة الإنترنت،فوجب تصحيح هذا علانية أيضًا،كيلا يُفتتن العوام بمثل هذه الجهالات الشنيعة. و لا حول و لا قوة إلا بالله العلىّ العظيم.

لقد كان من الممكن- جدلًا- أن نلتمس بعض العذر لهذا القائل لو أن أحدًا لم يؤمن بالرسالة طوال الفترة التي زعم أنها شهدت ٢٥ محاولة فاشلة،لكن الواقع والتاريخ يثبتان أن عددًا كبيرًا من خيار الناس كانوا قد أسلموا خلال تلك المرحلة من عمر الدعو.. أين الفشل إذا كان قد دخل في الإسلام-في تلك الفترة- أبو بكر و حمزة بن عبد المطلب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وبلال بن رباح وعمار بن ياسر وصهيب الرومي وخباب بن الأرت ومئات آخرون رضي الله عنهم،ثم عمر بن الخطاب بعدهم،و منهم من كان يجهر باعتناق الحق،ومنهم من كان يخفى إسلامه تجنبا لبطش المشركين ؟! والله إن كل واحد من هذه النجوم الساطعة في سماء البشرية لترجح كفته بملايين من غيرهم..كل واحد منهم هو"أُمّة"كاملة و لو كان وحده.و حاشا لله أن تكون قد"فشلت محاولات"من هداهم الله به إلى الحق والفلاح.

ومن يقرأ و يتأمل-بهدوء وتعقّل وبصيرة -تفاصيل رحلته عليه الصلاة و السلام إلى الطائف سوف يجد أنها أثمرت الكثير من الإنجازات والدروس والعبر العظيمة التي لم تكن لتتحقق بدونها،وبالتالي فقد نجحت نجاحًا تامًا بكل المقاييس..

ولأن رسالة الإسلام عامة لكل الخلق ،فمن البديهي ألا يقتصر الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوة قريش فقط .ولهذا بدأ عليه الصلاة والسلام في التحرك لدعوة المُقيمين بمناطق أخرى خارج مكة المكرّمة. ففي شوال من السنة العاشرة بعد بدء نزول الوحي،خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف،وهي تبعد عن مكة حوالي ٦٠ ميلًا،مشاها على قدميه الشريفتين ذهابًا و إيابًا.

و من المعلوم بالضرورة كذلك أنه قد اتجه إلى الطائف بأمر من الله تعالى،فهو عليه السلام لا يفعل هذا من تلقاء نفسه.والله سبحانه لا يأمر بشيء إلا لعلمه الأزلي بما فيه من حكم بالغة،سواء علمها الخلق أم جهلوها.

لم يكن معه إلا الله تعالى ثم مولاه زيد بن حارثة.وروى ابن إسحاق أنه بعد وصول النبي عليه الصلاة والسلام إلى الطائف اجتمع بثلاثة من رؤساء ثقيف، هم الإخوة عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي،و دعاهم إلى الله وإلى نصرة

الإسلام، فقال أحدهم: هو يَمْرُط ثياب الكعبة [أي يمزقها] إن كان الله أرسلك.و قال الآخر:أما وَجَدَ الله أحدًا غيرك؟وقال الثالث:والله لا أكلمك أبدًا،إن كنت رسولًا لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام،و لئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك. فقام عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم،قائلًا لهم: [إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني].طلب منهم ذلك حتى لا تشمت به قريش، وتزداد إجرامًا و بطشًا بأصحابه.

وأقام الرسول صلى الله عليه وسلم في الطائف فترة،لم يترك خلالها أحدًا من أشرافهم إلا دعاه إلى الإسلام، فتطاولوا عليه و طردوه،ثم أغروا به سفهاءهم فلاحقوه،أثناء خروجه من الطائف،يسبّونه،و يرمونه بالحجارة،حتى جُرِحَت قدماه الشريفتان،و سالت على نعليه الدماء.حاول زيد بن حارثة أن يحمي رسوله و حبيبه و مولاه بنفسه،فأصابوه-رضي الله عنه-بارتجاج في المخ،لكثرة ما تلقّاه من ضربات.و لم يزل السفهاء يرمونهما بالأحجار،حتى لجأ الرسول وصاحبه إلى حائط –بستان-لعتبة و شيبة ابني ربيعة على مسافة ثلاثة أميال من الطائف،فرجعوا عنهما.

((هنا لقّننا الحبيب صلى الله عليه وسلم الدرس الخالد الأول،و هو الثبات على الحق و تحمل كل الأهوال والأذى والمشقات في سبيل الدعوة إلى الله)).

كما علّمنا زيد رضي الله عنه–بدوره -درسًا ثانيًا هو: ((أن ندافع عن الرسول والرسالة بالنفس والنفيس)) و لو لم يكن في الرحلة الخالدة من دروس وعبر إلا هذا لكفى.

جلس صلى الله عليه وسلم تحت شجرة عنب وراح يناجى ربه بدعائه الشجي المؤثر الذي تعلّمه منه ((درسًا ثالثًا)) كل مسلم يمرّ بشدّة أو بلاء أو محنة إلى قيام الساعة:

(اللهُمَّ إنِّي أشْكُو إلَيْكَ ضَعْفَ قَوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي وهَوَانِي عَلَى النَّاسِ.يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ،أنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ، وأنْتَ رَبِّي،إلى مَن تَكِلُني؟ إلَى بَعِيدٍ يُتَجَهَّمُنِي،أم إلى عَدُوَ مَلَّكْتَه أمْرِي.إن لمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلاَ أُبَالِي،ولكِن عَافِيَتَكَ هي أوْسَعُ لِي.أَعوُذُ بِنُورِ وجْهِكَ الذِي أشْرَقَتْ بِه الظُلُمَاتُ و صَلُحَ عَلَيهِ أمْرُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ،من أنْ تُنْزِلَ بي غَضَبَكَ،أو تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ،لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى،و لاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بِكَ)

فلما رآه ابنا ربيعة شعرا نحوه بالعطف –لأنهما من أقاربه- فأمرا غلامًا لهما نصرانيًا اسمه عَدَّاس بأن يعطى محمدًا قطفًا من العنب.وضع عدّاس العنب بين يدي الحبيب صلى الله عليه وسلم،فمد يده إليه قائلًا: (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم أكل.

((نلاحظ هنا درسًا رابعًا في جواز قبول هدية و ضيافة الكافر للمسلم عند الضرورة و جواز أكل طعامه))

سيطرت على عدّاس دهشة بالغة.لقد كان يعلم أن سكان مكة و ما حولها مشركون يعبدون الأصنام،فمن أين لمحمد هذا–ذكر اسم الله تعالى على الطعام -قال عدّاس للنبي متعجّبًا:إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.سأله صلى الله عليه وسلم : (من أي البلاد أنت؟ و ما دينك؟) قال عدّاس:أنا نصراني من أهل نِينَوَى.قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى).زادت دهشة وعجب عدّاس فسأل النبي:و ما يدريك ما يونس ابن متى؟ أجاب صلى الله عليه وسلم: (ذاك أخي،كان نبيًا وأنا نبي).فأكبّ الغلام على رأس الرسول صلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه يقبلها باكيًا.

((درس خامس للدُعاة:أنه صلى الله عليه وسلم استثمر حتى لحظات الاستراحة القصيرة،رغم الأوجاع والآلام والإصابات البالغة في جسده الشريف،في دعوة الغلام إلى الإسلام،كما نلاحظ))

قال ابن ربيعة لأخيه:أما غلامك فقد أفسده عليك.فلما جاء عدّاس صاحا به:ويحك ما هذا؟ أجاب:يا سيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل.لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي.قالا له بغيظ شديد:ويحك يا عدّاس،لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه..وهكذا أسلم عدّاس رضي الله عنه ((وتلك ثمرة سادسة من ثمرات الرحلة المباركة))

ونتعلّم من عدّاس بدوره درسًا بليغًا ((سابعًا)) هو أنه ينبغي قول الحق وإتباعه فورًا بلا اعتبار لرأى المجتمع أو حجم التضحيات أو المخاطر التي قد يتعرّض لها ، فانه لم يعبأ برأي سيده وأخيه واعتراضهما،و جهر بتأييد الحق والإيمان بالله و بالرسول،رغم ما قد يصيبه بسبب ذلك.

ولم يكن هو وحده الذي أسلم بسبب تلك الرحلة،فقد أسلم عدد من عبيد الطائف،و لكنهم ظلّوا يكتمون إيمانهم – في رأى كاتب هذه السطور-إلى أن تمكنوا من الفرار من بطش سادتهم،و لحقوا بالمسلمين بعد ذلك،فأعتقهم النبي صلى الله عليه وسلم..ولو لم يذهب الرسول في رحلته تلك إلى الطائف،فكيف كان هؤلاء سيجدون فرصة للعلم بالإسلام ثم الدخول فيه ؟! ((وهى الثمرة الثامنة))

وهذا هو الحال في كل الرسالات السماوية،إذ جرت سنّة الله تعالى على أن يكون أكثر من يتّبعون الحق هم الضعفاء والأرقاء،وأن يكون أعداء الرسل هم الطواغيت وزعماء القوم، الذين تُهدّد رسالة الإيمان والعدالة والمساواة مصالحهم وحياتهم المُترفة الناعمة،وامتيازاتهم الظالمة على حساب باقي البشر.

ثم إن واجب الرسول – كل رسول- هو الدعوة والبلاغ فحسب،وأما النتائج–الهداية- فهي بيد الله وحده لا شريك له.ولو كان نجاح الدعوة يقاس بعدد الأتباع فحسب،لظنّ بعض السطحيين والجهلة أن نبيّا عظيمًا مثل سيدنا نوح عليه السلام قد أخفق أيضا – حاشا لله-لأنه عاش يدعو قومه إلى التوحيد ٩٥٠ سنة،و لم يؤمن معه إلا عدد قليل من الناس حملتهم سفينة واحدة.

وهناك الحديث المتفق عليه الذي أخبر فيه الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم أنه سيأتي يوم القيامة أكثر الأنبياء أتباعًا،وأن من الأنبياء من سوف يأتي ومعه الرجل الواحد،ومنهم من سيأتي ومعه الرجلان،ومنهم من سيأتي وليس معه أحد (نص الحديث في الصحيحين)

و كذلك نورد بعض حديث رواه الإمام مسلم و هو قول النبي صلى الله عليه وسلم: (وإن من الأنبياء نبيًا ما يصدقه من أمته إلا رجلٌ واحد) فهل يعيب نبيًا عظيمًا أنه لم يؤمن به أحد من قومه ؟! بل ماذا يمكن أن يقال – لو قبلنا هذا المنطق الأحمق – عن أنبياء عظماء قتلهم أقوامهم، وخاصة من قتلهم اليهود لعنهم الله ؟!! أتقولون عن الشهداء الأبرار أنهم قد فشلوا أم أنهم فازوا فوزًا عظيمًا يغبطهم عليه كل من سواهم ؟!

إن الرسل عليهم السلام جميعا قد أدّوا الأمانة وبلّغوا الرسالة على أتم وأكمل وجه ، وليست الكثرة دليلًا على الحق أو النجاح،فالنبي هو الحقّ،و هو الأمّة ولو كان وحده، و لم و لن يدخل في الإسلام إلا من شاء الله.

ومن ينشط للدعوة ويؤدى واجبه في إبلاغ الرسالة،فقد نجح تمامًا بغض النظر عن النتائج. وهناك آيات كثيرات حاسمات،تنص صراحة على أنه ليس على الرسول إلا البلاغ-أي التبليغ- أو الإبلاغ والإرشاد والإيضاح فحسب ومنها:

١. وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ [سورة المائدة: ٩٢]
٢. وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ [سورة النحل: ٣٥].
٣. فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ [سورة النحل: ٨٢].
٤. قلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [سورة النور: ٥٤].
٥. وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [سورة العنكبوت: ١٨]

٦. و مَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ [سورة يس: ١٧].

والهداية بيد الله وحده لا شريك له :(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) سورة القصص الآية ٥٦ .وآية كريمة أخرى تقول صراحة :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) سورة البقرة الآية ٢٧٢.

*وعلى ضوء ما تقدّم نعلم يقينًا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أنجز المقصود الأعظم،وهو دعوة القوم إلى الله،و نجح كل النجاح في رحلته المباركة.

و في طريق العودة إلى مكة-بعد خروجه صلى الله عليه وسلم من البستان-بعث الله سيدنا جبريل،ومعه ملك الجبال إلي الرسول صلى الله عليه وسلم،يستأذنه في أن يُطبق الجبلين–يهدمهما-على رؤوس الكافرين،أي:أن يهلكهم جميعا.

روى البخاري عن عائشة زوج النبي- صلى الله عليه وسلم أنها قالت للنبي عليه السلام هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من أُحُد ؟ فقال "لقد لقيت من قومك،وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة،إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال،فلم يجبني إلى ما أردت،فانطلقت على وجهي،وأنا مهموم،فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب،فرفعت رأسي،فإذا أنا بسحابة قد أظلتني،فنظرت فإذا فيها جبريل،فناداني فقال:إن الله قد سمع قول قومك لك،وما رَدّوا عليك،وقد بعث إليك ملك الجبال،لتأمره بما شئت فيهم،فناداني ملك الجبال فسلم علي،فقال يا محمد ذلك لك،إن شئت أُطْبق عليهم الأخشبين..فأبى النبي صلى الله عليه وسلم قائلًا:بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا. "

وهكذا يطمئن الله تعالى نبيه،ويؤازره بجنود من الملائكة لا قبل للكافرين بهم،ولا طاقة لهم بحربهم.لكنه عليه الصلاة والسلام تأخذه الرحمة والشفقة بقومه،رغم كل ما فعلوه به وبأصحابه،ويأبى نزول العذاب بهم،ويؤثر أن يعطيهم الفرصة تلو الأخرى،لعلهم يهتدون أو يخرج من أولادهم وأحفادهم من يعبد الله.و لا عجب فهو الذي أرسله ربه: ((رحمة للعالمين)) الأنبياء الآية ١٠٧. صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا

((وهنا نتعلّم الدرس التاسع في: الصبر والتأني وعدم تعجيل العقاب للكفّار لعلّهم يهتدون أو تهتدي ذرياتهم)) ونجد هنا أيضا (أحد الأدلة على نبوته عليه السلام،فقد تحقّق بالفعل ما أخبر به من إسلام أبناء المشركين فيما بعد، وهى الثمرة العاشرة من ثمار الرحلة)

بلغ عليه الصلاة و السلام"وادي نخلة"وأقام فيه أيامًا.وهناك كان على موعد مع نصر عظيم أخر.فقد بعث الله تعالى إليه نفرًا من الجنّ أمنوا به،و ذكرهم الله سبحانه في

موضعين من القرآن: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ الله وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}..[سورة الأحقاف:٢٩-٣١].

وقال تعالى فى موضع أخر: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}..سورة الجن: الآيتان الأولى والثانية.

وهكذا أسلم الجنّ و نصروا دين الله في وقت كان أكثر البشر فيه ضالون لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون !! ((وهى الثمرة الحادية عشرة للرحلة))

فكأن الله تعالى يثبّت فؤاد الحبيب بهذا الفتح بعدما حدث له في الطائف،و لسان الحال يقول:لئن خذلك البشر،فإن ربهم و رب كل شيء معك،يؤيدك بمن و بما يشاء من خلقه ..((وما يعلم جنود ربك إلا هو)) سورة المدثر الآية رقم ٣١.

وما حيلة البشر الضعفاء-من المشركين-في مواجهة قوى الملائكة و الجِنّ الجبّارة ؟!

وأي إنجاز أو نجاح أعظم من إسلام الجن و تأييد الملائكة ؟! هل هذا قليل ؟!

ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث تحمل بشارات انتشار الدعوة المباركة،و تؤكد أن أية قوة في الكون لن تستطيع أن تحول بينها وبين الانتصار و لو بعد حين : {وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ الله ِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الأحقاف:٣٢]، {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ الله فِي الْأَرْضِ وَ لَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا} [الجن:١٢].

وكل عمل عظيم يحتاج إلى وقت ليُؤتى ثماره،والناس يختلفون في العقول و الطباع والمشاعر والمصالح والأهداف،فلن يجتمعوا كلهم على عقائد أو أفكار واحدة،و لن يدخلوا كلهم في الإسلام بلمسة عصا سحرية في وقت واحد.

و كثيرون ممن هداهم الله إلى الإسلام على مرّ الزمان استغرقوا سنين عددًا في البحث والدراسة،حتى اقتنعوا بالحق وآمنوا به.والزارع الذي يضع البذور في التربة،بعد إصلاحها ثم يرويها،يكون قد أدى واجبه،ولا يقال عنه أنه قد"فشل"أما الإنبات ثم النمو ثم نضج الثمار فهو بيد الخالق وحده لا شريك له .

ونأتي الآن إلى عودته عليه السلام إلى مكة.فقد سأله زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟! يعنى قريشًا، فقال صلى الله عليه وسلم بكل يقين : (يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا و مخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه).

((وهذا هو الدرس الثاني عشر:لابد من اليقين المطلق والثقة التامة بموعود الله))ومهما طال الليل فلابد من طلوع الفجر وسطوع الشمس..وهنا أيضا تأكيد آخر و دليل من دلائل نبوته عليه السلام،حيث أخبر زيدًا بما جرى بعد ذلك بسنوات من الفتح و دخول الناس في دين الله أفواجًا،و ما جاء من الانتصار بعد الحصار((الثمرة رقم ١٣)).

وسار الرسول صلى الله عليه وسلم حتى إذا دنا من مكة مكث بِحِرَاء،وبعث رجلًا من خزاعة إلى الأخنس بن شَرِيق ليجيره، فقال:أنا حليف،والحليف لا يجير.فأرسل إلى سهيل بن عمرو،فقال سهيل:إن بني عامر لا تجير على بني كعب.فبعث إلى المطعم بن عدى،فقال المطعم:نعم ،ثم تسلّح و دعا بنيه وقومه،وأمرهم بحمل السلاح و مشاركته في حماية النبي، لأنه قد أجاره.ثم أرسل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم:أن ادخل،فأقبل صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة،حتى انتهي إلى المسجد الحرام،فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى:يا معشر قريش،إني قد أجرت محمدًا فلا يتعرّض له أحد منكم.وانتهي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه،وطاف بالبيت،وصلى ركعتين،وانصرف،والمطعم بن عدى وولده حوله يحمونه حتى دخل بيته.وقيل إن أبا جهل سأل مطعمًا: أمجير أنت أم متابع ـ مسلم-؟ قال:بل مجير.فقال الطاغية:قد أجرنا من أجرت.وقد حفظ الرسول صلى الله عليه وسلم للمطعم هذا الصنيع،فقال في أسري بدر: (لو كان المطعم بن عدى حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)".انتهى. و هكذا يعطينا الرسول عليه الصلاة والسلام الدرس الرابع عشر و هو: ((جواز طلب الاستعانة بغير المسلم في حالات الضرورة))

ثم الدرس الخامس عشر وهو: ((وجوب رد الجميل و مكافأة من يُسدى إلينا معروفًا ولو كان كافرًا)).و شاء الله تعالى أن تأتي رحلة أخرى عظيمة- بعد رحلة الطائف- تكريمًا للحبيب وتشريفًا له،وتطييبًا لقلبه الشريف ، وتثبيتًا له وللمؤمنين معه،وهى رحلة الإسراء والمعراج التي رفع الله فيها الرسول صلى الله عليه وسلم أعلى السماوات السبع،وأوحى إليه خلالها ما أوحى،وأراه من آيات ربه الكبرى.و هكذا تأتى "المنحة" بعد" المحنة".. و يأتي العطاء بعد الابتلاء .و هى الثمرة السادسة عشرة للرحلة الخالدة إلى الطائف .

٢٥ - الإسراء و المعراج

جاءت رحلة الإسراء بالحبيب المصطفى ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،ثُمّ المعراج،فى توقيت بالغ الأهمية،لتثبيت فؤاده صلى الله عليه و سلم،و لتأكيد منزلته العليا،و مكانته بين الأنبياء-صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين-و للإعلام بعموم الرسالة،وإظهار أهمية الصلاة،و غير ذلك من مقاصد و غايات لا يعلمها إلا الله. والصحيح أن الإسراء و المعراج إلى أعلى السماء السابعة قد تم بالروح والجسد معًا-يقظة لا منامًا-فهذا وحده ما يجعلها معجزة،و هو أيضًا ما يتناسب مع سياق الأحداث.و لو كان الأمر مُجَرّد رؤيا ما استنكرها المُشركون،فإن البشر جميعًا يرون فى منامهم ما قد يستحيل تحقّقه فى اليقظة.والنصوص ظاهرة الوضوح فى أن الإسراء كان بالروح والجسد مَعًا،كقوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} [الإسراء:١] والشاهد هنا التعبير (بعبده) فالعبد روح و جسد معًا.كما أخبر النبى صلى الله عليه و سلم المُشركين بقافلتين لهم،رآهما فى الطريق،ضَلّ من إحداهما بعير،و شرب ماءً كان فى إناء للقافلة الأخرى،و أكّد أصحاب القافلتين صدق ما قال،بعد العودة إلى مكة.و شرب الماء لا يكون إلّا فى اليقظة و ليس أثناء النوم..و خُلاصة ما جرى أن جبريل عليه السلام،جاء إلى النبى صلى الله عليه و سلّم،فأركبه"البُرَاقْ"و هو دابة متوسطة الحجم،تضع حافرها عند منتهى بَصَرِهَا-بإذن رَبّهَا-و وصل به إلى المسجد الأقصى المُبارك،حيث صلى فيه إمامًا بجميع الأنبياء والرُسُلْ،إيذانًا بأن رسالته هى الخاتمة،وأن الإسلام العظيم هو دين الجميع،و فى هذا حُجّة على أتباعهم المُكَابِرين الضالّين،الذين يجحدون نبوة الأمين،عليه الصلاة و التسليم.ثم عَرَج صلى الله عليه و سلم،بصحبة الأمين جبريل إلى السماوات،و مَرّ بإخوته الأنبياء-كُلّ منهم فى سماء،حسبما شاء ربه-إلى أن وَصَلْ إلى سِدْرَة المُنْتَهَى.و هناك توقّفَ أمين السماء،و تَقَدّم أمين الأرض،حيث رأى النور الأعظم،و ناجاه رَبّ العِزّة بما شاء،و فَرَضَ عليه و على أُمّتِه الصلاة من فوق سبع سماوات،تأكيدًا لمنزلتها بين الشرائع،و لا عَجَب،فهى (الصِلَة بين الرَبّ و العبد)

و هل هناك ما هو أهم فى حياة الإنسان من علاقته بخالقه جَلّ فى عُلاه ؟!

و قد ثبت بالحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال: (رأيت نُورًا)و فى حديث آخر رَدّ صلى الله عليه وسلم على سؤال عن رؤية رَبّه بقوله:"نُور أنّى أراه"رواه الإمام مسلم.و رُوى أيضًا عن ابن عباس رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه و سلم رأى رَبّهُ بفؤاده،أى (بقلبه).و الله تعالى أعلى و أعلم.

و لا سبيل أمامنا إلى إدراك تفاصيل ما جرى للحبيب فى الحضرة الإلهية،فهذا أمر تعجز عن بلوغه الأفهام،و تغرق في بحاره الأعلام،و تُقْصَف دون بيانه الأقلام.

و لا نملك هنا سوى التزام الأدب مع الله،والتَوَقّفْ،والإكتفاء بما حَكَاه القرآن الكريم:

((ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)) سورة النجم.

٢٦- الصِدّيق يُواجِه المشركين

فرح المشركون بواقعة الإسراء و المعراج،لأنها كانت -فى نظرهم-فرصة للطعن و التشكيك فى صدق النبى صلى الله عليه وسلم.و راحوا يتصايحون:انظروا إلى محمد،يزعم أنه أتى بيت المقدس و عاد فى ليلة واحدة،و نحن نضرب إليه أكباد الإبل شهراً ذهابًا و مثله إيابًا ! و بالفعل ارتدّ بعض ضعاف الإيمان عن الإسلام.و ثَبَت الراسخون أمثال الصِدّيق "أبو بكر"رضى الله عنه.فعندما جاءوا إليه و أخبروه بالأمر،صفعهم- رضى الله عنه-قائلًا:إن كان قالها فقد صَدَق.إنى لأُصَدّقُهُ فى الوحى يأتيه من السماء فى ساعة من ليل أو نهار،فهذا أبعد مما تعجبون منه.و مضى-رضى الله عنه-إلى النبى صلى الله عليه و سلم،فسمع منه،ثم سأله أن يصفه له.فرَفَعَ الله المسجد الأقصى إليه،فوَصَفَه له،شبرًا شبرًا بكل دِقّة.و كان أبو بكر قد زاره من قَبْلْ،فهتف قائلًا :صدقت.أشهد أنك رسول الله.فقال له النبى صلى الله عليه و سلم:و أنت الصِدّيقْ يا أبا بكر.فكانت أول تسميته "بالصِدّيق"فى ذلك اليوم.و عندما أبلغ أبو بكر الكُفّار بوصف النبى للمسجد اعترفوا قائلين:أَمّا الوصف فقد أصابه (يعنون أنه وَصَفَهُ بدقّة و لم يُخْطِىء فى شىء منه).ثم جاءهم صلى الله عليه و سلم بدليل آخر قاطع-كما أشرنا-هو مروره على قافلة لقريش كانت عائدة من الشام،و شرب عليه السلام من إناء لهم،فوجدوه فارغًا فى الصباح،و ضَلّ بعير لقافلة أخرى ،فأرشدهم إلى مكانه،فوجدوه بالموضع الذى أخبرهم به،و حَدّد عليه السلام لأهل مكة مكان القافلتين بالضبط و موعد عودتهما إلى مكة،فجاءتا فى اليوم المُحَدّد،و أخبر من فيهما المشركين بأمر الإناء الفارغ،و البعير الضَالّ الذى أرشدهم النبى صلى الله عليه و سلم إلى مكانه.و رغم هذه الأدلة و البراهين أبى الظالمون إلا الكُفْر والإنكار والجحود!!

٢٧- شمس الإسلام تُشْرِقْ على يَثْرِبْ

لم يأت الإسلام لقريش وحدها،بل بُعِثَ صلى الله عليه و سلّم للناس كافّة.و لهذا كان صلى الله عليه و سلّم يدعو حُجّاج بيت الله الحرام إلى الإسلام.و خشي المشركون من انتشار الدين الجديد بين العرب،فكانوا يُحَذّرُون الحجيج من النبى صلى الله عليه و سلّم،و يتّهِمُونه بالسحر و الجنون والكُفْرْ بالأصنام.و كان أقبحهم و أشدّهُم فى هذا"أبو لهب"عم النبى،الذى كان يسير خلفه فى مِنَىَ و عُكَاظْ و غيرها،لتسفيه رأيه و تشويه دعوته،و تنفير الحجيج منه و شاء الله تعالى ألا يستجيب أحد من قبائل العرب للدعوة الغَرّاء-فى البداية-لأنه سبحانه قد اختص أهل"يثرب"بشرف احتضان الرسول والرسالة،فتأخر إسلام باقى القبائل،حتى استمع ستة من رجال المدينة إلى النبى فى أحد مواسم الحج وآمنوا به.وانطلق هؤلاء إلى بلدهم فأقنعوا آخرين من قومهم بالإسلام .و فى العام التالى جاء ١٢ رجلًا من سادات الأوس والخزرج،فبايعوه صلى الله عليه و سلم على التوحيد و مكارم الأخلاق و تَجَنّبْ رذائل الجاهلية،وغيرها من الأوامر والنواهى.و تلك هى"بيعة العقبة الأولى"و على إثرها بعث النبى،صلى الله عليه و سلم، معهم مصعب بن عُمِير،رضى الله عنه،أول سفراء الإسلام،ليُعَلّمَهُم القرآن الكريم،و يُصلّى بهم،و يُفَقّهَهُم فى دينهم.و خلال شهور قلائل،لم يبق من دور الأنصار بيت واحد لم تشرق عليه شمس الإسلام..و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٢٨- بيعة العقبة الثانية

قبيل الهجرة الشريفة بأسابيع تمت بيعة العقبة الكُبرى.و قد شارك فيها ٧٠من سادات يثرب و امرأتان.وكانت خُطْوَة ضَرورية و تمهيدًا لابد منه قبل الهجرة.جاءوا فى موسم الحَجّ،و تواعدوا مع النبى صلى الله عليه و سلم على اللقاء ليلًا عند العَقَبَة بعد نَفْرَة الحَجِيجْ من عرفات.و لَمْ يحضر اللقاء مع النبى صلى الله عليه و سلم،سوى عَمّه العباس بن عبد المطلب،الذى لم يكن قد أعلن دخوله فى الإسلام (إلى ما قبل فتح مكة)و كان يُريد الإطمئنان على مصير ابن أخيه،وأخذ المواثيق على أهل يثرب بضمان سلامته و حمايته.و بدأ العباس الكلام بتنبيه الأنصار إلى ما هم مُقْبِلُون عليه من معاداة قريش و العرب،وأن ابن أخيه فى مَنَعَة من قومه فى بلده،يحميه مؤمنهم و كافرهم،فإن كانت لهم قدرة على حماية النبى فلا بأس،و إلا فليتركوه آمنًا فى رعاية أهله وعشيرته.ثم تَكَلّم الرسول صلى الله عليه و سلم فدعا إلى الله،و تلا القرآن الكريم،و طلب من أهل يثرب حمايته حتى يُبْلّغَ رسالة ربه،و لهم على ذلك الجَنّة و رضوان الله.و رَدّ الأنصار بتأكيد أنهم أهل الحرب ورثوها كابرًا عن كابر،و تَعَهّدوا بحماية الرسول كما يحمون أولادهم و زوجاتهم و أمهاتهم..وأجاب النبى على كافة تساؤلاتهم،و وَعَدَهم بوحدة المصير،فى جميع الأحوال-و حتى بعد أن ينصره الله-و عدم العودة إلى مكة،بل البقاء معهم إلى الممات.و هَبّ القوم يتسابقون إلى بيعته،مصافحة و صَفْقًا بالأيدى على عادة العرب.و طلب صلى الله عليه و سلم منهم اختيار ١٢ نقيبًا،ليضمنوا تنفيذ قبائلهم لإلتزامات البيعة ففعلوا.و هذه هى أول عملية (انتخاب حُرّ مُباشر) فى تاريخ العرب.و يرى الإمام السُهيلى (فى كتابه الروض الأُنُف) أن اختيار النُقَباء جاء إقتداءً بما فَعَلُه قوم موسى بأمره،إذ اختاروا أيضًا ١٢ نقيبًا منهم.و قد دفع الحماس أحد الأنصار إلى اقتراح أن يشنّوا هجومًا على الكُفّار بمنطقة"منى"و لكن الرسول صلى الله عليه و سلّم رفض تمامًا،و أخبر الجميع أن الله تعالى لم يأذن له بالقتال بعد.و هذه حكمة إلهية كُبرى،لأن هذه كانت مرحلة الدعوة إلى الحَق،و يُناسبها هنا البيان والنُصح بكُل رفق و لين و تسامح،مع الصبر و احتمال الأذى.ثم يأتى بعد ذلك الإذن بالقتال،دفاعًا عن النفس والدين والعرض والمال،بعد استنفاد كافة السُبُل السلمية.و بانعقاد البيعة الكُبرى،صار للإسلام حصن منيع-بحول الله وقوته-يعبد الناس فيه رَبّهُم،و يأمنون فيه على أرواحهم وأهلهم وأموالهم.و هى سُنَّة الله فى كُلّ أنبيائه و رُسُلِه،إذ لم يأت أحد منهم قومه برسالة التوحيد،إلا أخرجوه واضطهدوه وأتباعه،كما أنّها كرامة الله و نعمته على المدينة وأهلها فى ذات الوقت.و منذ تلك الليلة المَشْهُودة اشتهر الأوس والخزرج بلقب"الأنصار" فهم أنصار الله وأنصار رسوله و دينه.

رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

٢٩- المؤامرة الكُبرى

سمعت قريش بنبأ البيعة،فَجُنّ جنونها،و ازداد بطش طُغاتها بالمُسْتَضْعَفِين من المسلمين.و أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بالهجرة إلى"يثرب"حيث صار لهم هناك إخوة فى العقيدة،سيجدون عندهم الدعم والمأوى والنُصْرَة.فهاجر سادات السابقين،أبو سلمة بن عبد الأسد،وعبد الرحمن بن عوف و عامر بن ربيعة،ثم الفاروق عمر بن الخطاب وآخرون،و نزلوا على كرام العرب،الأوس والخزرج"الأنصار"الذين واسوهم بالأنفس و الأموال،بنُبْلٍ و سخاء الأبرار الأخيار.و أدرك المشركون خطورة السكوت على تأسيس مجتمع إسلامى قوى فى المدينة،فعقدوا إجتماعًا طارئًا فى دار الندوة.وانتهت المداولات بصدور قرار عاجل بتكليف ٤٠ رجلًا من جميع القبائل بقتل النبى صلى الله عليه و سلم،ليعجز بنو هاشم عن قتال هؤلاء جميعًا،فيستسلمون للأمر الواقع،و يقبلون الديَة.و ظنّوا أنهم باغتيال الرسول سيتخلّصون من الدعوة الخالدة،ولَمْ يُدْرِكُوا أنه-لو قُدّر ذلك-ستشتعل جذوتها أكثر،وتنتشر بمُعَدّلات أسرع مما جرى فى حياته.و جاء الأمين جبريل عليه السلام،فأخبر الرسول صلى الله عليه و سلم بالمؤامرة،و أمره رَبُّه بعدم المبيت فى منزله،فكَلّف عليه الصلاة و السلام ابن عمّه عليًا بالمبيت فى فراشه و غَطّاه برداء له،و دعا له،فحفظه الله من شرور الكافرين.و كذلك بقى الفتى الهاشمى الشجاع بمكة،بعد الحبيب،ليؤدى-بدلًا منه-الأمانات التى كانت قريش تضعها عند الصادق الأمين إلى أهلها.و ما عرف التاريخ قبل اليوم-أو بعده-قومًا يكرهون رجلًا منهم،و يسعون إلى سفك دمه،لكنهم لا يأمنون سواه على أغلى ما يملكون،و رغم تآمرهم على قتله،يحرص أشد الحرص،على رَدّ أموالهم إليهم،كاملة غير منقوصة..والعجب هنا سيزول عند المُؤمن وحده،لعلمه بمكارم أخلاق سيد البشر،الذى بَعَثَهُ رّبُهُ لإتمامها،و لن تجد أحدًا يَتَحَلَّى بمثلها، سوى محمد وإخوته الأنبياء،صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين إلى يوم يُبْعَثُون.

٣٠ - (إِذْ هُمَا فِي الْغَار)

حاصر المشركون دار النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة.و يروى ابن إسحاق وغيره،أنه عليه الصلاة والسلام خرج عليهم،و تناول حفنة من التراب فرماهم بها،قائلًا:شاهت الوجوه،فما بقى رجل منهم إلا أُصِيبَ وجهه و رأسه..و تلا صلى الله عليه و سلم: (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) سورة يس:٩.. فلم يره أحد منهم قط،وانصرف بسلام.و هناك من يزعمون أن هذه الرواية ضعيفة.و الذين لا يُقِرّون بهذه المعجزة سيجدون أنفسهم فى مأزق،إذ سيكون لزامًا عليهم أن يجيبوا عن السؤال البديهى الذى يطرح ذاته هنا: كيف خرج صلى الله

عليه و سلم من بينهم،و كيف اخترق حصارهم بدون أن يراه أحد منهم ؟

ووصل عليه الصلاة و السلام إلى دار أبى بكر،الذى بكى فرحًا عندما أخبره الحبيب

بالإذن لهما بالهجرة إلى يثرب،و كان قد أعَدّ راحلتين لهذا الغرض منذ فترة.و تم تجهيز كافة لوازم الرحلة المُرْتَقَبَة.و أصَرّ النبى صلى الله عليه و سلم على دفع ثمن الراحلة التى سيركبها فى الرحلة إلى يثرب،رغم إلحاح الصِدّيق..و أحسب أن الحبيب يُعَلّمناالتَعَفّف-بهذا التصرّف- و عدم استغلال كرم و شهامة الآخرين،إلّا فى حالة الضرورة القصوى-أى ضيق ذات اليد-ثم إن ثواب الهجرة إلى الله عظيم،و قد أراد عليه السلام أن ينال حَظّه منه كاملًا،بأن تكون تضحيته،بدوره،بالنفس والمال معًا.

و دخلت أسماء بنت أبى بكر التاريخ،حين قطعت نطاقها،و ربطت بجزء منه فم الإناء الذى فيه الطعام،فَسُمّيت "ذات النطاقين" لهذا السبب.

و استأجر النبى صلى الله عليه و سلم دليلًا خبيرًا بدروب الصحراء،هو عبد الله بن أريقط،رغم أنه كان مُشْرِكًا.و هذا يفيد جواز الإستعانة بغير المسلم،إذا كان ماهرًا أمينًا،لا يُفْشِى أسرار المسلمين.و دخل النبى صلى الله عليه و سلم غار"ثور"مع أبى بكر،للإختباء فيه بضعة أيام،إلى أن يهدأ الطلب،و تتوقّف قريش عن مطاردتهما.وهنا أيضًا لا يُرِيد البعض التسليم بالرواية التى صَحّحَها الإمام ابن كثير،وأوردها الإمام أحمد بن حنبل،عن العنكبوت التى نسجت خيوطها على باب الغار،و عندما رآها فرسان قريش المُطَارِدِين تراجعوا ،لأنه لو كان محمد و صاحبه قد دخلا الغار لتمزّقَت خيوط العنكبوت،و قال أحدهم:والله إن هذا العنكبوت لأقدم من ميلاد محمد.

و ينفون أيضًا رواية أخرى ذكرت أن حمامتين نسجتا عُشّا على باب الغار،و باضتا فيه..و أحسب أن على هؤلاء جميعًا أن يجيبوا عن السؤال: كيف و لماذا تراجع المشركون-فجأة- من أمام باب الغار،رغم شدّة حرصهم على اعتقال الرسول و صاحبه

؟! و أكثر من هذا: ألا يرون أن صَرْفَ الكُفّار هكذا عن الغار،بدون سبب ظاهر،هو معجزة أقوى من مُعجزة صَرْفِهِم بسبب العنكبوت أو بيض الحمام ؟! أليس إبتعاد الأعداء بدون سبب أشدّ عَجَبًا و غرابة من العنكبوت و الحمام ؟! و لقد حَبَسَ الكون أنفاسه فى تلك اللحظات بالغة الحرج.و كان الصِدّيق خائفًا مُشفِقًا،لا على نفسه،وإنما على مصير الدعوة،إن أصاب النبى مكروه.قال رضي الله عنه: (قلت للنّبيّ صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار: لو أنّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا،فقال: ما ظنّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما)؟..و الثابت أن الله تعالى قد صَرَفَ الأعداء عن الغار الذى به رسوله و مُصْطَفَاه و صاحبه،وأنقذهما من بطشهم و كيدهم،وأيّدَهُ بجنود لم يرها أحد من البشر، كما جاء فى قوله سبحانه و تعالى :

(إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) سورة التوبة:٤٠

٣١- قصة سُرَاقَة بن مالك

حفظ الله الجَبّاَر القَهّار،رسوله وصاحبه فى الغار،كما حفظ أباه إبراهيم و نَجّاه من النار،و حفظ أخاه يونس،وأخرجه من بطن حوت بقاع البحر،و أخرج أخاه يوسف من الأسر إلى القصر،و حفظ إخوته المُرسلين فى كُلّ عَصْرٍ و مصرْ.و كان مِمّنْ سَخَّرَ الله لرسوله خلال الرحلة،أعرابيًا طامعًا من بنى مُدْلِجْ هو"سُرَاقَة بن مالك".كان سُرَاقَة جالسًا مع قومه بالبادية،عندما جاء رجل،فأخبرهم بأنه رأى رَكْبًا يحسبه محمد بن عبد الله و صحبه،الذين رصدت قريش مُكَافَأة قدرها مائة ناقة لمَنْ يأتى بأحدهم،حيًّا أو مَيّتًا.و سال لُعَاب سُرَاقة للمال الوفير،فَهَبْ مُنْكِرًا على الرجل ما رأى-لتضليل الآخرين-و أوهمه أنها قافلة أخرى رآها،و ليس محمدًا و لا رفاقه.و سرعان ما انسحب بهدوء من المجلس،و امتطى فَرَسَه،ليُسَابِق الريح،نحو النبى و من معه.و فَرِح سُرَاقَة عندما اقترب من الرَكْبْ،إذ يُوشِك حلمه على التَحَقّق،بالفوز بالإبل،و هى ثروة هائلة بمقاييس ذلك الزمان.و فجأة سَقَطَ الفرس على الأرض و سراقة معه !!

و رغم الَوَجَعْ الشديد،نهض بسرعة،و أوقف جواده،و امتطاه ثانية مُسْرِعًا ناحية النبى صلى الله عليه و سلم.و خلال دقائق تَكَرّرَت السَقْطَة بأشَدّ من الأُولى.شَعَرَ سُرَاقَة بالفزع ،لكنه مازال فريسة للطمع.أنْهَضَ الفَرَس من جديد،و امتطاه أملًا فى بلوغهم هذه المَرّة.و لكن الفَرَسَ سَقَطَ -للمَرّة الثالثة-و غاصت أرجله الأربع فى الرمال،فعجز عن القيام.و وَجَدَ سُرَاقَة نفسه عاجزًا تمامًا عن إعادة الكَرّة،و أيْقَن أن محمدًا رسول الله حَقًّا،وأن الله يحميه منه و من سائر الخلائق.فناداهم،مُتَوَسّلًا نادمًا على ما فَعَلْ.و عَرَض عليهم إمدادهم بالطعام و الركائب،إثباتًا لحسن النية،و أسَفِه على تَعَقّبِهِم.لكنهم لم يقبلوا منه شيئًا،و طلبوا منه فقط إبعاد باقى المُطَارِدِين عنهم ما استطاع.و طَلَب سُرَاقَة من النبى صلى الله عليه و سلم كتاب أمان،لينتفع به عندما يُظْهِرَه الله على المُشْرِكِين،فأمر عليه الصلاة والسلام راعى الأغنام عامر بن فهيرة بكتابة عهد له،على قطعة من الأديم (الجِلْدْ) وأعطاه إياه.و قبل ابتعاده بَشّرَه الرسول صلى الله عليه و سلم بأنه سيرتدى"سُوارى كسرى"ملك الفرس ذات يوم.و كاد عقل الأعرابى أن يذهب من فرط العجب و الدهشة مما جرى له اليوم..فقد عاين معجزة مَنْعِهِ من القبض على النبى،و كاد أن يهلك و فرسه أثناء المحاولة عدة مرات.و ها هو ذا (الأَعْزَلْ المُطَارَدْ) يُبَشّرُهُ بأنّه سوف يلبس ثياب و زينة و مجوهرات كسرى أقوى وأغنى ملوك الأرض ذات يوم!

و رغم ذهوله انصرف سُرَاقَة،و وَفّى بوعده للرسول،فنَجَحَ فى صَرْفْ باقى المُشْرِكِين عن الطريق غير المألوف الذى سلَكَه النبى و مَنْ مَعَه،و كان هذا سبَبًا فى تَوَقّف المُطاردة للقافلة المُباركَة،فلم يتعرّضْ لهم أحد بعد سُرَاقَة، إلى أن وصلوا إلى

المدينة،التى أضاءت بقدوم سيد البشر صلى الله عليه و سلم.و هكذا كان سُراقة أول النهار مُطَارِدًا،و انقلب فى آخره حارسًا !!

و بعد ٨ سنوات من ذلك اليوم،فتح الله على رسوله و أصحابه مكّة المُكَرّمة.و جاءه سُرَاقَة بالعهد الذى كتبه له النبى أثناء هجرته،فقَرّبَه الأمين إليه،وأعْلَنَ أن"هذا يوم وفاء و بِرّ"وأمر أصحابه بإكرامه،و أسلم سُرَاقَة بين يديه لله رب العالمين.و لم يكن هذا آخر ما جرى لسُرَاقَة..ففى عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه فتح المسلمون بلاد فارس،و غنموا كنوز ملكها"كسرى أنو شروان".وأرسلوها إلى الفاروق بالمدينة،لتوزيعها كما أمر الله تعالى.و رأى الفاروق"سوارى كسرى"فتَذَكّرَ بُشرى النبى لسُرَاقَة بن مالك،فاستدعاه،وألبسه السوارين،بالضبط كما أخبر الصادق الأمين عليه صلاة و سلام رب العالمين..و هتف الفاروق،رضى الله عنه،مُحَدِّثًا بنعمة الله على المسلمين،و مُذَكّرًا إياهم بأحد براهين النبوة: الله أكبر..الحمد الذى سلبهما كسرى و ألبسهما أعرابيًا من بنى مُدْلِج "سُرَاقَة بن مالك بن جَعْشَمْ "!

٣٢ - ((أُم معبد))

أُم معبد الخُزاعية سيدة بدوية كانت تسكن فى خيمة على الطريق بين مكة و يثرب.و شاء الله تعالى أن تدخل هذه السيدة التاريخ الإسلامى،من أوسع الأبواب،بسبب كرمها و مروءتها.فقد اعتادت رضى الله عنها أن تُطعم و تسقى المُسافرين الفقراء،وأبناء السبيل المحتاجين،بغير مُقابل.و مَرّ بخيمتها النبى صلى الله عليه و سلم،و صاحبه الصدّيق،و مولاه عامر بن فهيرة،و دليلهم عبد الله بن أُريقط،فى طريقهم إلى يثرب.و سألوها أن تبيع لهم بعض التمر واللحم،فاعتذرت عن عدم تلبية مطلبهم،فقد كانت سنة قاسية جدباء-بلا مطر-و لولا هذا لأعطتهم الطعام بلا مُقابل.و رأى عليه السلام شاة هزيلة ترقد فى جانب الخيمة،و سألها عنها،فأخبرته بأنها شاة مريضة صغيرة لم تلد من قبل،و لهذا يستحيل أن يكون بها لبن.فطلب منها صلى الله عليه و سلم الإذن بحلبها،فدهشت المرأة،لكنها أرادت أن تترك له الفرصة ليتأكّد بنفسه من صدقها و استحالة وجود لبن بها،فقالت له: بأبى أنت و أُمّى،إن رأيت بها حَلْبًا فاحلبها..وأمسك النبى صلى الله عليه و سلم بضرع الشاة الهزيل الجاف،و دعا رَبّه..و خلال ثوان معدودات انتفخ الضرع،و بدأ اللبن يتقاطر منه وسط ذهول أم معبد،التى أحضرت إناءً كبيرًا،سرعان ما امتلأ باللبن،وأمرها النبى صلى الله عليه و سلم،فشربت حتى ارتوت،و ملأ لأصحابه،فشربوا جميعًا حتى ارتووا،و شرب صلى الله عليه و سلم آخرهم،ثم أعاد ملء الإناء عن آخره،و تركه لأُم معبد،وانصرفوا.و ما لبث زوجها أن جاء،و ذُهل بدوره،حين رأى اللبن الغزير،و حكت له أم معبد المعجزة التى وقعت أمامها،و وصفت له النبى صلى الله عليه و سلم بدقّة بالغة.و ما أن انتهت حتى أخبرها زوجها أن هذا هو النبى الذى ظهر فى قريش،و اضطر وأصحابه إلى الهجرة من مكة إلى يثرب،فرارًا بدينهم.و سرعان ما لحق"أبو معبد"و زوجته بالرسول صلى الله عليه و سلم،فى يثرب،وأسلما معه لله رب العالمين.و فُوجىء أهل مكّة ذات ليلة بشاعر مجهول يُنشد :

جزى الله رب الناس خير جزائه & رفيقين قالا خيمة أُم معبد

هما نزلا بالهُدَى و اهتدت به & قد فاز من أمسى رفيق محمد

---

* قصة أُم معبد رواها الإمام الحاكم في المُستدرك،و صَحّحَهَا الإمام الذهبي في التلخيص،و رواها الإمام الطبراني في الجامع الكبير،واعتمدها و حَسّنَ إسنادها الإمام ابن كثير،رضى الله عن الجميع..و يستحيل تجاهل ما رواه هؤلاء الفحول،نزولًا على كلام بعض المُعاصرين،الذين لا يبلغون معشار أحدهم فى العلم !

القسم الثانى

العهد المدنى

٣٣- بناء المسجد النبوى

بوصول الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه إلى المدينة بدأ عهد جديد مشهود فى تاريخ الإسلام.و صارت"يثرب"عاصمة للدولة الناشئة،و لجأ إليها كُل مُضْطَهَدِ مُحَارَبِ فى دينه من شتى أنحاء الجزيرة.و قد أحسن الفاروق عمر وأصحابه،رضوان الله عليهم أجمعين،حين اختاروا بدء التقويم الإسلامى بيوم الهجرة الشريفة،ففيه تأسّسَت دولة الإسلام..و مكث صلى الله عليه و سلم أيامًا فى"قباء"إحدى ضواحى يثرب،حيث أسّسَ المسجد المعروف هناك،و صلى بالناس فيه الجُمْعَة لأول مَرّة فى تاريخ الإسلام،إذ منعه اضطهاد المشركين فى مكة من إقامة الشعائر.ثم انتقل صلى الله عليه و سلم بعدها إلى قلب المدينة.و كان من قدر الله و توفيقه لرسوله أن جَعَلَ تحديد مكان إقامته و بناء المسجد النبوى الشريف بالوحى،و ليس باختيار النبى.و جاء هذا تطييبًا لقلوب كافّة القبائل و البطون،حتى لا يحزن أحد منهم،لو فَضّل الرسول غيره عليه.و كانت العلامة هى تَوَقّفْ ناقة المصطفى،فكان يدعو بخير لكل الذين عرضوا استضافته،و يقول لهم: (خَلّوا سبيلها فإنها مأمورة) و بالفعل وَقَفَتْ الناقة فى مكان واسع لتجفيف التمر"يمتلكه يتيمان من بنى النجّار-أخوال عبد المطلب بن هاشم جد النبى عليه السلام-إيذانًا بأن هذا هو الموقع المُحَدّدْ لبناء المسجد..و هذا الاهتمام البالغ بأمر المسجد (حتى قبل دخول النبى أيًّا من المساكن) لأنه بيت الله فى الأرض،و هو مكان الصلاة والذكر و الإعتكاف والتلاوة و تلَقّى العلم،و مركز الحُكْمْ والإدارة،واستقبال الوفود،و نقطة انطلاق البعوث والسرايا،فضلًا عن الإجتماعات العامة،و مبيت أبناء السبيل و الفقراء والمساكين الذين لا مأوى لهم.....الخ.و حَمَلَ أبو أيوب "خالد بن زيد"رضى الله عنه رَحْلَ-متاع- النبى إلى داره،ليُقيم صلى الله عليه وسلم عنده بضعة أشهر،إلى أن تم بناء المسجد ثم حُجُرات أزواجه –واحدة تلو الأخرى-بجواره،فانتقل إليها.و قد رفض صلى الله عليه و سلم تبرع اليتيمين بأرض المسجد،و اشتراها منهما بعشرة دنانير،و شارك صلى الله عليه و سلم مع أصحابه فى بناء المسجد البسيط، المُكَوّن من الأحجار و الطوب اللبن"مصنوع من طين لم يدخل النار"و أقاموه على أعمدة من جذوع النخل،و كان سقفه من جريد النخل فقط.و بذات المواد البسيطة جدًا بنى صلى الله عليه و سلم حجرات زوجاته إلى جوار المسجد.و بذلك لَقَّنَ الجميع درسًا عمليًا فى الزُهْد والبساطة والتواضع،و عدم الركون إلى الدنيا و حُطَامَهَا الفانى.(وَ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).سورة الشورى:٣٦

٣٤- المُؤَاخَاة بين المُهَاجِرِين و الأنصار

كانت المُؤَاخَاة بين المُهَاجِرِين و الأنصار من أهم أُسُسْ بناء المُجْتَمَعْ الجديد،التى حَرَصَ عليها الرسول صلى الله عليه و سلم بمُجَرّد وصوله إلى المدينة المُنَوّرَة.فالتكافل الإجتماعى،و التراحم،و الترابط بين إخوة العقيدة ينبغى أن يعلو على أية روابط أخرى دنيوية.و قد تَرَكَ المُؤمنون الذين خَرَجَوا من ديارهم،فى سبيل الله، كُل شىء،و كانوا بحاجة ماسّة إلى حاضنة أُخرى رحيمة،تُعَوّضُهُم مّا فقدوا من بيوت و أهل و أموال،و تُؤْنِسُ وحشتهم،و تُخَفّفْ عنهم فى غُرْبَتِهِم.و يشهد الله أن كِرَامَ الأنصار،قد قاموا بهذا كله،على أروع و أعظم ما يكِونْ،حتى وَصَلَ بهم الأمر إلى درجة أن عَرَضُوا على النبى صلى الله عليه و سلم التنازل عن نصف ثرواتهم من بساتين النخيل لإخوانهم المُهَاجِرِين،رضى الله عن الجميع.و رَفَض عليه الصلاة و السلام،و أخبرهُمْ أنه يكفيهم مُشاركة إخوتهم و ضيوفهم فى الثمار دون الملكية.و كانت هناك نماذج فريدة للكرم و الإيثار خَلّدَهَا التاريخ الإسلامى للأوس و الخزرج..فهذا سعد بن عبادة،رضى الله عنه،أحد السادات،لم ينقطع يومًا واحدًا عن إعداد الطعام و إرساله كل مساء إلى مقر إقامة النبى صلى الله عليه و سلم بدار"أبى أيوب"ليطعم المصطفى و معه عشرات من فقراء المسلمين.و كان أبو أيوب نفسه-رضى الله عنه- يُؤْثِر النبى و أصحابه بالطعام على أولاده.و كذلك كان الصغير"أنس بن مالك"يحمل الطعام الذى أمرته أُمّه الصحابية الجليلة بنقله إلى النبى و مَنْ مَعه..و بَلَغَ الصحابى الجليل الأنصارى سعد بن الربيع ذروة الكرم و النُبْل،التى لَمْ يبلغها أحد من الناس قبله-عدا الأنبياء-إذ عَرَضَ على أخيه المُهَاجِرْ أن يُقَاسِمَهُ ماله-مُنَاصَفَة-و هذه عَرَضَهَا أيضاً كثيرون غيره.لكن سعدًا انفرد من بينهم جميعًا بأن طَلَبَ من أخيه المُهَاجِرْ أن يختار التى تُعجبه من زوجتيه،ليُطَلّقها سعد،ثم يَتَزَوّجها أخوه-عبد الرحمن بن عوف-بعد إنقضاء عِدّتِهَا ! و الرجل قد يجود بماله،لكن النفس-عادةً-لا تُطِيقُ التنازل عن الزوجة بأى حال،مهما بَلَغَت من الكرم والإيثار.و لم ينتهز عبد الرحمن بن عوف الفرصة،و لم يستغل نُبْلَ أخيه الأنصارى،فرفض بتَعَفّفْ،و قال له: بارك الله لك فى أهلك و مالك.دلّنى على السوق.و كان عبد الرحمن تاجرًا ماهرًا،دعا له النبى صلى الله عليه و سلم بالبركة،فكان يربح فى تجارته أضعاف ما يربح غيره،و كان يقول:لو قَلَبْتُ حجرًا لظننت أنّى أجد تحته مالًا..و خلال أيام تاجر فى سوق المدينة و ربح،فاتخذ بيتًا مُسْتَقِلاً،و تَزَوّج من بنات الأنصار،رضى الله عن الجميع .و على أكتاف هذه النماذج الرفيعة التى تقتدى بالسُنّة،و تتحلّى بقيم النُبُوّة،وتسمو بمكارم الأخلاق،قامت دولة الإسلام.و قد أثنى الله تعالى علي

الأنصار بقوله: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَ مَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) سورة الحشر:٩. وأثنى على الفريقين معًا بقوله تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) سورة التوبة:١٠٠.و بعد سنوات استقر خلالها المجتمع الجديد،و كَوّن المُهاجرون أُسَرًا،واكتسبوا أموالًا،لم تعد هناك حاجة إلى"نظام المُؤاخاة"بمعناه الحرفى،الذى كان يشمل التوارث،فأمر الله تعالى بإعادة الأمر إلى طبيعته: (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِين).الأحزاب:٦.والآية تُفيد نسخ حكم الإرث بالتآخي في أول الإسلام.و لئن نُسخ التوارث،فلم و لن تُنسخ رابطة الأخوة"المعنوية"فى الله بين الجميع،و هى أسمى و أبقى.

٣٥ - دستور المدينة

مع بناء المسجد،والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار،كانت الخطوة الضرورية الثالثة هى وضع نظام أساسى للمجتمع الجديد،يكفل التعايش السلمى بين كل طوائف المدينة،و يحكم و ينظّم العلاقات فى الدولة الوليدة.وهناك إجماع بين علماء الدساتير والنظم السياسية و المُؤرّخين المُنصفين على أن"وثيقة المدينة"هى أول نص مكتوب لدستور شامل لدولة مُتَطَوّرَة،يصل إلينا كاملًا،كما وضعه النبى صلى الله عليه وسلم،بالاتفاق مع المهاجرين والأنصار،و مشركى المدينة،و قبائل اليهود الثلاث–بنو النضير و بنو قينقاع و بنو قريظة-و من تحالف معهم.وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم-وإن كان هو الدستور الأعظم-إلا أنه يتضمن المبادىء العامة و القواعد الكلية،تاركًا التفاصيل لأهل كل زمان ومكان،فى إطار تلك المبادىء والقواعد.و هو أقرب ما يكون إلى مفهوم "النظام العام"للمجتمع. وهذا النظام العام للدولة الإسلامية لا يجوز الاتفاق على ما يخالفه،ويقع باطلًا بطلانًا مطلقًا كل نص أو اتفاق على الخروج على أحكامه.و على هذا فلابد للناس من وثيقة مكتوبة تنص بالتفصيل على حقوق و التزامات جميع الأطراف،وتنظيم العلاقات بينهم،على نحو يحسم أية خلافات،و يضع حلولًا لما قد ينشب بينهم من منازعات. وهناك سبب آخر وجيه لوضع دستور مكتوب لدولة المدينة،هو أنها كانت تضم أطرافًا أخرى لا تؤمن بالقرآن الكريم،و هم اليهود و من لم يكن قد أسلم بعد من الأوس والخزرج،فليس من الحكمة و لا من فقه الواقع إخضاعهم مُباشرة لحكم كتاب سماوى لم يُؤمنوا به بعد،فيقع التنازع فى الدولة الإسلامية الناشئة مُبَكّرًا،وإنما المقبول أن يتم وضع دستور و نص مكتوب يرتضونه جميعًا،شريطة أن يأتى موافقًا لما فى كتاب الله من مبادىء وتشريعات،لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.ومن مُفَكّرى الغرب الذين بهرتهم هذه الوثيقة الدستورية الخالدة،المستشرق الرومانى"كونستانس جورجيو،الذى وضع كتابًا كاملًا عن النبى صلى الله عليه وسلم،استعرض فيه مناقب الإسلام..يقول "جورجيو"عن دستور المدينة أو كتاب النبى صلى الله عليه وسلم المُنَظّم للعلاقات فى دولة الإسلام:"حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بندًا.خمسة و عشرون منها خاصة بأمور المسلمين،و سبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى،لاسيما اليهود و عبدة الأوثان.وقد دُوّن هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية،و أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء.و وضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة،أى عام ٦٢٣م.و نَصّ على أنه في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو،فعليهم أن يَتّحِدُوا لمجابهته و طرده"انتهى..وجاء بالموسوعة العالمية الحُرّة-ويكيبيديا- أن دستور المدينة:"يعتبر أول دستور مدني في التاريخ".و قد أطنب فى ذكره

المؤرخون،وعلماء الدساتير وغيرهم،و اعتبروه مفخرة من مفاخر الحضارة الإسلامية، ومَعلَمًا من معالم مجدها السياسي و الإنساني.و بإبرام هذا الدستور—و إقرار جميع الفصائل بما فيه-تكوّنت بموجبه دولة وِفَاقية،رئيسها الرسول-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-و صارت المرجعية العليا للشريعة الإسلامية،و كفلت جميع الحقوق الإنسانية،مثل حرية الاعتقاد و مُمارسة الشعائر،والمساواة والعدل.وهكذا نرى أن صحيفة أو وثيقة المدينة هى-كما لاحظ المُنصفون—دستور سبق كل دساتير العالم المكتوبة بأربعة عشر قرنًا من الزمان،فهى نقلة حضارية كبرى للبشرية. وقد تضمن لأول مرّة فى التاريخ حقوقًا وواجبات متساوية لرعايا الدولة،أو ما نسميه بلغة عصرنا:"حقوق المواطنة"بصرف النظر عن ديانة كل منهم أو انتمائه العرقى أو القبلى .وفى رأى كاتب هذه السطور المتواضع أنه يتعيّن على الباحث المحايد تحليل و قراءة دستور المدينة على ضوء ما كان سائدًا فى كل أنحاء العالم وقت كتابته،و حينئذ تتجلّى أمامه جوانب السبق الفريد،والعظمة،والإعجاز فى نصوص هذا الدستور النبوى الشريف،و كما قيل بحق: "و بضدّها تتميز الأشياء".فلم تكن قبائل العرب المتناحرة المتصارعة فى الجاهلية تخضع لأى دستور أو قانون مكتوب أو غير مكتوب،سوى التقاليد والأعراف السائدة فى كل قبيلة أو منطقة،بل لم يكن لهم نظام سياسى أو حكومة واحدة لها سلطة من أى نوع.و لم يكن للفرس دستور سوى رغبات وشهوات وأوامر وقرارات كسرى التى لا تُناقش و لا تُرد،و ذات الحال عند الرومان الذين كان يستعبدهم قيصرهم،و ما كان أحدهم يتجرأ أو حتى يفكّر فى مطالبته بنصوص دستورية تضمن حقوقًا للرعية من أى نوع كان.وذات الأمر كان هو السائد تحت حكم الفراعنة،ثم من تلاهم فى مصر،و ملوك الصين والهند و قبائل القارة السمراء أفريقيا بلا إستثناء.وسط كل هذه الظلمات التى كانت تغطى العالم فى تلك الفترة،جاء الإسلام بوثيقة مكتوبة تحدد بوضوح حقوق المواطنة وواجباتها،و طريقة حسم المنازعات بين طوائف مواطنى دولة المدينة،والتزام الجميع بالحفاظ على كيان الدولة والدفاع عنها ضد أعدائها ومن يفكر فى غزوها أو الكيد لها،و تفاصيل حماية الأفراد من الظلم،والتعويضات عن أية تجاوزات تقع ضد أى فرد أو جماعة،و كيفية محاسبة الظالمين وعقابهم على أية انتهاكات لنصوص الدستور أو حقوق المواطنين.و تُقَرّر أيضا التكافل الاجتماعى بين مواطنى المدينة فى أروع صوره. وعن هذا الدستور يقول الأستاذ الدكتور محمد عمارة: "لو أن باحثًا في الفقه الدستوري بحث عن أقدم دستور بقي لنا بنص مواده في الدساتير الإنسانية،فإن هذا الباحث لن يجد دستورًا سابقًا علي دستور دولة النبوة التي قامت بالمدينة المنورة سنة ٦٢٢م..قد يجد قوانين ترجع إلي عهد حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ق .م) و لكنها كانت ناقصة وغير واضحة- لكنه لن يجد دستورًا كاملًا أقدم ولا أعظم من دستور دولة المدينة التي رأسها نبي الإسلام،عليه الصلاة والسلام.

٣٦ ـ أهداف السرايا

قبل الحديث عن الغزوات و السرايا هناك إيضاح ضرورى.فالكثيرون يغفلون عن حقيقة هامة هى أن المُشْرِكِين قد استولوا على أموال و بيوت مَنْ هاجر من المسلمين المُسْتَضْعَفين إلى يثرب.و لم تكن هناك محاكم فى بلاد العرب،ليلجأ إليها هؤلاء الذين أُجْبِرُوا على الرحيل،فرارًا من الطُغَاة.و كان حلف الفضول الذى يَتَصَدّى للظالمين،قد اندثر بموت مُعْظَم أعضائه.و مِنْ هنا نُدْرِكْ أنه لم تكن هناك وسيلة لاسترداد الأموال المنهوبة،سوى التصَدّى لقوافل قريش التجارية على الطريق من مكة إلى الشام.و ليس من العدل،و لا من المنطق،أن نُطَالب المظلوم بترك ظالمه،ليُنْفِقْ المال المنهوب،فضلًا عن إستثماره،بينما لا يكاد أصحابه الشَرْعِيُّون يجدون الطعام لهم ولأطفالهم.و لهذا أمر الرسول صلى الله عليه و سلم عدة سرايا بالخروج لاعتراض بعض قوافل الغاصبين،و محاولة إسترداد ما يُمْكِن إسترداده من أموالهم المسلوبة.و لم يكن الهدف قتالًا فى هذه الأحوال،إلا إذا اعتدى عليهم الطرف الآخر.و كان الهدف من سرايا أُخْرَى هو تأمين حدود الدولة الناشئة مِنْ هجمات طوائف اعتادت الإغارة على المراعى،إذ لا مَفَرّ مِنْ ردع هؤلاء.و إذا كان الردع دفاعيًا فى مُعْظَم الحالات،ففى حالات أُخْرَى كان لابُدّ مِنْ توجيه ضربات استباقية إجهاضية،لتفريق حشود المُغِيرِين قبل تحرّكِهَا لمُدَاهَمَة المدينة على حين غِرّة.و كان النوع الثالث من السرايا-مجموعات صغيرة يقودها

أحد الصحابة وليس النبى-بهدف جمع المعلومات،أى أنها كانت بلُغَة عصرنا (دوريات إستطلاعية)لا تستهدف الإشتباك مع العدو،إلا للضرورة القُصْوَى،إذا بادرها الآخر بالعدوان عليها.و حق الدفاع عن النفس و الأهل والمال تكفله كُلّ الشرائع و القوانين و الأعراف منذ فجر الإنسانية،بلا إنكارٍ أو جِدَالٍ مِنْ أحد.

٣٧- وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْل

لم يحدث قتال فى مُعْظَم السرايا التى أرسلها النبى صلى الله عليه و سلم حول المدينة،بإستثناء سرية عبد الله بن جحش رضى الله عنه.و هى الواقعة التى حاول خصوم الإسلام إستغلالها للتشكيك فيه،و النيل منه..و قد باءت كل محاولاتهم بالفشل التام.ففى هذه السرية بالذات كانت هناك تعليمات"مكتوبة"من النبى صلى الله عليه،سلمها لأميرها و من معه –كانوا ثمانية فقط من المهاجرين-رضى الله عنهم.وأمره صلى الله عليه و سلم بعدم فتح الكتاب و قراءة ما فيه إلا بعد مسيرة يومين،وألا يُجْبِرَ أحدًا ممن معه على الإستمرار فى الرحلة،إن أراد العودة.و فتح عبد الله بن جحش الكتاب و قرأ ما فيه على أصحابه.و كان أمرًا شريفًا بالمضى إلى منطقة بين مكة و الطائف (لاستطلاع أخبار قريش)..وأطاع الثمانية الأمر النبوى،و مضوا فى طريقهم حتى بلغوا منطقة"نَخْلَة"خارج حُدُود الحَرَمْ،فصادفوا إبلًا لقريش معها عمرو بن الحضرمى،و وقع اشتباك بين الجانبين قُتِلَ فيه ابن الحضرمى،وأُسِرَ اثنان آخران من المشركين.و قد أثارت قريش ضجة فى سائر أنحاء الجزيرة،زاعمين أن أصحاب محمد سفكوا دمًا فى أحد الأشهر الحُرُم. والحقيقة هى أن القتال كان فى اليوم الأخير من شهر رجب،و ظَنّ الصحابة أنه أول أيام شهر شعبان،و هو ليس من الأشهر الحُرُم.ثم إن من يريد الهجوم يبعث جيشًا كبيرًا،و ليس ٨ من الرجال فقط ،فى مواجهة ألوف من المشركين فى مكة..و نص الأوامر المكتوبة كان هو (رصد قريش و التَعَرّفْ على أخبارها) بلا زيادة أو نُقْصَان..و الدليل القاطع على ذلك أن النبى صلى الله عليه و سلم قد غضب،حين عادت السرية بالأسيرين والغنائم،وأخبروه بما جرى،و قال صلى الله عليه و سلم بوضوح : (ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام) و رفض التَصَرّف فى الإبل،و صَمّم على إطلاق سراح الأسيرين،و دفع فدية ابن الحضرمى"القتيل"للمشركين.و مِمّا سبق يَتَبَيّنْ أن الأمر لا يعدو كونه (اجتهادًا خاطئًا من قائد السرية) بالمُخَالَفَة للتعليمات النبوية..و جاء حل المشكلة من السماء بوحى كريم نَزَل به جبريل الأمين،مُوَضِّحَاً أن القتال فى الشهر الحرام خطأ كبير،و لكن إخراج المسلمين من بيوتهم بمكة،واضطهادهم وإكراه بعضهم على ترك دينه جريمة أكبر و أشد بشاعة.قال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَ صَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَ مَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) سورة البقرة :٢١٧ ..و فور نزول الآية الكريمة قام صلى الله عليه و سلم باستلام الأسيرين و توزيع الغنائم،و لم يدفع للمُشْرِكِين فدية لا يستحقونها.

38 - الطريق إلى بدر -

فى شهر رمضان مِنَ السنة الثانية بعد الهجرة الشريفة علم الرسول صلى الله عليه و سلم بورود أكبر قوافل قريش التجارية،قادمَّة من الشام،و كان يقودها أبو سفيان بن حرب أحد كبار زعماء المُشركين..كان لكل طُغَاة مكة أموال فى القافلة،و لا شك أن سقوطها بيد المسلمين يُعْتَبَر ضربة اقتصادية ساحقة لأعداء الله و رسوله.و على الفور دعا صلى الله عليه و سلم مَنْ كان جاهزًا من أصحابه للخروج و اعتراض طريق القافلة.و يُرَجّح الإمام ابن كثير رضى الله عنه أن عدد الذين خرجوا من الصحابة إلى"بدر"كان ٣١٣ رجلًا.و يرى ابن اسحاق،وغيره،أنهم بهذا كانوا ذات عدد أصحاب"طالوت"الذين هزموا جيش الطاغية"جالوت"فى زمن النبى"داود"على نبينا و عليه الصلاة والسلام.و على الجانب الآخر تَحَسّسْ أبو سفيان الأخبار قرب أحد الآبار،فعلم بورود رجلين إلى موضع الماء قبله بقليل،و من دهائه-كما يروى ابن إسحاق-أنه تَفَقّد مُخَلّفَات بعيرى الرجلين،و فَتّت (البَعْرْ) فوجد فيه آثار (نوى التمر) فصاح:هذه والله علائف (أعلاف) يثرب.و من هذا أدرك أنهما سرية استطلاعية للمسلمين،و رَجّح أن النبى صلى الله عليه و سلم يُخَطّط لاعتراض القافلة.و سرعان ما أرسل أبو سفيان رجلًا خفيف الحركة إلى قريش،ليحذّرهم من ضياع أموالهم،و يطالبهم بالتحرّك بأقصى سرعة لنجدة القافلة..و فى ذات الوقت اتخذ أبو سفيان طريقًا آخر إلى مكة،قرب ساحل البحر الأحمر،مبتعدًا عن طريق المدينة،لتفادى الخطر.و كانت ذريعة التعرّض للقافلة فرصة سانحة للحقود"أبو جهل"لإثارة القبائل ضد النبى صلى الله عليه و سلم و مَنْ مَعَه.و راح يحشد،و يتفقّد كُل مَنْ يخشى تَخَلّفَهم،فينهاهم و يُثير حماستهم بأساليب مختلفة..و هكذا خرج من مكة ألف مُقاتل،طبقاً لبعض الرواة،أو ٩٥٠ حسب مصادر أخرى،و معهم ستمائة درع،و ٦٠ فرسًا،و مئات الإبل.و رغم أن "أبا سفيان"قد نجح فى الإفلات بالقافلة،و الابتعاد تمامًا عن المدينة،و أرسل إلى قريش يطلب منهم الرجوع بعد زوال الخطر،إلا أن"أبا جهل"اللعين رفض العودة إلى مكة،رفضًا قاطعًا،و صاح مُؤكّدًا المضى فى الطريق إلى حدود يثرب،حتى عين ماء"بدر".و بنص كلام "أبى جهل" فالهدف هو أن يُقِيمُ المُشركون هناك ثلاثة أيام،فينحرون الذبائح،و يُقيمون الإحتفالات،و تُطْرِبُهُم المُغنّيَات،و يشربون الخمر،و يسمع بهم الأعراب،فيرهبونهم أبد الدهر ! و هكذا فإن الأمر لم يعد هجومًا على قافلة-نجت بالفعل-و إنما هو البغى و الغطرسة و استعراض العضلات فى المنطقة ! و هناك من تصريحاتهم ما يقطع بأن نِيّة القتال كانت مُبَيّتَة عند"أبى جهل"و غيره من طواغيت المشركين..و لئن كان القتال دفاعًا عن العقيدة والنفس والعرض والمال أمرًا قد أذن الله به فى العهد المدنى-بعد أن

كان محظورًا على المسلمين قبل الهجرة-إلا أن الواقع كذلك أنه ما مِنْ أحد مِنْ العرب-مؤمنًا كان أم كافرًا-يقبل الاستسلام للمَذَلّة والهوان،ما دام فيه عرق ينبض..و بالإضافة إلى أن القتال ضد البغى و الشرك صار مشروعًا،فإن مَنْ لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام،مِنَ أهل المدينة،فى ذلك الوقت،رفضوا-بدورهم- هذا التحدى و الاستفزاز من قريش،و كانوا مستعدّين للتصدّى له بالنفس و النفيس،مهما بلغت التضحيات.لكن الرسول صلى الله عليه و سلم أخبر الجميع أن هذه المعركة الفارقة لن ينال شرف خوضها إلّا مَنْ كان على دين الإسلام.

٣٩ - مجلس شورى بَدْر

عندما بَلَغَ الرسول صلى الله عليه و سلم خبر خروج جيش المشركين من مكة فى إتجاه المدينة،جمع أصحابه للتشاور،فى مظهر حضارى رائع،غير مسبوق.افتتح صلى الله عليه و سلم الجلسة -كما يروي ابن إسحاق وغيره- بمقولته الشهيرة: (أشيروا علىّ أيها الناس) فقام أبو بكر رضى الله عنه،فأعلن الدعم المُطْلَق للنبى صلى الله عليه و سلم والإمتثال لأوامر الله و رسوله،والإستعداد التام للجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال والولد.و قام عمر بن الخطاب رضى الله عنه،فقال كلامًا مُمَاثلًا.ثم تَحَدّثَ المقداد بن عمرو رضى الله عنه-الثلاثة من المُهاجرين-و فى رواية الإمام البخارى أن المقداد بن الأسود قال للنبى:"لا نقول كما قال قوم موسى له:اذهب أنت و ربك فقاتلا،إنا هاهنا قاعدون،و لكن نُقَاتِلْ عن يمينك و عن شمالك و بين يديك و خلفك".وروى الإمام أحمد مقولة لصحابى آخر:"و الذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها-الإبل و الخيل-إلى برك الغماد-مكان بعيد-لاتبعناك".فأثنى عليهم الرسول صلى الله عليه و سلم و دعا لهم بخير..لكن هذا لم يكن كافيًا..إذ لابد من سماع رأى الأنصار،فهم الأكثرية،كما أن بيعتهم للرسول صلى الله عليه و سلم-العقد بينهم-على نُصْرَتِه إذا وصل إليهم فى مدينتهم،و ربما يظن بعضهم أن واجبهم يقتصر فقط على الدفاع عنه داخل حدود المدينة،و ليس خارجها.و لهذا أعاد صلى الله عليه و سلم الطلب:"أشيروا علىّ أيها الناس"و فَطِنَ الأنصار إلى أنه يقصدهم..فقال سعد بن معاذ رضى الله عنه:لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فأجاب صلى الله عليه و سلم:"أجَل"فهَبّ سعد رضى الله عنه مُعْلِنَا موقف الأنصار:"يا رسول الله آمنا بك و صدقناك و شهدنا أن ما جئت به هو الحق،وأعطيناك على ذلك عهودنا و مواثيقنا،و على السمع و الطاعة لك،فامض لما أردت،فنحن معك،فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخُضته لخُضناه معك،ما تَخَلّفَ منّا رجل واحد،وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا.إنّا لَصُبّر فى الحرب،صُدّق عند اللقاء"،و لعل الله أن يُريك منا ما تقر به عينك،فسِرّ على بركة الله

و سُرّ النبى صلى الله عليه و سلم بكلام سعد،و قال لأصحابه:"سيروا وأبشروا،فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين،والله لكأنّى أنظر إلى مصارع القوم".و كانت للشورى مُنَاسَبة أخرى،عندما نزل الرسول صلى الله عليه و سلم بالناس فى مكان لم يُعْجِب

الصحابى الجليل الخبير"الحبّاب بن المنذر"رضى الله عنه،فقال يا رسول الله ،أهذا منزل أنزلكه الله،فليس لنا أن نتقدّم عنه أو نتأخر؟! أم هو الرأى و الحرب والمكيدة؟

و نُلاحظ هنا فهمًا عبقريًا للحبّاب رضى الله عنه،و أدبه مع الله و رسوله..فلو كان الأمر بوحى إلهى،فلا كلام لأحد،إذ لا اجتهاد مع الوحى،و إن كانت المسألة شأنًا

دنيويًا اجتهاديًّا،فهنا يمكنه الإدلاء برأى أفضل.فلَمّا أخبره الرسول صلى الله عليه و سلم أنه الرأى و الحرب والمكيدة،و أنه لم ينزل عليه بشأن مكان الجيش وحى،ب

اقترح الصحابى الجليل الإنتقال بالناس إلى أقرب بئر ماء من الإتجاه الذى سيأتى

منه العدو،و بناء حوض عليه،ليشرب منه المسلمون وحدهم،و يتم تعطيل استخدام

باقى الآبار،لحرمان المشركين من الماء الضرورى لهم و لخيلهم و إبلهم،فلا يستطيعون الصمود فى المعركة وقتًا طويلًا..و كان هذا رأيًا صائبًا مُوفّقًا ظاهر الوجاهة،فأثنى عليه الرسول صلى الله عليه و سلم ، و أمر بتنفيذه فى الحال.

و هكذا تكون الشورى دائمًا بركة من جميع الأوجه،و بها التوفيق والانتصار.

٤٠ - لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا

كانت هناك محاولات من بعض عُقلاء قريش لمنع المواجهة.و منهم الأخنس بن شريق الذى أقنع قومه من بنى زهرة بالرجوع،بعد أن نجت قافلة أبى سفيان من الخطر،و أخلى الرسول صلى الله عليه و سلم سبيل أسيرهم مخرمة بن نوفل..و بالفعل لم يشهد القتال أحد من بنى زهرة،بالإضافة إلى بنى عدى،الذين لم يخرجوا مع الجيش من مكة منذ البداية،حسبما روى ابن إسحاق.و كذلك استطلع عمير بن وهب الجمحى أحوال المسلمين،و عاد ليُخْبِرَ المُشركين أنه رأى رجالًا أشِدَّاء،ليس لهم مَلْجَأ إلّا سيوفهم،و هم حوالى ثلاثمائة مُقَاتل،ليس لديهم ما يخسرونه،فلن يهلكوا إلا بعد أن يقتلوا من قريش عددًا مُمَاثِلًا لعددهم،فأى خير فى الحياة إن قُتِلَ المِئات من الجانبين ؟! و سمع حكيم بن حزام رضى الله عنه-و كان مُشْرِكًا فى ذلك الوقت-ما قال عمير،فأراد حقن دماء الطرفين،و ذهب إلى عُتْبَة بن ربيعة،أحد سادات مكة،و ناشده أن يرجع بالناس،وأن يدفع هو دِيَة حليفه القتيل عمرو بن الحضرمى-المقتول فى سرية عبد الله بن جحش قبل ذلك-إذ لا مُبَرّر لسفك الدماء بعد نجاة القافلة.و وافق عُتْبَة فورًا على اقتراح حكيم،و قام فخَطَبَ فى الناس قائلًا:يا معشر قريش.إنكم و الله ما تصنعون بقتال محمد وأصحابه شيئًا.فإن أصبتموه،لا يزال الرجل-منكم-ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه-لأنه-قد قتل أخاه أو ابنه أو عمه أو ابن عمه أو ابن خاله أو أحدًا من عشيرته. فارجعوا و خَلّوا بين محمد و بين سائر العرب،فإن أصابوه فذلك الذى أردتم.و إن كان غير ذلك لم تخسروا شيئًا.و كاد المُشركون يخضعون لرأى عُتْبَة،لكن"أبا جهل"اللعين غضب،و اتهم عُتْبَة بالجُبْن،و الخوف على ابنه"أبى حُذَيْفَة"الذى كان مسلمًا مع النبى.و حَرّض"أبو جهل"شقيق القتيل -ابن الحضرمى-على إثارة الناس،و المطالبة بالأخْذْ بثأر أخيه و رفض الدية،و بالفعل قام ابن الحضرمى،فَشَقّ ثيابه،و لَطَمَ خديه،صارخًا:وا عمراه ،وا عمراه،فهاج الكافرون،وأصَرّوا على القتال.و هكذا فشلت جميع محاولات العُقَلاء فى حَقْنْ الدماء (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَ يَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) سورة الأنفال:٤٢..و اصطف الجيشان قرب عين ماء"بدر"وأرسل الله تعالى مطرًا خفيفًا،ثَبّتَ التُرْبَة الرَخْوَة تحت أقدام المسلمين،وأنعشهم.كما أنعم عليهم بالنُعَاس-النوم الخفيف-وقتًا قصيرًا،و بذلك نالوا قسطًا ضروريًّا من الراحة قبل بدء المعركة الفاصلة.

٤١ - يوم الفرقان

قضى الرسول صلى الله عليه و سلم ليلة"بدر"راكعًا ساجدًا يبتهل إلى ربه:

الحىّ القيّوم:"اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتنى ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض"و ظل على هذا الحال،حتى سقط الرداء عن منكبيه.و أبو بكر رضى الله عنه يحاول التخفيف عنه:"يا رسول الله بعض مناشدتك لربك"أى هَوّنْ عليك..حسبك..يكفيك بعض هذا،و سيُنْجِزُ الله لك ما وعد.ثم خرج عليه الصلاة والسلام حين أقبل جيش المشركين،و هو يتلو قول الله تعالى: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرْ) سورة القمر:٤٥.و هذه الآية الشريفة من دلائل النبوة،فقد نزلت بمكة،و لم يكن وقتها جيوش و لا قتال،حتى عَجِبَ الفاروق رضى الله عنه،و راح يتساءل:أى جمع ؟! فلَمّا جاءت"بدر"و سمع النبى صلى الله عليه و سلم يُرَدّدُهَا تَذَكَّرَهَا،و فهم أنها كانت بشارة مُبَكّرَة من الله تعالى بالنصر..و بدأ القتال بالمُبارزة على عادة أهل ذلك الزمان،فخرج عُتْبَة و شيبة ابنا ربيعة و الوليد بن عتبة،و طلبوا أن يُبارزهم ثلاثة من المهاجرين،و ليس الأنصار.فخرج الأسد حمزة بن عبد المطلب و علي بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب لمُبارزتهم،بأمر من النبى صلى الله عليه و سلم .و نُلاحظ هنا أن الثلاثة من بنى عبد المطلب،أى بيت النبى،لأنه عليه الصلاة والسلام وأقاربه أولى بأن يكونوا القدوة الحَسَنَة،و فى طليعة أهل التضحية و الفداء.و كان عليه الصلاة و السلام،بنفسه الشريفة،أقرب الجيش دائمًا إلى صفوف الأعداء،فكان الصحابة- إذا اشتد القتال يحتمون به-و ما لبث الأسد حمزة أن التهم شيبة،و قتل عَلِىّ الوليد،و أصاب الحارث و خصمه عتبة، بعضهما البعض،فأجهز على و حمزة على عتبة،و حملا الحارث،جريحًا،إلى الخطوط الخَلْفِيّة،حيث استشهد بعد قليل،مُتأثرًا بجراحه.ثم بدأ الاشتباك مع جيش قريش الذى يبلغ ثلاثة أضعاف جيش المسلمين.لكن أصحاب العقيدة ،دائمًا و أبدًا،يسحقون الكُفْرْ و أهله،فالنصر من عند الله وحده،بصرف النظر عن الأعداد أو العتاد.و من الثابت بنصوص القرآن الكريم و الأحاديث الصحيحة،ثم تواتر أقوال شهود العَيَانْ من المُقَاتلين-على الجانبين-أن الملائكة قد قاتلت فى"بدر"دعمًا للمسلمين فى مواجهة جيش الشرك و الإلحاد و الطغيان..قال تعالى: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) سورة الأنفال.

و خلال ساعات قصار،قُتِلَ من المشركين سبعون،و وقع فى الأسر سبعون آخرون،بخلاف الجرحى،و وَلَّى الباقون هاربين.و كان عدد شهداء المسلمين أربعة عشر رجلًا فقط -طبقًا لرواية موسى بن عُقْبَة-و لم يُؤخَذْ أسير مُسْلِمْ واحد.

و هكذا تحقّقَ النصر الساحق للإسلام و المسلمين فى أولى و أهم المعارك الحاسمة..ولا شك أن العالم لم يَعُدْ-بعد ذلك اليوم المشهود-كما كان..وصدق الله العظيم :

(وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) آل عمران:١٢٣

٤٢ - مصارع الطُغَاة

و من دلائل النبوة أنه صلى الله عليه و سلم أخبر أصحابه قبل المعركة عن المكان الذى سَيُقْتَلُ فيه كُلّ واحد من طواغيت الكُفّار.و يُجْمِعُ كُلّ من شارك فى"بدر"على أنه لم يُخْطِىء فى موضع واحد منها..فقد هلك عتبة و شيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة فى المبارزة،كما تقَدّم.و أمّا أبو جهل"فرعون هذه الأُمّة"كما وصفه الصادق الأمين،فقد وَكّلَ الله به شبلين صغيرين من فتيان الأنصار،لم يتركاه إلا جُثَّةً هامدة.يحكى الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف قائلًا أنه كان يقف فى الصف يوم بدر،فمال عليه فتى صغير هامسًا فى أُذُنُه: يا عم: أين"أبو جهل"؟!فسأله ابن عوف:و ماذا تريد منه؟!أجاب الفتى و هو"عوف بن عفراء":أريد أن أقتله،فقد علمت أنه كان يُؤذى الرسول صلى الله عليه و سلم فى مكة،ووالله لو رأيته،فلن يُفَارق سوادى سواده-لن يُفَارِق جسدى جسده- حتى أقتله أو يقتلنى.و بعد قليل جاء فتى آخر إلى عبد الرحمن بن عوف،فسأله ذات السؤال عن أبى جهل،وأعاد عليه ذات الجواب عن السبب.و كان الثانى هو"معوذ"شقيق الفتى الأول.

و ما لبث ابن عوف أن رأى أبا جهل وسط مجموعة من فرسان المشركين،فأشار إليه،قائلًا لابنى عفراء:هذا صاحبكما الذى تسألان عنه.و بسرعة البرق اندفع الفتيان إلى قلب المشركين،كالصقرين،و قاتلا ببسالة نادرة،حتى نجحا فى اختراق الحراسة المُشَدّدَة على الطاغية،و تنافسا فى تمزيق جسده بسيفيهما،رغم ما أصابهما من جراح بالغة بسيوف باقى المشركين.و قد نال كلاهما شرف الشهادة،بعد أن أنجزا واحدًا من أهم مكاسب الغزوة التاريخية.و جلس عبد الله بن مسعود رضى الله عنه على صدر أبى جهل و هو يحتضر،و هتف به:هل أخزاك الله يا عدو الله؟! لكن الطاغية أبى إلا الغطرسة و الكِبْرْ حتى آخر لحظة،و قال و هو يلفظ أنفاسه الأخيرة:و هل أنا إلا رجل قَتَلَهُ قومه؟! لقد رَقِيتَ مُرتقى صعبًا (يقصد جلوسه على صدره) يا رويعى الغنم- تصغير لكلمة راعى الغنم-قالها تقليلًا من شأن ابن مسعود ! و أمّا أُمَيّة بن خَلَفْ لعنه الله،فقد استسلم مع ابنه على بن أميّة لعبد الرحمن بن عوف،لكن بلال بن رباح رضى الله عنه شاهده-و كان أُمَيّة يُعَذّبُهُ فى مكة ليترك الإسلام-فصاح بلال:يا للأنصار،هذا رأس الكُفْرْ أُمَيّة بن خَلَفْ،لا نجوت إن نجا..فجاء المسلمون إليه من كل مكان.و رغم أن ابن عوف رضى الله عنه،ألقى جسمه علي أسيره،ليحميه،فقد نخسوه بالسيوف من تحته حتى أجهزوا عليه و على ابنه.و أَمّا"أبو لهب"اللعين فقد كان مريضًا بمرض خبيث،فلم يحضر القتال،لكنه أرسل رجلًا مكانه،مقابل دين عليه.و عندما بَلَغَه خبر الهزيمة الساحقة،أصابته الحسرة،فَهَلَكَ فى مكة،بعد"بدر"بأيام.و كذلك وقع عدد من كبار

سادات قريش فى الأسر،مثل سُهَيل بن عمرو،و العباس بـن عبـد المطلـب عـم النبـى،و كان المشركون قد أجبروه على الخروج معهم،و نهى الرسول عـن قتله،ضـمن جماعـة عَلِمَ بالوحى أنهم كانوا مُكْرَهِين،و لم يرغبوا فى القتال.و بعد دفن شهداء المسلمين،أمر الرسول صلى الله عليه و سلم بإلقاء جُثَثْ قتلى الكافرين فى حفرة كبيرة،و إهالة التراب عليها.ووقف أمامها،و نادى الزعماء الهالكين بأسمائهم:"يا عُتبة بن ربيعة..يا شـيبة بـن ربيعة..يا أميّة بن خَلَفْ..يا أبا جهل بن هشام -إلى آخرهم-هل وجدتم ما وَعَدَ رَبّكُمْ حَقًّـا ؟ فإنى قد وجدت ما وَعَدَنَى رَبّى حَقًّا".و يروى ابن إسحاق أنه عليه السلام أضاف:

(بئس عشيرة النبى كنـتم لنبيّكم..كَـذّبتمونى و صَـدَّقَنِى النـاس.و أخرجتمـونى و آوانـى الناس.و قاتلتمونى و نصرنى الناس) و عندما تَعَجّب أصحابه من مُخَاطَبته للقتلى،قـال عليـه الصـلاة والسـلام: (مـا أنـتم بأسـمع لمـا أقـول مـنهم و لكـنهم لا يسـتطيعون أن يجيبونى).و يثور السؤال عن الحكمة و السِرّ فى أن قتلى الكُفّار ٧٠ فقط،رغم أن واحدًا من الملائكة فحسب،كان كفيلًا بسحق كل مشركى الأرض ؟!

و للإمام ابن كثير رضى الله عنه إجابة رائعة على هذ السؤال :

(و كان قدر الله السابق فيمن بقى منهم-على قيد الحياة-أن سَيُسْلِمْ منهم بشر كثيـر.و لـو شاء الله لَسَلّطَ عليهم مَلَكًا واحدًا فأهلكهم عن آخرهم،و لكن قتلوا من لا خير فيـه بالكُلّيّـة) انتهى.

(وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) سورة إبراهيم:٢٧

٤٣ - المَنّ و الفِدَاء

ضَرَبَ النبى صلى الله عليه و سلّم و أصحابه أروع الأمثال فى الإحسان إلى الأسرى و إكرامهم،و كأن هؤلاء لم يسعوا بالأمس إلى القضاء على المسلمين ! فقد شَعَرَ عليه الصلاة والسلام بالألم،بعد سماع أنين عَمّه العباس فى قيوده،و لكنه رفض التخفيف عنه،إلا بشرط أن يفعلوا هذا بجميع الأسرى،و قد حدث.و بالغ الصحابة فى الحفاوة بالأسرى،إلى درجة أنهم كانوا يَخُصّونَهُم بالخبز والماء واللحم-إن وُجِدْ-و كل ضروريات الحياة،طوال فترة الأسر،و يكتفون وأطفالهم بالتمر.أى أنهم كانوا- في الحقيقة-ضيوفًا كرامًا على المسلمين.وشكر الله صنيع الصحابة ومدحهم بآيات قرآنية خالدة تُتلى إلى يوم القيامة: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَ يَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَ لَا شُكُورًا) سورة الإنسان:٨-٩

و نقل الإمام ابن كثير رحمه الله قول ابن عباس رضي الله عنه إن المقصود بالأسير هنا"أسراهم يوم بدر من المشركين"و يضيف ابن كثير:و يشهد لهذا الرأي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى,فكانوا يُقدّمونهم على أنفسهم عند الغداء.وقال مجاهد:الأسير هو المحبوس،أي يطعمون الطعام لهؤلاء،وهم يشتهونه ويحبونه –لأنفسهم–قائلين بلسان الحال:"إنما نطعمكم لوجه الله"أي رجاء ثواب الله ورضاه،لا نطلب منكم مجازاة عليها،ولا أن تشكرونا عند الناس.وقال مجاهد وسعيد بن جبير:أما والله ما قالوا هذا بألسنتهم،ولكن علم الله به من قلوبهم،فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك غيرهم"انتهى .وكذلك يحظر الإسلام كافة أشكال التعذيب أو إهدار الآدمية أو التمثيل–إحداث جراح أو تشويه –بالأسرى،فذلك ممنوع فعله ولو بالكلب العقور،فما بالنا بالإنسان الذي كَرَّمه الله تعالى ؟! أين هذا النبل مما فعله و يفعله الآخرون المجرمون بأسرى المسلمين والمعتقلين في سجون إسرائيل و"أبو غريب"و"جوانتانامو"و"البوسنة"و "الشيشان"و"كشمير"،بل و سجون الطُغَاة العلمانيين أيضًا وغيرهم ؟!

و قد استشار عليه الصلاة و السلام أصحابه بشأن مصير الأسرى السبعين.فأشار أبو بكر رضى الله عنه بإطلاق سراحهم مقابل فدية،لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام فيما بعد.و أشار عمر رضى الله عنه بقتل الأسرى جميعًا،لكسر شوكة الكُفْرْ،و ردعًا لسائر مشركى الجزيرة،فلا يُفَكّر أحد منهم فى غزو المدينة بعدها.

و مال قلب النبى الذى أرسله رَبّه (رحمةً للعالمين) إلى إخلاء سبيل الأسرى.و دفع من كان غنيًّا منهم الفدية.و الفدية المالية التي يدفعها القادرون من الأسرى عادلة تمامًا.إذ أنه من المنطقي أن هؤلاء الذين يشَنُّون حربًا عدوانية،ويقتلون ويجرحون كثيرًا من

المسلمين ،ويدمرون البيوت والمزارع والمصانع،تقع عليهم وحدهم تبعة إصلاح ما أفسدت أيديهم الآثمة بغير حق.و حتى في عصرنا هذا،تعارفت الدول على أن الطرف المعتدي الذي أشعل فتيل الحرب هو الذي يدفع التعويضات عن كل ما سببه العدوان من أضرار و خراب.

ولما كانت الحرب في الإسلام دفاعية بحتة،والآخرون هم الذين يعتدون علينا دائمًا، فمن الطبيعي أن يدفعوا تعويضات مناسبة"فداء"مقابل إطلاق سراح أسراهم .

ومن هذه الفدية المالية يتم دفع تعويضات للأيتام والأرامل من أسر شهداء المسلمين،وكذلك إعادة بناء ما دمرته الحرب العدوانية من بيوت ومرافق عامة وغيرها.و هذا هو الحق و العدل بعينه.وأمّا الفقراء من الأسرى،فقد مَنّ صلى الله عليه و سلم عليهم (بالعفو بدون مقابل).و للإمام الشوكانى رضى الله عنه لفتة رائعة فى تفسير قوله تعالى: (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً)سورة محمد:٤ فقد فَسّر تقديم ذكر (المَنّ) أولًا بقوله:قدّمَ الله تعالى"المَنّ"أولًا لأنه (من مكارم الأخلاق)..و أحسن إمامنا العظيم،فما بعث الله رسوله الخاتم إلا لإتمام مكارم الأخلاق،كما جاء بالحديث

الصحيح.و هناك أيضاً مَكْرُمَة حضارية كُبرى غير مسبوقة فى تاريخ الإنسانية،هى إخلاء سبيل بعض الأسرى مقابل تعليم أطفال المدينة القراءة و الكتابة.ونلاحظ هنا أن الأسرى يحصلون على "الحرية"مقابل "العلم" للمسلمين.أى أن (نور الحرية مقابل نور العلم) فهل عهد الناس هذا قبل الإسلام؟! قوم يتخلصون من"ذل الأسر"مقابل آخرين يتحرّرُون من"ظلمة الجهل".. هل هذا تشريع من عند بشر ؟! و من الذي يحرص على تعليم أتباعه القراءة والكتابة ؟! إنه نبي أُميّ في أُمّة أُمّية !!بأبى و أُمّى هو،صلى الله عليه و سلم.و هكذا تم الإفراج عن مُعْظَمْ الأسرى،ثم نزلت آيات تُعَاتِبْ المصطفى على هذا،و تُخْبِرُه بأن المصلحة الراجحة كانت تُوجب إعدام هؤلاء الطواغيت أعداء الله و رسوله،و لولا عفو الله و سابق علمه و قضائه،لوَقَع على المسلمين فى قبول الفداء عذاب عظيم: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) سورة الأنفال.

و ربما حَدَثَ هذا الاجتهاد ، لتدريب الأُمّة على تطبيق الشورى-حتى لو وقعت أخطاء- فهى خير من الإستبداد بالرأى..و الله تعالى أعلم.

٤٤- حول إعدام مُجْرِمِى الحرب

رغم أن قاعدة المعاملة بالمثل هى إحدى البديهيات القانونية التي تتفق عليها كل المعاهدات الدولية والقوانين الإنسانية،فإن الله تعالى أعطى إمام المسلمين خيارين، لم يذكر سواهما في القرآن الكريم،هما المَنَّ أو فداء الأسرى.قال تعالى "فإمّا مَنًّا بعد و إمّا فِدَاء"الآية ٤ من سورة محمد.و كان عبد الله بن عمر والحسن البصري وعطاء بن أبي رباح يرون أن هذه الآية الكريمة: "فإمّا منًّا بعد وإمّا فداء" ناسخة للآية المُسَمّاة بآية السيف: (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)سورة التوبة:٥ ولذلك رفض ابن عمر أن يقتل أحد عظماء منطقة اصطخر،عندما أسره المسلمون وأرسلوه إلى ابن عمر مقيدًا.ويروي أبو عبيد في"الأموال"والجَصّاص في "أحكام القرآن"أن عبد الله بن عامر رضي الله عنه هو الذي أرسل إلى ابن عمر ذلك الأسير طالبًا منه قتله،فأبى ابن عمر رضي الله عنه إلا المَنّ على الأسير–العفو عنه–أو الفداء– إطلاق سراحه بمقابل–و يؤيّد كثير من العلماء–القدامى والمعاصرين–ذات الرأي السديد،خلافًا لرأي آخر يرى جواز قتلهم .

والواقع أنه يستحيل على عالم أو عاقل أن يقبل دعوى أن آية واحدة هي آية السيف المذكورة قد نسخت عشرات الآيات التي تدعو إلى السلم و الرحمة والمعاملة النبيلة لغير المحاربين لنا،بل والمحاربين الأسرى و الجرحى.كما يستحيل قبول فكرة أن الله "الرحمن الرحيم"يأمر نبيه الذي لم يرسله إلا"رحمةً للعالمين"بإعمال السيف في رقاب كل من يقابله من غير المسلمين،وقتل الأسرى والجرحى والنساء والأطفال والشيوخ غير المُحاربين.فهذا كله يتعارض مع آيات قرآنية قاطعة وأحاديث صحيحة ثابتة،وأفعال الرسول عليه السلام طوال عمره الشريف.وإذا كانوا يستندون إلى اثنين فقط-من أسرى بدر- أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلهما،فهو استدلال خاطئ،لأن الرسول أصدر حكمه عليهما بالإعدام باعتباره قاضيًا،وليس قائدًا عسكريًّا،عقابًا لهما على جرائم ارتكباها ضد الإسلام والمسلمين من قبل.فهما باصطلاح عصرنا من"مجرمى الحرب".و كُلّ الأُمَمْ-حتى الآن-تُحاكم و تُعاقب"مجرمى الحرب"بعد وقف القتال.وهذا هو الإستثناء الذي يثبت قاعدة"المَنّ أو الفداء"و لا ينفيها.إذ فى المقابل،عفا الرسول عن عشرات من الأسرى في "بدر"ثم ألوف غيرهم فى فتح مكة وبعد غزوات بدر وحنين وبني المصطلق وغيرها من المواطن،كما سيأتى بحول الله .

وبالإضافة إلى ابن عمر والحسن البصري وعطاء يقول ابن كثير عن آية المَنّ أو الفداء: أكثر العلماء يرون أنها ليست بمنسوخة.و قالوا إن الإمام مخيَّر بين المَنّ على الأسير– أي إطلاق سراحه بدون مقابل–أو الفداء–أي إستبداله بأسرى المسلمين،أو

مقابل مال،أو حتى تعليم بعض المسلمين حرفة نافعة أو القراءة والكتابة،كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع أسرى بدر.ويؤكد أصحاب هذا الرأي الوجيه أن الإمام ليس له أن يقتل الأسرى طبقًا لهذه الآية،فهي صريحة في النص على المَنّ أو الفداء فقط،ولا ثالث لهما.و هذا يعني بوضوح –كما يرى كثير من العلماء– أنه لا يجوز له استرقاق الأسرى أيضاً.بل ذكر الإمام البيضاوى فى تفسيره"أنوار التنزيل وأسرار التأويل"صراحة أن الآية نسخت الاسترقاق.ونلاحظ أن الآية العظيمة بدأت أولًا بذكر "المَنّ" قبل "الفداء"،مما يشير إلى أفضلية ذلك التصرف النبيل بإطلاق سراح أسرى الأعداء بدون مقابل، ففي ذلك إظهار لنبل وسماحة الإسلام.و قال الإمام الرازى فى تفسيره:"وتقديم المَنّ على الفداء إشارة إلى ترجيح حُرْمَة النفس على طلب المال"

.وكثيرًا ما كان المَن سببًا في إسلام الأسرى الذين أيقنوا أن هذا النبل والتسامح دليل قاطع على أن الإسلام هو الدين الحق ، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقًا وصدقًا،و ليس من ملوك الدنيا الذين يريدون العلو في الأرض أو الإفساد.والمثال الواضح لذلك قصة ثمامة بن أثال الحنفي – سيد قومه الذي أسره المسلمون وربطوه في المسجد. وكان عدوًا شديد الضراوة في الفتك بالمسلمين المارين بمنطقته.و مر به الرسول عليه الصلاة والسلام وهو مربوط بأحد أعمدة المسجد،فأمر بإطلاق سراحه.وعلى الفور انطلق ثمامة إلى ماء قريب،فاغتسل وعاد ليشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وصار بعد ذلك من أخلص أنصار الإسلام والمسلمين.كما روى البخاري وغيره حديث:"فكوا العاني"-يعني الأسير - وهو أمر نبوي شريف لا سبيل إلى المجادلة في دلالته الواضحة والقاطعة على وجوب تحرير الأسرى كمنهج إسلامي ثابت.و عند البخارى أيضًا أن رجلًا سأل عليًّا عن الصحيفة التى عنده،فأقسم أنه ليس فيها إلا"العقل-أى الدِية-و(فكاك الأسير) وألا يُقتل مسلم بكافر"و على هذا فمن المقطوع به أن إطلاق سراح الأسير كان من أهم وصايا النبى عليه السلام .

و نقل الإمام البغوى قول ابن عباس رضى الله عنهما ": لمَّا كَثُرَ المسلمون و اشتدَّ سُلْطَانُهم،أنزل الله المَنَّ والفداء"..ويؤيد الإمام البغوى رضى الله عنه-فى تفسيره معالم التنزيل–مذهب العفو عن الأسرى أو مبادلتهم بأسرانا.و روى الإمام الشافعى،رضى الله عنه،أن النبى صلى الله عليه وسلم حرّرَ رجلين من ثقيف أسرهما المسلمون مقابل إطلاق سراح أسير مسلم كانوا يحتجزونه..وكذلك أعتق النبي جارية من قريش نظير إطلاق سراح عدد من أسرى المسلمين بمكة.

٤٥ - غزوة بنى قينقاع

التزم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه دائمًا بأحكام الوثيقة أو صحيفة المدينة،فلم يصدر عنهم أى تصرف مخالف لها.و لم تقع انتهاكات أو حوادث تعكر الصفو داخل المدينة،و لا منازعات بين رعاياها من الفرق الثلاث-المسلمين و مشركى المدينة واليهود-عامين كاملين.والذى حدث أن اليهود هم الذين أبوا إلا الغدر و نقض النصوص التى وافقوا عليها من قبل.وهذا هو دأبهم على مدار التاريخ كله ! فقد

جابهوا المسلمين بالحقد ،وإظهار غيظهم وحسدهم بعد الانتصار فى غزوة"بدر"و

مما قاله بنو قينقاع صراحة فى ذلك،بأسلوب استفزازى سافر:"يا محمد.لا يغرنّك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب،فلو حاربتنا لتعلمنّ أنّا نحن الناس"! ثم زادوا على ذلك بالتحوّل من مجرد التطاول بالكلام إلى انتهاك حرمة سيدة فاضلة من نساء الأنصار المسلمات العفيفات.و تروى مراجع السيرة العطرة أن بائعًا من يهود بنى قينقاع انتهز فرصة جلوس الصحابية فى السوق،و غافلها و ربط ثوبها من الخلف إلى حجر،فلمّا قامت من مكانها انقطع ثوبها،وانكشف جسمها وسط قهقهات اليهودى و من معه! و هذا التصرف الإجرامى فى بيئة عربية وإسلامية أبيّة عزيزة طاهرة كفيل باندلاع قتال شرس حفاظًا على العرض.و كم من معارك طاحنة فى الجاهلية استمرت سنوات،و سقط فيها من القتلى والجرحى العشرات بل المئات،دفاعًا عن الشرف العربى الذى يهون دونه كل شيء آخر.و يروى المؤرخون أن الصحابية صاحت مستنجدة برجل مسلم،فثار الأخير و قتل اليهودى الفاجر انتقامًا لأخته،و تكاثر اليهود على المسلم الحرّ و قتلوه،و بذلك أشعلوا نار الفتنة و شرارة حرب أهلية مدمّرة توشك أن تعصف بكيان المدينة بأسرها.و عندما حذّرهم النبى صلى الله عليه وسلم من عواقب البغى والخيانة و نقض العهود،تطاولوا عليه و هدّدوه كما رأينا ،ثم تحصّنوا داخل قلاعهم ،واستعدوا بما لديهم من سلاح و عتاد لبدء القتال ضد المسلمين! فماذا يمكن أن يفعل رئيس الدولة فى مثل هذه الظروف ؟! بالقطع ليس من الحكمة و لا من حسن السياسة السكوت على هذا الخرق الصارخ للدستور،و هذا التهديد الخطير لأمن الدولة الناشئة،و لا يمكن ترك مثيرى الفتنة و دعاة الحرب الأهلية ليفعلوا ما شاءت نفوسهم الخبيثة المجرمة،فى ظل ثورة أفراد قبيلة السيدة المسلمة التى انتهكت حرمتها وأهينت كرامتها،إذ لن يهدأ لهم بال أو يغمض لهم جفن حتى ينتقموا لها و للشهيد الذى قتله اليهود.و رغم كل ذلك لم يبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بقتال بنى قينقاع البُغاة،وكان حريصًا كل الحرص على حقن الدماء ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.و اكتفى عليه الصلاة والسلام بحصارهم،إلى أن يثوبوا إلى رشدهم،و ينزلوا على حكم الله العادل فى أمثالهم.و بالفعل لم يتحمّل المجرمون الحصار أكثر من أسبوعين، وأيقنوا أنهم لن يهنأ لهم عيش بالمدينة

بعد فعلتهم النكراء تلك،فأرسلوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم،يطلبون السماح لهم بالخروج من المدينة بسلام،وأجابهم إلى ما طلبوا،و تم توفير ممر آمن لهم،فخرجوا إلى منطقة "أذرعات"على حدود الشام،حاملين معهم كل ما استطاعوا من أموالهم،بإستثناء السلاح،منعًا لهم من التفكير فى ارتكاب أية حماقة مُجَدّدًا . و بذلك وقى الله الدولة الوليدة شرًّا مُستطيرًا سبّبه بنو قينقاع. ونلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحكم بقتل أحد منهم،لأن النزاع قد تم حَلّه باستسلامهم و جلائهم،و بهذا يسّر الله تعالى احتواء الموقف المُلتهب بأقل قدر من الخسائر.

٤٦- إعدام كعب بن الأشرف

يُثِيرُ علمانيون-فى هذا الزمان-الغبار حول بعض وقائع السيرة العطرة،و منها مقتل الشاعر اليهودى الماجن"كعب بن الأشرف".وبلغ السفه والإجرام والضلال بأحد الإعلاميين العلمانيين المصريين حَدًّا جعله يتطاول على المقام الشريف،زاعمًا أن قتل الشاعر اليهودى كان قمعًا لحرية الرأى فى المدينة!ولا أفهم:لماذا يفضح إعلامى جاهل نفسه،ويهذى بما لا يدرى! فاختصاصه و عمله طوال عمره بمجلة"فنية"أى مطبوعة لنشر أخبار المُمثلات والمُغنّيات والراقصات،فما شأنه بالسيرة،أو أحكام الشريعة؟!ولماذا لم يسأل أحدًا من العلماء،قبل أن يتطاول بجهل و سفه على المقام النبوى الشريف؟!و كما يفعل كثيرون فى هذا الزمان،فقد خاض المارق الجاهل فى قصة الشاعر اليهودى كعب بن الأشرف بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير!والثابت من مراجع السيرة العطرة أن هذا الكافر المُجرم لم يُقْتَل لمجرد تطاوله بشعره البذىء السافل على الإسلام وأعراض المسلمات فقط،وإنما خَرَقَ أيضا نصوص دستور أو معاهدة المدينة،التى وافق عليها مع قومه اليهود بعد الهجرة الشريفة.و منها نصوص صريحة على أن:(أن بينهم النصر على من دَهَمَ يثرب) و(ألا يغادر أحد المدينة بدون إذن النبى عليه الصلاة والسلام) وألا يُجِيرَ أحدًا من قريش،أو يحمى مصالحها ضد المسلمين. وفى حالة النزاع يكون الإحتكام إلى النبى بصفته قاضيًا.و قد أهدر اللعين كل هذه النصوص،و ذهب إلى مكة،ليُحَرّض المشركين و قبائل العرب على قتل و قتال المسلمين،واتفق معهم على أن يهيىء لهم طريقًا للدخول إلى يثرب من الناحية التى يسكن فيها.وبذلك يكون قد ارتكب ما نسميه بلغة عصرنا جناية (الخيانة العظمى) التى تُعاقب عليها التشريعات الوضعية فى أغلب الدول بالإعدام.و قد أصدر النبى صلى الله عليه وسلم حكمه عليه -بصفته قاضيًا-و قام بتنفيذ الحكم عدد من الصحابة الأخيار العدول،بقيادة البطل محمد بن مسلمة،رضى الله عن الجميع و رضوا عنه.فهى مُحَاسَبَة على جريمة خيانة عظمى ثبت-بأدلة قاطعة-أنه ارتكبها،لا أكثر ولا أقل.ثم نسأل:و لو سَلَّمْنَا-جدلًا بأن سبب الإعدام كان هو الشعر السافل البذىء،فهل يقبل هذا العلمانى أو غيره،أن ينشر أحد شعرًا أو نثرًا يتهم فيه أمه أو أخته أو ابنته أو زوجته بالزنا،أو أن يصف أعضاء جسد واحدة منهن؟! ألا يعلم أن هذا الأمر تثور بسببه حروب طاحنة تأكل الأخضر واليابس،فى بيئة عربية أصيلة مُحافظة،تهون الحياة فيها صونًا للعرض،إن مَسّهُ أحد بأذى أو شائبة؟!و فضلًا عن هذا فقد حَقَنَ الرسول صلى الله عليه وسلم دماءً كثيرة،كانت على وشك أن تسيل أنهارًا فى المدينة،إذا استمر هذا الشاعر الداعر فى طعن أعراض المسلمات والتشهير بهن،و كانت قبائلهن توشك أن تجتاح كعباً و قبيلته كلها،ثأرًا للأعراض،فاستبق النبى صلى الله عليه وسلم الفتنة بحكمته،و حال دون إندلاع حرب أهلية مُحَقَّقَة.و لم يكن هناك سبيل سوى معاقبة من ارتكب

الجرم وحده،قبل أن يدفع الغضب العارم أهالى الضحايا إلى عقاب جماعى،يمتد إلى جميع أقارب الجانى،كما هو الحال فى مثل هذه الظروف بالغة الحرج والحساسية،التى لا تحتمل أى تَرَدّدْ أو تأخير فى إطفاء الحريق.

٤٧ – غزوة السُويق

بعد الهزيمة الساحقة فى"بدر"نَذَرَ أبو سفيان بن حرب ألّا يَمَسّ الماء جسده (لا يغتسل مِنْ جِمَاعٍ أو غيره) حتى ينتقم من المسلمين.و جمع مائتين من المُقَاتِلِين،و شَنّ بهم غارة على المزارع فى ضواحى يثرب،و قَتَلَ رجلين من الأنصار كانا يعملان فى بستان لهما،و أحرق مساحة كبيرة من زراعات النخيل،ثُمّ انصرف هاربًا،قبل قُدُوم جيش المسلمين.و وصلت أنباء الغارة إلى المدينة،فخَرَجَ الرسول صلى الله عليه و سلم بمَنْ كان حاضرًا من أصحابه لمُطَارَدَة المُعْتَدِين،لكنهم أفلتوا قبل اللحاق بهم.و لكى تكون حركتهم أخف فى الهروب،تخلّص الكُفّار من مُعْظَم ما كانوا يحملون من الطعام،و خاصة "السُوَيْقْ"و هو الطحين من الحنطة أو الشعير الذى يُصنع منه الخُبْزْ،و لهذا سُمّيت "غزوة السُوَيْقْ".و تجدر الإشارة هنا إلى أن مُعْظَم من كتبوا عن السيرة العطرة من الخصوم قد تجاهلوا،تمامًا،ما فَعَلَه "أبو سفيان"من قتل المدنيين و حرق النخيـــــــــــــــــــــــــــــــل !!

و لو كان المسلمون هم مَنْ فَعَلَهَا،لأقام المُجْرِمُون الدنيا و لم يُقْعِدُوها،على غرار ما فعلوا بشأن سرية عبد الله بن جحش -كما تَقَدّم-و مواضع أُخْرَى كثيرة!!و هذا هو شـــأنهم دائمًـــا،أى انعـــدام الإنصـــاف،والإفتقار إلـــى الأمانـــة العلميـــة !!

و قد شَهِدَ العام الثانى من الهجرة أيضاً غزوات صغيرة،هى"الأبواء"و"بنو سليم"و"ذو أمر"أو غزوة"غطفان"و "قرقرة الكدر"- و كُلّها أسماء أماكن أو قبائل بالجزيرة العربية-ولم يحدث فى أى منها قتال.كما نزلت فى هذا العام آيات كثيرات بتشريعات،مثل إباحة القتال دفاعًا عن الدين و النفس و العرض و المال،و فرض الصيام و زكاة الفطر ..و ذَكَرَ الإمام ابن كثير رضى الله عنه أن فرض زكاة المال و بيـــان أنواعهـــا و مقاديرهـــا كـــان فـــى العـــام الهجـــرى الثـــانى أيضًـــا.

و فى هذا العام دَخَلَ صلى الله عليه و سلم بزوجته السيدة عائشة بنت أبى بكر الصِدّيق.و كان قد تزوّج قبلها السيدة سَوْدَة بنت زَمْعَة،بعد وفاة السيدة خديجة،رضى الله عن الجميع.

٤٨- سِن السيدة عائشة عند الزواج

حاول المستشرقون فى زماننا إثارة ضجة حول عمر السيدة عائشة عندما تزوجها النبى صلى الله عليه و سلم،و راحوا يتصايحون:كيف يتزوج محمد طفلة فى التاسعة من عمرها ؟ و يُمكننا الرد على هذه الشبهة من أوجه عديدة:

-لم يتحدّث أحد من مشركى مكة و يهود المدينة و المنافقين عن هذا الأمر،رغم حرصهم الشديد على اصطياد أدنى هفوة،للتشهير بالنبى صلى الله عليه و سلم.و هذا يدل على أنهم لم يجدوا فى زواجه بالسيدة عائشة شيئا منكورًا،وأنها كانت فتاة ناضجة صالحة للزواج،و ليست طفلة كما يزعم الخصوم الآن.

-كانت السيدة عائشة مخطوبة قبل النبى صلى الله عليه و سلم لجبير بن المطعم بن عدى.و عندما أسلم أبو بكر خاف المطعم و زوجته أن يعتنق ابنهما دين صهره،فأصرّا على فسخ الخطبة،فأبدلها الله خيرًا منه،بالزواج من سيد ولد آدم أجمعين.

-كانت السيدة عائشة سعيدة مع زوجها عليه الصلاة و السلام،و غيرتها الشديدة المشهورة-على زوجها-هى غيرة الأنثى الناضجة.

و كانت تزهو و تفخر دائما على باقى نسائه بحبه لها و مكانتها و حظوتها عنده..فهل تفعل هذا طفلة ؟!

-كان عمر السيدة مريم ١٢ سنة عندما ولدت طفلها عيسى عليه الصلاة والسلام،و كان عمر خطيبها المزعوم-يوسف النجار-قد تجاوز التسعين.و كانت السيدة هاجر صغيرة،و كان أبونا إبراهيم،قد بلغ ٨٠ سنة عندما أنجبت له إسماعيل عليهما السلام..فإن احتجّوا بأن هذه كانت من المعجزات،فإن عليهم-بذات المنطق-قبول أن السيدة عائشة كانت معجزة أيضا.

- حتى الآن،تسمح قوانين دول كثيرة،منها الولايات المتحدة الأمريكية بزواج الفتيات فى سن مُبكّر.ففى ولايتى"كنساس"و"ماساتشوستس"يسمح القانون بالزواج عند بلوغ١٢سنة فقط..بل إنه فى ٢٧ من الولايات الأخرى لا يوجد حد أدنى لسن الزواج،فيمكن أن تتزوج الصغيرة و لو دون العاشرة أو الثامنة أو السابعة،بشرط موافقة الوالدين و المحكمة المحلية.كما تذكر إحصاءات حديثة أنه من بين كل ٩ زوجات فى العالم،تتزوج واحدة على الأقل تحت ١٥سنة.و كثيرات منهن تزوجن فى سن العاشرة و ما دونها.

-ملايين الفتيات فى كل العالم،خاصة المناطق الحارة،مثل جزيرة العرب،يبلغن المحيض تحت سن العاشرة.و من يبحث على الانترنت مثلا،تحت عنوان"أصغر أم فى العالم"سيرى العجائب فى كل أنحاء الأرض،حتى فى البلاد الباردة.و ذكر الإمام

الشافعى أنه عندما زار اليمن،وجد هناك ظاهرة منتشرة،هى أن كثيرا من الفتيات يأتيهن الحيض،دون سن التاسعة.و تؤكّد الأبحاث العلمية الحديثة أن تلوث البيئة واستخدام الهرمونات والكيماويات والإشعاعات النووية سوف تتسبب فى زيادة مستمرة فى أعداد الفتيات البالغات فى سن أقل من ٦ و ٧سنوات.أى أن نطاق ظاهرة البلوغ المُبكّر فى اتساع مستمر و ليس العكس.
-لم تكن هناك سجلات رسمية لتسجيل المواليد فى تلك الأزمنة القديمة،و لهذا يختلف المؤرّخون حول أعمار الشخصيات التاريخية.والمثال الصارخ هنا هو الخلاف الحاد - القائم حتى الآن-حول تاريخ ميلاد السيد المسيح،فيحتفل بعض النصارى بمولده فى ديسمبر،وآخرون يحتفلون به فى يناير..إلخ.

-كان لصغر سن السيدة عائشة حكمة كبرى،فقد عاشت بعد وفاة النبى حوالى ٥٠ سنة،و كانت ذات ذكاء حاد،
و ذاكرة فولاذية،فحفظت ألوف الأحاديث النبوية الشريفة و روتها للأُمّة،و كان أكابر الصحابة والتابعين يتعلّمون منها..و فى دواوين كُتُب السُنّة أكثر من ألفى حديث رُويت عنها وحدها،و هذا أضعاف ما روته باقى أمهات المؤمنين مُجتمعات،فقد كانت أصغرهن،و لهذا حفظت أكثر منهن،مصداقًا لمقولة الحسن البصرى:"التعليم في الصغر كالنقش على الحجر"رضى الله عن الجميع.

٤٩- مجلس شورى أُحُد

فى شوال من العام الثالث بعد الهجرة،خرجت قريش بجيش قوامه ثلاثة آلاف مُقاتل، للثأر لقتلاها فى"بدر"والقضاء على المسلمين بزعمهم.و عَسكَروا بقيادة أبى سفيان بن حرب إلى جوار جبل"أُحُدْ"خارج المدينة مُبَاشَرَة.و فور علمه بالأمر عقد المُصطَفَى صلى الله عليه و سلم إجتماعًا طارئًا،شارك فيه مُعْظَمْ أهل يثرب لتدارس الموقف.و هنا أيضاً ضَرَبَ صلى الله عليه و سلم أعظم الأمثال فى تطبيق الشورى،و احترام رأى الأغلبية،وإن تعارض مع رأى النبى الذى يُوحَى إليه من السماء! و كان صلى الله عليه و سلم قد رأى فى منامه ما تفسيره أن عددًا من أصحابه سينالون شرف الشهادة،وأن الاحتماء بالمدينة وإتخاذ مواقع دفاعية بداخلها أفضل و أشدّ على العدو.و لهذا اقترح البقاء فيها لاضعاف المُشركين.لأنهم لو ظَلّوا فى معسكرهم خارج المدينة،سيتسلّل التعب والإرهاق واليأس إلى نفوسهم بمرور الوقت،فضلًا عن تعطيلهم عن التجارة التى هى مورد رزق معظمهم،فيُصابون بخسائر مالية فادحة بلا مُقَابل،و هكذا سَيُضْطَرّون إلى الإنسحاب حتمًا بعد فترة..أمّا لو هاجموا المدينة فسَيُجْبَرُون على التَفَرّقْ فى شوارعها و أزِقّتها،التى لا يعرفونها،و لن يجدوا أمامهم من يُقَاتلون-وجهًا لوجه-و سيكون من السهل على السُكّان نصب الكمائن للغُزَاة،و اصطيادهم،برمى السهام والأحجار عليهم من فوق أسطح المبانى،فتكون خسائرهم البشرية أضعافًا مُضاعفة،بالقياس إلى خسائر المقاومين من أهل يثرب.و سوف يستحيل عليهم البقاء داخلها ليلًا،أو الحصول على أى قسط من الراحة،وإلا تم قتلهم أو أسرهم جميعًا،واحدًا تلو الآخر.و فى حالة التراجع مع حلول الظلام،ستكون أيضًا فرصة لمهاجمة مؤخرتهم من الخَلْف.و كان والله نعم الرأى،و لكن قَدّرَ الله و ما شاء فعل.فقد هاج أغلب الحاضرين،و خاصة من لم ينالوا شرف القتال فى"بدر"و طالبوا بالخروج لمُلاقاة الجيش المُعْتَدِى خارج المدينة،مهما تَكَلّفَ الأمر من تضحيات.والواقع أن النخوة العربية الأصيلة،و حماس الشباب قد تَغَلّب على صوت الحكمة والتخطيط الحربى السليم،ليقضى الله أمرًا كان مفعولًا.و أحسب أن إستجابة الرسول صلى الله عليه و سلم لمطلبهم،جاءت لرغبته فى تعلّيم الأُمّة-من بعده-احترام نتائج الشورى،و ترجيح رأى الأغلبية مهما حدث.و بعد قليل شعر هؤلاء بتأنيب الضمير،لأنهم خالفوا رغبته عليه الصلاة والسلام.ويبدو أنه قد اتضح لكثير منهم-بعد إعادة التفكير بهدوء-أن الصواب هو ما اقترحه عليه السلام،من الاكتفاء باتخاذ مواقع دفاعية بالمدينة،لإرهاق جيش الكُفّار،فعادوا إليه يلتمسون منه العدول عن الخروج،و تطبيق رأيه،لكنه عليه الصلاة والسلام كان قد ارتدى ثياب الحرب،وأخبرهم أنه لا يجوز لنبى إذا استعد للقتال أن

يتراجع ،إلى أن يحكم الله بينه و بين عدوّه.و هنا نتعلّم درسًا آخر،هو عدم التذبذب،و ثبات القائد-فى مثل تلك المواقف-حتى لا يحدث اضطراب و بلبلة للرأى العام،و تأثير سلبى على معنويات الجنود،بالقرارات السريعة المُتناقضة.و خرج عليه الصلاة و السلام بأصحابه من طريق آخر غير مألوف،لمُفَاجأة العدو،و اتخاذ موقع مُناسب قبل بدء القتال.و قد تراجع زعيم المُنافقين عبد الله بن أبُىّ بن سلول-لعنه الله-بثلث القوات،غاضبًا من إستجابة النبى لرأى الأغلبية،و عدم الأخذ برأيه الشخصى فى البقاء بالمدينة..لكن هذا لم يُؤثر على معنويات الباقين.و واصل الرسول صلى الله عليه و سلم السير،حتى نزل بالمسلمين إلى جوار جبل"أُحُدْ"و كانوا سبعمائة فقط،أى أن عدد جيش المُشركين كان أربعة أضعاف عدد المسلمين.و هكذا كان الحال فى كل المعارك الكبرى فى تاريخ الإسلام.فالنصر مِن عند الله،بالعقائد لا بالأعداد.و صَدَقَ الله العلىّ العظيم: (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإذْنِ اللَّهِ واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ). سورة البقرة 249

50-خطـأ الرمـاة

وَضَعَ الرسول صلى الله عليه و سلم خطـة عسكرية مُحْكَمَة.فقد عَسْكَر بـالجيش فـى موقع جيّد،و جعل ظهره إلى جبل"أُحُدْ"ليُشَكّلَ هذا حماية و تحصينًا طبيعيًا للمـؤخرة ،و أمر خمسين من الرُمَاة الماهرين،بقيادة عبد الله بن جبير،رضـى الله عنه،بالمُرَابَطَـة فـى مكان مرتفع،للتصدّى لمن يُحَاول التسلّل مِنْ المُشْرِكِين خلف خطوط المُسلمين،و رشقهم بالسهام والحجارة.و نهاهم صلى الله عليه و سلم عن ترك المكان لأى سبب كـان، مهمـا كانت تطورات المعركـة سلبًا أم إيجابًـا.و كـان هـذا تخطيطًـا عبقريًا،شـهد لـه الخبـراء العسكريّون حتى من غير المسلمين.و نجحت الخطة فى بداية المعركـة،و فشـل فرسـان قريش فى الاقتراب من مُؤخّرة الجيش بسبب بسالة الرماة.وقد كان مع المُشْرِكِين ٢٠٠ مـن الفرسـان،و لـم يكـن مـع المسـلمين مـن الخيـل شـىء،فهم جميعًـا من"المُشَـاة"بلغة عصرنا.و رغم التفوّقْ العددى لقريش-و فـى العتـاد أيضًـا-كـان تفـوّق أبطـال الإسـلام واضحًا منذ بداية المعركة،و سقط ٢٢ قتيلًا من الكُفَّار،منهم حامل اللواء-و كان من بنى عبد الدار-و تَسَبّب سقوطه قتيلًا،و سقوط لواء الشِرْكْ،فى إثارة الرُعْبْ فى قلوب خاليـة من العقيدة،فأطلقوا سيقانهم،يُسـابقون الرياح،هـاربين فـى إتجـاه مكـة،و كانـت الهزيمـة الساحقة-للمَرّة الثانية-قاب قوسين أو أدنى.و بدأ بعض المسلمين بالفعل فى جمع الغنـائم التى تَرَكَهَا المُشْرِكُون وراءهم..و هنا ارتكـب الرُمَـاة المُرَابِطُـون بـأعلى الجبـل الخطـأ القَاتِل،الـذى تَسَبّب فـى انقـلاب النتـائج رأسًـا علـى عقب.فقد طمـع أغلـب الرُمَـاة فـى الغنائم،رغم أن النبى صلى الله عليه و سلم هـو الـذى يُقَسّـمَهَا بـين الجميـع،على سـبيل العدالـة والمسـاواة،كما أمـره ربـه.و لا فضـل لمَـنْ يَجَمَعهَـا علـى مَـنْ دَافَـع عـن ظهـر الجيش،و لا على مَنْ يحمون النبى،فالكل له دوره الضرورى،و له نصيبه من الغنائم،و توزيع"الأنفال"يتم بنظام دقيق،أنزله الله تعالى بآيات مـن فـوق سـبع سـماوات.لكن حُـب المال أغرى مُعْظَم الرُمَاة،رغم تحذير قائدهم عبد الله بن جبير لهـم مـن عصـيان أوامـر الرسول صلى الله عليه و سلم،و تعليماتـه بالبقـاء فـى الموقع،سـواء انتصـر الجـيش أم هُزِمْ.و لم يبق مع ابن جُبَير سوى عشرة فقط.و على الجانب الآخر كان خالد بـن الوليـد قائـد فرسـان المُشـركين يُراقـب الموقـف،و لاحـظ نـزول معظـم رُمـاة المسـلمين مـن أعلى،فانتهز الفرصة السانحة،و انقض بفرسـانه المـائتين،على المسـلمين مـن الخلـف.و رغم بطولة بن جبير و العشرة الذين ثبتوا معه،فقد عجزوا عن صَـدّ هـذا العـدد الكبيـر من الفرسان،و قاتلوا جميعًا حتى نالوا شرف الشـهادة..والنتيجة الطبيعيـة فـى مثـل هـذا الموقـف العصـيب،هى حـدوث حالـة مـن الفوضـى و الإضـطراب فـى صـفوف المسـلمين،الذين حُوصـروا بـين الفرسـان القـادمين مـن الخلـف،و بـين بـاقى جـيش الكُفّار،الذى كَرّ عائدًا،بعد أن تم إختراق صفوف المسلمين،عبر الثغرة التى خَلّفَهَا تَخَلّى الرُمَاة عن موقعهم.و قاتل الرسول صلى الله عليه و سلم،و معـه عشـرات مـن أصـحابه

ثبتــوا حولــه يحمونــه بأجسادهم،واستشــهد كثيــرون منهم،بعــد أن تلقّــوا الســهام و الطعنات،بدلًا منه عليه الصلاة والسلام.واستبسل دفاعًا عنه طلحة بـن عبيـد الله و سـعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام و"أبو دجانة"سَمّاكْ بن خَرْشَة وأبو عبيدة بـن الجـراح و على بن أبى طالب و سعد بن مُعاذ و قتادة بن النعمان و مالك بن سنان و غيرهم.كما قاتل أسد الله و رسوله"حمزة بن عبد المُطَلِبْ"و مُصْعَب بـن عُمَيـر وأنـس بـن النضـر-حتــى استشــهادهم -ضــمن ســبعين مــن ســادات الصــحابة،كَتَبَ الله لهــم الشــهادة فى"أُحُدْ"رضى الله عنهم و رضوا عنه.وحتى النساء،كانت منهن مَنْ سَجّلَتْ-بدمائها-أروع صـفحات البسـالة و الفِـدَاء،فى وقـت الشِـدّة.فقد قاتلـت أُمْ الأبطال"نُسَـيّبَة بنـت كعب"الأنصارية،رضى الله عنها،دفاعًا عن نبيها،و تلقت الطعنـات فـى جسدها،لتفتديه بنفسها،و نجحت مع عـدد قليـل مـن الرجـال فـى حمايـة و تـأمين الرسـول،بعد إصـابته بجـراح بالغـة،و صـعدوا بـه إلـى موقـعِ أكثـر تحصـينًا،بأحد الأمـاكن المرتفعـة مـن الجبل،وسـط شـائعات أطلقهـا المُجرمـون عـن مقتلـه..لكن الصـحابى الجليل"كعـب بـن مالك"عَرَفَهُ من نور عينيه الشريفتين الجميلتين،المُشْرِقتين تحـت القنـاع،و صـاح كعـب مُبَشّـرًا المسـلمين بـأن الرسـول صـلى الله عليـه و سـلم حَـىّ يُرْزَق،فارتفعـت الـروح المعنوية،لمَنْ كَانوا قد ضعفوا أو تراجعوا،و سارعوا إلى الاحتشـاد،و تنظـيم الصـفوف مَرّة أُخْرَى،لمواجهة المُشرِكِين،بإيمان كالجبال الرواسى،و عزائم مِنْ حَدِيدْ .

51- الله أعلى و أَجَلّ

تمَكّنَ المسلمون مِنْ صَدْ الهجوم المُضَاد..و تراجع المشركون دون تحقيق نصر حاسم..فرغم استشهاد ٧٠ بطلًا،بقى أضعافهم،و حفظ الله نبيّه و وزيريه-الصِدّيق و عمر-و غيرهما من كبار الصحابة،لأنه سبحانه و تعالى،يدّخَرَهُم لأدوار كبرى فيما بعد.و قد ارتكب المُجرِمِون فظائع قبل انسحابهم،ظلّت عارًا و فضيحة،يستحيل محوها من سجلات التاريخ،و هى التمثيل بأجساد شهداء المسلمين.و وصل الحقد المسعور بهند بنت عُتْبَة إلى درجة بقر بطن الأسد الشهيد"حمزة"و محاولة مضغ قطعة من كبده،لكنها لفظتها من فمها لمرارتها !و كذلك جدعوا أنف عبد الله بن جحش،و قطعوا أطراف آخرين من الشهداء.و يكفى أن المسلمين تَعَفّفُوا فى"بدر"و فيما بعد-بل دائمًا-عن ارتكاب مثل تلك الأفعال الدنيئة..فالمسلم الحَقّ فارس شريف،لا يغدر و لا يَمْثُل و لا يتشفّى إذا انتصر.و قد دفن المسلمون قتلى المُشركين السبعين فى بدر،مراعاة لحرمة الجسد الإنسانى،و لم تقع حالة تمثيل واحدة بالجثث،على مر التاريخ الإسلامى- ١٤ قرنًا – فقد نهى الرسول صلى الله عليه و سلم عن"المُثلة"و لو بالكلب العقور..و رفض عليه الصلاة والسلام قطع لسان"سُهيل بن عمرو"أحد أسرى بدر،الذى كان يهجوه،و قال: (لا أمثُل فيمثُل الله بى و إن كنت نبيًا) رواه ابن إسحاق و الحاكم..و قال لعمر بن الخطاب صاحب الاقتراح: (لعلّه يقوم مقامًا لا تَذُمّه) رواه ابن إسحاق.و بالفعل أسلم سُهيل فيما بعد،و صار من ألسنة الإسلام و خطبائه المعدودين.و هناك أحاديث صريحة قاطعة تنهى عن قتل النساء والأطفال و الرُهبان والمدنيين غير المُحاربين،كما تحظر حرق الزرع أو تخريب أو هدم بيوت عبادة أهل الذِمّة و مساكن الخصوم..إلخ..و كان أصعب المواقف فى حياة النبى صلى الله عليه و سلم عندما وقف على جسد

عمه الشهيد،و رأى ما صنع به الحاقدون المسعورون.لكن الله تعالى أنزل عليه بعد ذلك آيات خالدات،تأمر بالعدل فى العقاب،و تُرشد المسلمين إلى أن الصبر و ضبط النفس أفضل،وأن الترَفّع عن مُشابهة الكافرين أجدر بهم.و قد حاول "أبو سفيان"زعيم المشركين التنصّل من عار التمثيل بالجُثَثْ،فقال فى مُساجلته مع الفاروق عمر،عقب المعركة :"ستجدون مُثْلَة لم نأمر بها ،و لم نكرهها"! أى أنه رغم مُحاولة التَهَرّب من الفضيحة،يأبى إدانة هذا التصرف المُشين !و نُلاحظ هنا أيضًا أن خصوم الإسلام مِن المُؤرخين لم يذكروا شيئًا عن هذه الفظائع ،والسبب بالطبع هو أن مَنْ ارتكبوها ليسوا من المسلمين! و من الخطأ البالغ تسمية ما جرى فى"أُحُدْ"بالهزيمة،بل هو انتصار للمنهج-كما وصفه العَلّامَة الشعراوى رحمه الله-لأن عصيان الرُماة لأمر النبى سبب لعدم التوفيق (انتهى).والحق أنه لم يكن مقبولًا و لا معقولًا أن يُخالف البعض أمر النبى صلى الله عليه و سلم،و مع هذا يتحقّق لهم النصر،و كان لابُدّ من الدرس القاسى،لتتعلّم الأُمة بأسرها إلى يوم القيامة أن الخير و الفلاح فى طاعة الله و رسوله،وأن المعصية لا نتيجة لها غير الخيبة و الخسارة فى الدارين.ثم أن المشركين خسروا فى"بدر"سبعين قتيلًا و سبعين أسيرًا،أى ضعف عدد شهداء المسلمين فى"أُحُدْ"،و انصرفوا دون تحقيق الهدف الأساسى،و هو القضاء على النبى و من معه.و يؤيد رأينا هذا أنهم أفاقوا فى طريق العودة إلى مكة،و قال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئًا..تركتموهم و لم تبتروهم-تقضوا عليهم-فقد بقى منهم رؤوس يجمعون لكم.فلنرجع لنستأصل بقيتهم..لكن معبدًا الخزاعى-و كان لم يزل مُشركًا فى ذلك الوقت-مَرّ بالمسلمين الذين تَجَمّعُوا فى منطقة"حمراء الأسد"رغم جراحهم،لمُلاقاة الكافرين من جديد.،فأخبر"أبا سفيان"أنه رأى حشدًا هائلًا مع محمد فى"حمراء الأسد"و بهم من الغيظ و الغضب ما لم يره من قبل،وأن أهل يثرب

جميعهم خرجوا طالبين الثأر لقتلاهم فى "أُحُدْ".و استبد الرُعْبْ بالكُفّار فور سماع ما قال"معبد"فوَلّوا هاربين إلى مكة قبل وصول المسلمين.و أحسب أن مناظرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه،مع أبى سفيان فور انتهاء القتال هى خير تلخيص لما وقع فى"أُحُدْ".إذ هتف زعيم الكافرين:أ فى القوم محمد ؟ أفى القوم أبو بكر ؟ أفى القوم عمر بن الخطاب ؟ فلم يسمع ردًا فقال : أمّا هؤلاء فقد قُتِلُوا..فلم يتمالك عمر نفسه و صاح به:إن الذين ذكرت أحياء يا عدو الله،و قد أبقى الله لك منهم ما يسوءك.. فصاح أبو سفيان:أُعْلْ "هُبَل"(يقصد صنمهم).فأمر النبى عمرًا أن يُجيبه:الله أعلى و أجَلّ..صاح الكافر:لنا العُزّى (صنم آخر) و لا عُزّى لكم..رد الفاروق: (الله مولانا و لا مولى لكم) فقال أبو سفيان:يوم بيوم بدر،والحرب سِجَال،والأيام دُوَل..فأمر النبى عمرًا فأجابه:لا سواء..قتلانا فى الجَنّة و قتلاكم فى النار.قال أبو سفيان:موعدنا"بدر"فى العام القادم..فرد عليه الفاروق: نعم هو بيننا و بينكم موعد.و الواضح من الحوار أن المعركة لم تحسم الأمر،لهذا طلب زعيم المشركين موعدًا للقتال من جديد،لأنه لم يتحَقّق لهم ما أرادوا من القتال.وإذا لم تُحقّق المعركة أهدافها،فليس من حق أحد الطرفين أن يزعم تحقيق النصر فيها..كما أن الشهادة هى أعظم ما ينال المسلم،و مَنْ لم ينالوا شرفها فقد أبقِاهم الله،ليواصلوا الجهاد،و ليرفعوا راية الحق و التوحيد على الأرض.

٥٢- كرامات خبيب بن عدى وأصحابه

مِنَ الوقائع التى أَكّدَت ضرورة وجود جيش قوى،لحماية دولة الإسلام،و ردع أعدائها الكثيرين،ما جرى لبعثة خُبَيْب بن عدى و أصحابه..فقد جاء نفر من أعراب"عَضَلْ"و"القارة"إلى النبى صلى الله عليه و سلم،فزعموا أنهم أسلموا،و طلبوا منه إرسال بعض أصحابه معهم لدعوة و تعليم قومهم.وأرسل عليه الصلاة و السلام معهم ستة من الدُعاة هم : مرثد بن أبى مرثد و عاصم بن ثابت و خبَيْب بن عدى و زيد بن الدّثنة و عبد الله بن طارق و خالد بن بكير.و ما كادوا يصلون إلى موضع بئر ماء"الرجيع" بالصحراء،حتى غَدَرَ بهم الأعراب،واستصرخوا عليهم قبيلة"هُذَيل"فأحاط بهم عشرات الرُماة والفرسان،و طلبوا منهم الإستسلام،مع عهد ووعد بعدم قتل أحد منهم.و رفض ثلاثة من الصحابة تسليم أنفسهم لمُشْرِكِين غادرين،و قاتلوا حتى استشهدوا-و هم عاصم و مرثد و خالد-رضى الله عنهم.و كان الهذليون يطمعون فى بيع جثة عاصم لإمرأة من قريش قتل عاصم ولديها فى غزوة"بدر"و نذرت أن تشرب الخمر فى جمجمته،و لكن ظهرت له كرامة ثابتة أمام الجميع.فقد اجتمعت حول جسده رضى الله عنه،أسراب هائلة الأعداد من النحل،مَنَعَتهم من الاقتراب منه،فانتظروا رحيلها ليلًا،لكن سيلًا جارفًا اكتسح المكان فى المساء،واختفى الجسد الطاهر تمامًا،فعلم المشركون أنه ممنوع منهم.و كان عاصم قد نذر ألّا يَمَسّ كافرًا طوال حياته،فأكرمه الله بعد استشهاده،وأبَرّ قَسَمَه،فلم يلمسه أحدهم،و وارى جسده الطاهر بعيدًا عن أعينهم.و عندما وجد الرابع"عبد الله بن طارق"أنهم ربطوه مع صاحبيه الآخرين،أيقن أنهم قد غدروا بهم،فأفلت من القيود و قاومهم،حتى استشهد بدوره رضى الله عنه.و هكذا لم يعد فى قبضة الهذليين،سوى خُبَيْب بن عدى و زيد بن الدّثنة،فباعوهما فى مكة،بمبلغ كبير من المال،لأقارب قتلاهما فى"بدر"للثأر منهما.و عندما عَلّقوا زيدًا على خشبة،تمهيدًا لقتله،سأله"أبو سفيان بن حرب":ناشدتك الله يا زيد:أيسرك أنك الآن سالم فى أهلك،و أن محمدًا مكانك،و يُقْتَلْ بدلًا منك ؟ فأجاب زيد رضى الله عنه بكل ثبات:والله ما يسرنى أننى سالم فى أهلى،وأن النبى صلى الله عليه و سلم تُصيبه شوكة فى قدمه،فكادت الدهشة تذهب بعقول الكافرين،و هتف"أبو سفيان":ما رأيت أحدًا يُحِبُ أحدًا،كما يحب هؤلاء محمدًا ! و نال زيد نعمة الشهادة،إذ قتله صفوان بن أُمَيّة بأبيه الهَالِكْ فى بدر.

وأمّا خبيب بن عدى فقد شهدت التى حبسوه فى بيتها بمكة قبل قتله كرامة ثابتة له.تحكى المرأة أنها رأت بيد خبيب قُطْفًا ضخمًا من العنب،فى غير أوانه،و ما

فى مكة بأسرها حَبّة منه ! و أنه استعار منها شفرة حادة لإزالة شعر جسده قبل الاستشهاد،و فى غفلة منها زحف طفلها نحوه،فأجلسه على ساقه.و رُوّعَت المرأة،ظَنًّا منها أنه سينتقم من قومها بقتل الطفل،لكنه رضى الله عنه هدّأ روعها،و أخبرها بأن أخلاقَ الإسلام تمنعه من أن يؤذى طفلًا بريئًا لا ذنب له،رغم غدر الآخرين به.و كان لهذا الموقف النبيل تأثير عظيم على نفس المرأة،و اهتدت للإسلام بعد ذلك.و خبيب بن عدى-رضى الله عنه-هو أول من سَنّ صلاة ركعتين قبل الاستشهاد،إذ طلب من الكافرين إمهاله للصلاة قبل قتله فوافقوا.و بعد أن صلى قال لهم:لولا أن تظنوا بى الجزع من القتل لزدت فى الصلاة..و دعا رَبّه قائلًا: اللهم أبلغ عنا نبيك.. (اللهم أحصهم عَدَدًا،و أهلكهم بَدَدًا،و لا تذر على الأرض منهم أحدًا) و هو-رضى الله عنه-القائل قبل استشهاده:

فلست أبالي حين أقتل مُسلمًا & على أيّ جنبٍ كان في الله مصرعي

و لست بمبدٍ للعدو تخشّعًا & و لا جزِعًا إنّي إلى الله مَرجعي.

و روى الإمام البيهقى عن عمرو بن أُميّة الضمرى أنه تَسَلّل إلى مكة -بأمر النبى-و انتهز فرصة سنحت له،بخلو المكان الذى عَلّقُوا فيه جسد خبَيْب،فصعد بسرعة إليه،و قطع الحبال،فنزل خبيب على الأرض.و بعدها بثوانٍ معدودات تلفت عمرو حوله فلم يجد جثمان صاحبه الشهيد،فقد أخفاه الله جَلّت قدرته،و هكذا نال خبَيْب كرامة أُخْرَى،مُماثلة لكرامة صاحبه الشهيد مثله"عاصم بن ثابت".رضى الله عن الجميع وأرضاهم.

٥٣ ـ غدر عند البئر

لعل واقعة الغدر بعشرات المدنيين المُسالمين قرب بئر "مَعُونة"و أمثالها،تكون ردًا كافيًا لإسكات مَنْ يعيبون على المسلمين اضطرارهم إلى حمل السلاح،دفاعًا عن النفس.فحسب رواية "ابن إسحاق"كان النبى صلى الله عليه و سلم قد أرسل أربعين من خيرة شباب الأنصار،للدعوة إلى الله فى منطقة "نجد"بطلب من عامر بن مالك بن براء.و عندما أبدى النبى تَخَوّفه من أذى المُشْرِكِين النجديين لهم،أعلن عامر بن مالك أنه يُعْطِيهم الأمان فى جواره،و تحت حماية قبيلته،ذات العدد الكبير بما يكفى لتأمين الدُعَاة.و حسب رواية"البخارى"فإنهم كانوا فى طريقهم إلى منطقة أُخرى لغرض آخر،و أن قبائل "رَعْلْ"و"عصية"و"زكوان"و"لحيان"اعترضوا طريقهم عند بئر"مَعُونَة"و حاول الصحابة رضى الله عنهم التفاهم مع تلك القبائل التى حاصرتهم من جميع الجهات فجأة،و قال لهم الصحابة بالنص: (والله ما إياكم أردنا،وإنما نحن مُجْتَازون-عابرون للسبيل-فى حاجة للرسول صلى الله عليه و سلم) بمكان آخر.لكن القوم أمطروهم بالنبال -السهام- و أعملوا فيهم السيوف،حتى استشهدوا جميعًا،رضى الله عنهم،بإستثناء عمرو بن أميّة الضمرى،الذى أسروه،ثم أطلقه المُجرم ابن الطفيل كبير الكافرين الغادرين بالمنطقة،وفاءً بنذر على أُمّه فيما زعم..و فى طريق عودته إلى المدينة لقى عمرو رجلين من تلك القبائل المُجْرِمَة قاطعة الطريق،فقتلهما انتقامًا لأصحابه.و لم يعلم أن لهذين الرجلين شأن آخر خلاف قومهما،إذ كان لهما عهد و أمان من النبى صلى الله عليه و سلم،و لهذا صَمّمَ النبى على دفع ديتهما،رغم فاجعة استشهاد كل هذا العدد من الصحابة الأخيار.و هذا درس للإنسانية كلها فى الوفاء بالعهد،مهما كانت الظروف،حتى لو خان الآخرون العهود والمواثيق.وهو عليه السلام الذى عَلّمَنَا- فى مناسبة أخرى-أنّه:" لا يحل فى ديننا الغدر "و ((إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين) رواه أبو داود و البيهقي.أى لا يجوز له أن يغمز بعينه،أو أن يشير إشارة خفية لبعض أتباعه لخداع أو قتل رجل بغير أن يشعر.و قد كَتَب الله لهؤلاء الأنصار الأبرار الشهادة فى سبيله،و قالوا -فيما أخبر به الوحى-بَلّغ قومنا أَنّا قد لقينا ربنا،فرضى عَنّا و أرضانا.و هذه الواقعة تُلْقى مزيدًا من الأضواء على الظروف التى كانت تُحِيط بالنبى صلى الله عليه و سلم و أصحابه.وإذا كان عليه السلام قد مَكَثَ ١٥ سنة -١٣عامًا فى مكة و عامين بالمدينة- قبل الإذن له بالقتال،فمن المستحيل استمرار الحياة هكذا،وسط هؤلاء الأعراب الجُنَاة الخائنين،الذين لا يخشون فى مسلم رَبًّا،و لا يحترمون حلفًا،و لا يُرَاعُون عهدًا.و كان من الضرورى أن يحمل المسلمون السلاح،لحماية الدولة الناشئة من ناحية،و لتأمين الأفراد خارجها من ناحية أخرى..و ليس من الحكمة أن يرى القائد استمرار نزيف الدم بين أصحابه غدرًا و غِيلَة هكذا،ثم يظل مُسْتَسْلِمًا،و يكتفى مع رجاله،بتلقى الضربات القَاصِمَة باستمرار دون رَدّ !و لهذا

نَزَلت آيات الإذن بالقتال دفاعًا عن النفس أولًا،ثم فى مرحلة تالية فَرَضت الأوضاع الإنتقال إلى مرحلة توجيه الضربات الإستباقية للمُتَرَبّصين بالمسلمين، لفرض احترام حقوقهم،و تأمين الحق فى الحياة،وحرية العقيدة،والدعوة إلى الله بسلام فى كل مكان.و الخُلاصة أنه: لم يكن هناك سبيل آخر لردع المُعْتَدِين،و كف أذاهم عن المسلمين،بغير القتال..و آخر الدواء الكَىّ،كما يقولون، و أن (للدعوة بالرفق و اللين والموعظة الحسنة موضعها..و للسيف موضعه أيضًا)

٥٤- مُحاولة اغتيال فاشلة

لم يمض من الزمن إلا القليل،حتى عاد اليهود إلى نكث العهود وتهديد السلم والأمن فى المدينة.فقد ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير،ليطلب منهم المساهمة فى سداد ديّة الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ.وكان بنو عامر حلفاء لبنى النضير،و هذا يُفسّر لماذا طلب منهم الرسول صلى الله عليه وسلم المشاركة فى ديّة القتيلين من حلفائهم،و لم يطلب ذلك من بنى قريظة.و تظاهر بنو النضير بالموافقة على طلب النبى صلى الله عليه وسلم،و طلبوا منه الجلوس وتناول بعض الطعام إلى أن يجمعوا المال،الذى يشاركون به فى تحمّل الدية.لكنهم كانوا-لعنهم الله- يدبّرون جريمةً منكرة،هى أن يصعد أحدهم–عمرو بن جحاش بن كعب-إلى أعلى الحصن،ليُلقى صخرة كبيرة على الرسول،فيقتله،ليتخلصوا من الإسلام بذلك كما ظنّوا..لكن الله تبارك وتعالى أرسل جبريل عليه السلام إلى نبيّه،ليحذّره من محاولة الاغتيال الآثمة،فانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من المكان،فورًا،قبل تنفيذ الخبثاء لمخططهم الإجرامى اللعين.و هنا أيضا نتساءل:ما هو التصرف الذى تتخذه سلطات أية دولة معاصرة عند ضبط محاولة لاغتيال رئيس البلاد؟!هل تحيط أعناق المجرمين المُتورّطين بالأزهار والرياحين؟!أليست محاولة قتل رئيس الدولة خرقًا إجراميًا للدستور والقانون،و تهديدًا سافرًا لأمن البلاد واستقرارها،فضلا عَمّا فى هذا الأسلوب من خِسّة و غدر و دناءة ترفضها كل الأعراف،بل الفطرة السليمة والعقول المستقيمة؟!وهل يُؤمَن جانب هؤلاء بعد ذلك؟لكل ما سبق كان من الضرورى إبعاد خَوَنَة بنى النضير من المدينة فى الحال،حفظًا للسلام والأمن،لأن ترك أمثال هؤلاء القتلة الخبثاء سيكون من سوء السياسة و عجز الرأى،وحاشا للرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون هذا حاله..و رب البيت العاقل الحكيم لا يترك الأفاعى السامة،لتصول وتجول داخل المنزل،فتنهش فلذات كبده،و تبث سمومها فى كل الأرجاء..و سرعان ما أرسل المصطفى صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصارى رضى الله عنه،ليأمرهم بمغادرة المدينة.لكنهم رفضوا،واستمروا فى العصيان والتمرد،بعد أن راسلهم المنافقون،وأطمعوهم فى مناصرتهم ضد المسلمين.و تحصّن بنو النضير فى قلاعهم و حصونهم،كما فعل أسلافهم من بنى قينقاع،لكنهم لم يقدروا على الاستمرار،خاصة بعد أن أخلف المنافقون وعودهم،و تخلّوا عنهم.و لم يجدوا فى نهاية الأمر مفرًا من طلب الصفح من الرسول صلى الله عليه وسلم،وأن يأذن لهم بالرحيل عن المدينة بأطفالهم ونسائهم وأموالهم،فوافق على ذلك،بشرط واحد،هو ألا يخرجوا بأى سلاح معهم.و هذا شرط بديهى و مفهوم تمامًا فى مثل تلك الظروف.فقد أظهر القوم غدرًا ولؤمًا ونيةً مبيّتةً فى النيل من الإسلام ونبيّه عليه الصلاة والسلام،و ترك السلاح بحوزتهم خطأ سياسى و عسكرى فادح تكون له عواقب وخيمة فيما بعد.ولهذا فقد أبدع الحاكم والرسول صلى

الله عليـه وسـلم فـى قـراره الصـائب بتجريـد الغـادرين مـن أسـلحتهم،ليأمن المسـلمون شرورهم.

٥٥- الخندق

لم يحضر المشركون فى السنة الرابعة إلى"بدر"تنفيذًا لما قالوا مِن قبل..فقد تَهَرّب زعيمهم"أبو سفيان بن حرب"بحُجّة أن العام كان قَحْطًا،فلا مطر و لا عشب للإبل والأغنام،و لا ثمار و لا ألبان.و لكن"حيى بن أخطب"زعيم يهود بنى النضير المطرودين من المدينة لم يتوقّف-مع آخرين يهود أيضًا-عن تحريض زعماء قبائل الجزيرة ضد النبى صلى الله عليه و سلم و الدين الذى جاء به،و أقنعهم بأنه يُهَدّدْ مصالحهم وامتيازاتهم،و يساوى بينهم و بين عبيدهم،و لابد من القضاء عليه،قبل أن يتجرّأ هؤلاء عليهم،فيفقدون الوجاهة و الثراء.و هكذا نجحت شياطين الإنس و الجن فى حشد أكثر من عشرة آلاف مقاتل،جاءوا من جميع الأنحاء،فى السنة الخامسة بعد الهجرة،بهدف مُدَاهمة يثرب،والقضاء التام على المسلمين والإسلام.و كان هذا هو أكبر حشد عرفه تاريخ الجزيرة العربية فى ذلك الزمان.و تواترت أنباء الحشود الهائلة إلى المدينة،فبادر الرسول صلى الله عليه و سلم-كعادته-بعقد إجتماع طارئ لمجلس الشورى فى المسجد النبوى الشريف.و فى هذه المرّة استفاد المسلمون من درس"أُحُدْ" فلم يُجادل أحد فى صواب الرأى الحكيم،بوضع النساء والأطفال فى الحصون المُرتفعة لحمايتهم،وأن يتخذ الرجال مواقع دفاعية حول مختلف مناطق المدينة،لإجبار المعتدين على التراجع،أو البقاء خارجها.فإذا أَصَرّوا على اقتحامها،فليس أمامهم سوى الانتشار فى الشوارع و الحارات الضيّقة،فيسهل صَدّ هجماتهم،و نصب الكمائن لهم ،واصطيادهم فرادى و جماعات.لكن أعداد الجيش المُعْتَدى كانت هائلة هذه المَرّة،فكان من الضرورى أن يبحث المجتمعون عن حل للتَغَلّب على المشكلة،و تعويض الفارق العددى الكبير.و قَيّضَ الله لها الصحابى الجليل"سلمان الفارسى"رضى الله عنه.فقد تذَكّر حيلة حربية قديمة كان قومه يستخدمونها ضد الجيوش التى تغزوهم،هى حفر خنادق واسعة تعوق عبور الخيول والإبل و المشاة،فتمنع اقتحام المدن و القرى بهذه الطريقة الرائعة زهيدة التكاليف.و من تدبير الله تعالى لنبيه و دينه،أن المدينة تُحيط بها مُرتفعات عديدة،و هى تُشَكّل موانع طبيعية جَيّدَة بدورها..و هذا يجعل حفر الخندق أيسر،و أقل مجهودًا و أقصر وقتًا،لأنه سيكون فى جانب واحد فقط،و تتكَفّل الجبال بالباقى..و ليت الخُصُوم المُفْتَرُون على الإسلام يُلاحِظون هنا هذه ((الخطّة الدفاعية البحتة)) فى الاكتفاء بالبقاء داخل المدينة و تحصينها و حفر خندق لحقن الدماء،و إجبار المُعْتَدى على التراجع..فهل يكتفى (الإرهابى) بالبقاء فى بيته و تحصينه و اتخاذ وسائل دفاعية بحتة هكذا ؟! أو ليس غير المُسلمين الذين قدموا للبغى و العدوان-من مسافات بعيدة-هم بوصف الإرهاب أجدر،وإلى الظلم و الطُغيان أقرب ؟! و على الفور وافق الجميع على الاقتراح العبقرى،و شرعوا فى التنفيذ بأقصى سرعة،لأن حشود الكافرين كانت قد بدأت تحركاتها من مواطنها،و ما هى إلا بضعة أيام ،حتى تصل طلائعها إلى مشارف

يثرب.و قَدّمَ الهادى البشير صلوات الله و سلامه عليه القدوة الحسنة فى التضحية والتواضع و العمل الجاد المُتَوَاصِل،ومواساة النبى والقائد لجنوده بنفسه الشريفة،فشاركهم فى الحفر بيديه،و هو بنص الحديث: "سيد ولد آدم و لا فخر"كما شاركهم الطعام القليل المُتواضع،و هو التمر والماء معظم الأيام..بأبى هو و أمى و نفسى وولدى..صلى الله عليه و سلم دائمًا أبدًا،كما يُحِبُ و يَرْضَى..و من دلائل النُبُوّة أنه صلى الله عليه و سلم بَشّرَهم-فى ذلك الوقت العصيب-بفتح فارس و الشام و اليمن..و راح المُنافقون يُشكّكون-كالعادة-فى هذه البشارة،و يتهامسون بينهم:"يعدنا بكنوز كسرى و قيصر،وأحدنا لا يأمن على نفسه من الذهاب لقضاء حاجته فى الخلاء"؟! لكن ما أخبرهم به عليه السلام،ما لبث أن تحَقّقَ بعد ذلك ببضع سنين.
((وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)) سورة النجم:٣ـــ٤

٥٦ ـ غدر اليهود

اتخذ النبى وأصحابه جَبَلَ"سلع"حصنًا طبيعيًا يحمى ظهورهم،و جعلوا الخندق مانعًا يحجز بينهم و بين جيش المشركين..والحقّ أنها كانت خطة رائعة تعتمد على استنزاف وإنهاك العدو،بدون إلتحام مُباشر،و مع مرور الوقت،يستبد اليأس والإرهاق والذُعْرْ بالكُفّار،بتأثير الخسائر اليومية فى البشر و الخيل و الإبل.وبكل تأكيد،لن يحتملوا البقاء على هذا الحال سوى فترة قصيرة.و فى المُقَابل كان على المُعَسْكَر الإسلامى التحلّى بالصبر والعزيمة والجَلَدْ،فى مُواجهة هؤلاء،إلى أن يرحلوا.لكن المُنافقين لم يتركوا المُجاهدين و شأنهم،بل راحوا يُكْثِرُون الشائعات و الأقاويل لإضعاف الروح المعنوية لدى الصحابة.فمنهم من طلب الانصراف بحجة وجود خطورة على النساء والأطفال الذين هم فى الحصون..و منهم من لجأ إلى التشكيك –كما تَقَدّم-قائلًا:يعدنا محمد بفتح قصور كسرى و قيصر،و أحدنا لا يأمن الذهاب لقضاء حاجته فى الخلاء بمفرده!و لم يعلم المُنافق أن هذا من آيات نبوته،إذ أوحى رَبّه إليه بأخبار هذه الفتوح،فى وقت عصيب يستحيل فيه على بشر أن يتوقّع أو أن يتنبأ بمثل هذا ! و كان أخطر ما جرى هو انضمام يهود"بنى قريظة"إلى التحالف الكافر ضد الإسلام والمسلمين،فهم القبيلة الوحيدة الباقية من اليهود داخل المدينة،و فى هذا خطورة بالغة على الجيش الإسلامى،لو تجرّأ الجُبناء على مُهاجمة النساء والأطفال فى الحصون،فى ذات توقيت هجوم المُشركين من الخارج.و أرسل النبى صلى الله عليه وسلم السعدين (بن مُعاذ و بن عبادة) إلى بنى قريظة للتأكّد من الأمر.و بالفعل سمع السعدان من اليهود تطاولًا سافلًا بذيئًا على نبى الرحمة،و جهرًا دنيئًا بالعداء و فاحش القول،ظَنًّا منهم أن القضاء على المسلمين جميعًا أمر وشيك لا شك فيه.و قالوا لهما بكل وقاحة:
لا عهد لصاحبكما عندنا و لا عقد ! و لم يكتفوا بهذا،بل أرسلوا أحد الجواسيس،لإستطلاع أحوال الحصون،تمهيدًا لإقتحامها.لكن السيدة صفية بنت عبد المطلب-عَمّة النبى-تصدت للجاسوس،و بضربة قوية بعمود خيمة أردته قتيلًا.و كان هذا كافيًا لردع أعداء الله،و توقّفهم عن مهاجمة الأطفال و نساء المسلمين فى الحصون..و لتفتيت و تفكيك جبهة الأعداء،استشار الرسول صلى الله عليه و سلم السعدين (كُلّ منهما سيد قومه مِن الأوس والخزرج) فى منح أعراب غطفان و نجد ثُلث ثمار"تمر"المدينة مقابل انسحابهم،و هو أمر-إن تم- يكفل إضعاف جبهة الكُفْرْ،وانسحاب الباقين تباعًا.و بعد أن أخبرهما صلى الله عليه و سلم أن هذا اقتراح شخصى منه،و ليس وحيًا،كان من الطبيعى أن

يرفض الأسدان"السعدان"بكُل قُوّة و نخوة..و قالا:و الذى بعثك بالحَقّ،ما كانوا فى الجاهلية يطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة،إلا قِرَى-ضيافة- أو بيعًا،أفبعد أن أكرمنا الله بك و بالإسلام نعطيهم الثلث ؟! و الله ما نعطيهم إلا السيف..فدعا لهما النبى صلى الله عليه و سلم بالخير،وأفهمهما أنها كانت مُجَرّد فكرة أحب أن يعرضها عليهما،بعد أن تحالف الكُفّار من العرب جميعًا ضدهم..و فى مواجهة المكر و اللؤم و خِسّة الأعداء،و وسط الشِدّة و التعب و القلق،كانت يد الله تعالى تعمل فى الخفاء..فقد أسلم نُعيم بن مسعود سِرًّا،و جاء إلى النبى صلى الله عليه و سلم،فأخبره أن له علاقات جَيّدَة بالمشركين و اليهود أيضًا،و طلب منه تكليفه بما يشاء..فأخبره عليه السلام بأنه رجل واحد،وأن من الأفضل أن يكتم إسلامه،وأن يسعى للتخذيل وإضعاف مُعَسْكَر الشرك ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.و كان من توفيق الله لنُعَيم رضى الله عنه أن ألهمه فكرة بالغة الدهاء.فقد استثمر صداقته لزعماء قريش،وأثار شُكُوكَهم فى نوايا اليهود و غدرهم،و حَذّرَهُم -على سبيل النصيحة-من الإستجابة لما سيطلبه منهم اليهود،و هو تسليم بعض زعماء قريش،لتحتفظ بهم قريظة،كرهائن،ضمانًا لعدم انسحابهم و ترك اليهود بمفردهم،وأفهمهم أن اليهود اتفقوا مع محمد على تسليم رهائن من سادات قريش إليه،لإثبات ولائهم له..و ذهب نُعَيم إلى اليهود،فحَذّرهم من انسحاب وشيك لجيش قريش،بعد فشلهم فى تجاوز الخندق،و تزايد خسائرهم يومًا بعد الآخر..واقترح عليهم أن يطلبوا منهم رهائن من ساداتهم،ضمانًا لعدم الانسحاب..وأرسل المشركون إلى اليهود،يطلبون منهم الإنضمام إلى جيشهم للهجوم على محمد،و رَدّ اليهود بأن اليوم يوم السبت،و من المحظور عليهم أى عمل فيه،و قد علم الكُل عقاب من يحاول القيام بأى عمل فى السبت.و فضلًا عن هذا،قال اليهود إنهم لن يشاركوا فى القتال إلا بعد حصولهم على رهائن من أشراف قريش،ليحتفظوا بهم عندهم، ضمانًا لعدم انسحاب المكيّين فجأة،و ترك بنى قريظة وحدهم فى مواجهة محمد وأصحابه.و هنا قال المشركون لبعضهم البعض: صدق و الله نُعَيم بن مسعود فيما أخبركم به.و أرسلوا إلى اليهود يَسُبّونهم و يخبرونهم بأنهم لن يعطوهم أحدًا كرهائن..و هكذا انهار التحالف بين عَبَدَة الأصنام و بين إخوة القردة و الخنازير.و مكث الجيشان شهرًا بلا قتال ،سوى التراشق بالسهام و الأحجار.و فى محاولة يتيمة،نجح أحد أشهر فرسان العرب،و هو عمرو بن ود،فى اقتحام موضع ضيّق من الخندق مع بعض فرسان المُشركين،و طلب المُبَارَزة،فخرج إليه على بن أبى طالب رضى الله عنه.و رغم صغر سن علىّ،أيده الله بمدده و حوله و قوته،فصمد فى المبارزة الخطيرة الصعبة،و استطاع أن يحسمها أخيرًا بطعنة قاتلة قضت على فارس

قريش،الذى لم يهزمه أحد من قَبْل.و لاذ باقى فرسان الكافرين بالهروب إثر هلاك قائدهم..و أرسل الله تعالى جنودًا لم يرها أحد،و بردًا شديدًا،و ريحًا عاصفة اقتلعت خيام المُشركين،و بعثرت طعامهم،و أطفأت نيرانهم،و انتابهم الرُعْب الذى ينصر الله به رسوله،فأمرهم"أبو سفيان"بالرحيل،و ما كاد يركب ناقته،حتى هرول الآخرون خلفه جميعًا،عائدين إلى مكة. و صدق الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) الأحزاب:٩.و كانت تلك هى نهاية الهجمات على المدينة،إذ استبد اليأس بنفوس الكُفّار،و تأكّدوا من عدم جدوى أية مُحَاولات جديدة..و صدق صلى الله عليه و سلم الذى أخبر أصحابه بأن المشركين لن يُهاجموا المدينة بعد اليوم،بل يغزوهم المسلمون بحول الله.و أنزل الله عَزّ و جَلّ: (وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) سورة الأحزاب:٢٥

٥٧- إعدام خَوَنَة بنى قُريظة

حانت لحظة الحساب،بعد رحيل الأحزاب،فانطلق الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه لتطهير آخر أوكار الأفاعى بالمدينة المُقدّسة،و حُوصر بنو قريظة-كما جرى لأسلافهم المجرمين من بنى قينقاع و بنى النضير ٢٥ ليلة،حتى استسلموا،و طلبوا أن يحكم فى أمرهم حليفهم سعد بن معاذ رضى الله عنه (و كانت قبيلة الأوس حليفًا لبنى قريظة فى الجاهلية) فوافق الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك..و إنه لمِنَ المغالطة وإنعدام الأمانة العلمية أن يتجاهل الحاقدون على الإسلام هذا التسامح،و ذلك التساهل غير المسبوق فى التاريخ كله.فمَنْ سواه عليه السلام يسمح للخَوَنَة والمتآمرين باختيار القاضى الذى يحاكمهم ؟!و مَنْ غيره يُوافق على أن يحكم فى القضية الخطيرة حليف للمتهمين الغادرين الفاجرين؟!و كان حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه على حلفائه الخونة هو إعدام البالغين منهم،قتلًا بحد السيف،وأن يُسْبَى الأطفال والنساء.ولا عجب فى هذا الحكم،لأن التوراة التى بأيدى اليهود-اليوم-تنص على قتل كل سكان المدن التى ينتصر عليها بنو اسرائيل ذكورًا كانوا أم إناثًا،أطفالًا أم شيوخًا،و تأمر بشق و بقر بطون الحوامل،وإعدام كل كائن حى،حتى البهائم والحيوانات والطيور كلها،و لا يُتْرَكْ منها نسمة على قيد الحياة ! فإذا اقتصر حكم سعد رضى الله عنه على إعدام الخونة البالغين من الذكور-أى المُقَاتِلين فقط-و استبقاء الصغار والنساء أحياء،فهو العدل كله،و تم تطبيقه بحزم على مرتكبى جريمة الخيانة العظمى،وهى الرحمة كلها بمَن لم تكن لهم يد فى الغدر و لا الخيانة من الأطفال،و معهم النساء،اللائى لم يشاركن لا فى القتال ضد المسلمين و لا الغدر بهم ولا نقض الصحيفة.والذين يتباكون على إعدام خَوَنَة بنى قريظة يتجاهلون أن جريمتهم كانت أشد خطرًا وأبعد ضررًا،و لولا عون الله ونصره و تأييده،لكانوا قد شاركوا –مع الأحزاب-فى القضاء التام على الإسلام والمسلمين. و شدّة العقوبات يجب أن تتناسب مع خطورة الجنايات. كما أن جريمة الخيانة العظمى تتضاعف عقوبتها و تغلظ فى أوقات الحروب،و هذا أمر معروف و مُسَلّم به فى كل قوانين دول العالم المعاصرة.و قد كان زعماء اليهود من أخطر عوامل الفتنة والتحريض ضد الإسلام والمسلمين فى سائر أنحاء الجزيرة العربية-كما تقدّم-و هم الذين طافوا بكل القبائل،لتحريضها و حَثّها على المشاركة فى الحملة على يثرب،للقضاء على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه،وراحوا يغرونهم بالأموال و الجاه،بالتنسيق الكامل مع مشركى قريش..وكانت نتائج الشحن والحشد والتحريض بالغة الخطورة.إذ كادت المؤمرة أن تنجح ،و تحدث إبادة جماعية للمسلمين.و بدلًا من التعاون مع المسلمين على صدّ العدوان–كما تنص صحيفة المدينة صراحة-تآمر بنو قريظة مع أعداء الدولة،و خانوا الله و رسوله والمؤمنين،فى أخطر الأوقات وأشدها

حرجًا وصعوبةً.و بتـر العضـو الفاسـد ضـرورة لا بـديل عنهـا لإنقـاذ الجسـد.و صـدق شاعرنا الكبير أحمد شوقى رحمه الله:

الحَربُ في حَقّ لَدَيكَ شَريعَةٌ & وَ مِنَ السُمومِ الناقِعاتِ دَواء.

صلى الله عليه و على آله و صحبه و سلم ،كما يحب و يرضى دائمًا أبدًا.

58- مَلَكْتَ فاسجح

كان العام السادس الهجرى ساخنًا حافلًا بالأحداث.فقد بدأ بخروج المسلمين للثأر من "بنى لحيان"الذين غدروا بخبيب بن عدى وأصحابه،رضوان الله على الجميع.لكن المجرمين هربوا عندما علموا بقدوم الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه،وتفرّقوا فى أعالى الجبال..و ما كاد النبى يعود إلى المدينة،حتى أغار عيينة بن حصن الفزارى"الأحمق المُطاع"و قومه على مراعى المدينة،فقتلوا راعيًا،وأسروا زوجته،واستولوا على الإبل،وهربوا قبل مجىء الناس.و هنا سَجَّلَ التاريخ بطولة أسطورية للصحابى الجليل"سلمة بن الأكوع الأسلمى"رضى الله عنه،فقد كان أول من رأى خيول المُعتدين،فصعد أعلى جبل"سلع"و صاح بأعلى صوته لتنبيه المسلمين،ثم انطلق بأقصى سرعة،ليُطارد العصابة-وحده-و يرميهم بالنبال،و كان من أمهر رُماة العرب،فأصاب بعضهم،و كرّ عليه الباقون،فتراجع ليُطاردوه،و تكَرّرَ هذا الموقف،و بهذا عَطّل هروبهم أطول فترة مُمكنة إلى أن لحقت بهم طلائع فرسان المسلمين.و يصف ابن إسحاق الصحابى"سلمة بن الأكوع"بطل غزوة"ذى قرد"بأنه"كان مثل السبع"و صدق،فما عهد العالم قبل هذا و لا بعده،رجلًا واحدًا –بلا فرس- يناوش بمفرده عشرات الفرسان،و يُصيب منهم الواحد تلو الآخر بسهامه،و لا يتمكّنوا جميعًا من إصابته بخدش واحد..و قد نجح سلمة رضى الله عنه فى استرداد معظم الإبل من أيديهم،و غنم وحده منهم ثيابًا كثيرة تخلّصوا منها لتخفيف الأحمال و تسهيل الهروب.كما تمكّن من تعطيلهم،ساعات،حتى لحق بهم فرسان الصحابة،و اشتبكوا معهم عند موضع عين ماء"ذى قرد"و هرب الفزاريون بعد مقتل وإصابة عدد منهم.و نجحت أرملة الراعى فى الهروب على ظهر ناقة سريعة من إبل الصدقة،و كانت قد نذرت أن تذبحها إن نَجّاها الله.و عندما أخبرته بهذا،ابتسم صلى الله عليه و سلم،و قال:"بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها و نَجّاك بها،ثم تنحرينها"؟! ثم أخبرها أنه لا نذر فيما لا يملك الإنسان،و لا فى المعصية.وأقام صلى الله عليه و سلم عند ماء"ذى قرد"يومًا و ليلة،ليسمع كُل أعراب المنطقة بخروج جيش المسلمين،وليعلموا أن غارة اللصوص قد فشلت،فلا يُفكّر أحد منهم فى إعادة الكَرّة.و طلب البطل سلمة بن الأكوع من الرسول صلى الله عليه و سلم إرساله على رأس مائة فقط من المُجاهدين،لغزو"الفزاريين"فى عُقر دارهم،و تأديبهم،و جعلهم عبرة لسائر العرب.فابتسم عليه السلام،و أجابه بجملة تُفيد الإكتفاء بما تحقّق من نصر واسترداد معظم الإبل،و هروب اللصوص بعد قتل وإصابة بعضهم:

((يا بن الأكوع.. مَلَكْتَ فاسْجَحْ)) -رواه البخارى و مسلم-و هى عبارة فى ذروة الفصاحة والبلاغة النبوية الشريفة،تحث المسلم على الرفق والإحسان والعفو عند

المقدرة،و التَكَرّم علـى مـن أقـدره الله تعـالى عليـه..و كـان لهـذه الحكمـة و بُعـد النظـر الشـريف أثـر عظيم،فقـد تـاب القوم،وأقلعـوا عـن السـلب و النهب،وأسـلموا-فيمـا بعـد. صلى الله عليه و على آله وأصحابه،كما يحب و يرضى.

٥٩- تحرير بنى المصطلق

و فى العام السادس الهجرى أيضًا خرج الرسول صلى الله عليه و سلم فى سبعمائة من أصحابه،لصَدّ عدوان بنى المُصْطَلَق،الذين احتشدوا تمهيدًا للهجوم على المدينة.والتقى الجمعان عند عين ماء"المريسيع"و عرض النبى صلى الله عليه و سلم عليهم الإسلام،و منع القتال،و حقن الدماء،فأبى زعيمهم الحارث بن ضرار إلّا الحرب ! و ما هى إلّا ساعات قصار حتى سقط من بنى المُصْطلق عشرة من القتلى،و تم أسر باقى أفراد القبيلة بالكامل،و كانوا مائة بيت،أى مئات النساء والأطفال.و هنا يُعطى الرسول صلى الله عليه و سلم درسًا خالدًا فى توجيه الناس–بشكل غير مُباشر-إلى المَن والعتق وإكرام الأعِزّة الذين تعرّضوا لنكبة.فقد جاءته جويرية بنت الحارث بن ضرار-كبير القبيلة- التى وقعت أسيرة مع قومها،و طلبت منه إعانتها على الفكاك من الرق.و ما كان رسول الإنسانية ليدع مثل هذه السيدة فريسة للإذلال والاسترقاق،كما أنه لا ذنب لها فى عدوان أبيها و كُفره و عناده..و هكذا عرض عليها صلى الله عليه و سلم أن يُؤدّى عنها كتابتها-قدر من المال تدفعه لمَن هى عنده مقابل حريتها - و أن يتزوّجها،فوافقت،ففعل،و صارت السيدة جويرية من أُمّهَات المُؤمنين.و ما كاد الصحابة يعلمون بهذا حتى تدافعوا صائحين مستنكرين:"أصهار الرسول صلى الله عليه و سلم فى الأسر"؟! و انطلقوا فحَرّروا جميع من كانوا تحت أيديهم من أسرى بنى المُصْطَلَق،بسبب هذه الزيجة الشريفة.و لهذا وصفت السيدة عائشة رضى الله عنها السيدة جويرية قائلة: (لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها) و قد أسلم أبوها و قومها جميعًا بسبب هذا النبل و تلك المكرمة،و حَسُنَ إسلامهم.و هكذا أرسى النبى صلى الله عليه و سلم قاعدة فقهية شريفة،هى أن يعتق الرجل جاريته،أو أن يشترى جارية غيره،فيُعتقها،و يتزوّجها،و يكون عتقها-أو ما دفعه ثمنًا لها-هو مهرها.,و بشّر من يعتق جاريته و يتزوّجها بأن"له أجران"والحديث فى الصحيحين..ثم أنه-بهذه الزيجة- قد حَثّ أصحابه– بإشارة لطيفة- على تحرير ما بأيديهم،بمُطلق اختيارهم و بلا أى ضغط،على سبيل التقرّب إلى الله و تكريم رسوله،صلى الله عليه و سلم..والأهم من كل ما سبق أن الله تعالى قد أعتق رقاب بنى المُصطلق من الكُفر أيضًا،و حَرّرَهم من العبودية للأصنام ،و مَنّ عليهم بالإسلام،و مُصاهرة سيد الأنام،عليه الصلاة و السلام.

٦٠- و لله العِزّة و لرسوله و للمُؤمنين

لم يكن الخطر على الدولة الإسلامية من الكافرين واليهود فحسب،بل كان هناك أيضا"طابور خامس"يتربّص بالمسلمين الدوائر،و يسعى إلى اقتناص أية فرصة تسنح لإشعال الفتن.و من هذا ما جرى بعد الانتصار فى غزوة بنى المصطلق.إذ وقعت مُشادة بين أجيرين،أحدهما لعمر بن الخطاب،والآخر يعمل لدى أحد الأنصار.و لأن العاملين من حديثى العهد بالإسلام،فقد دعا كلاهما بدعوى التعصّب والجاهلية،و صاح أحدهما مُستغيثًا بالمهاجرين،واستغاث الآخر بالأنصار ! و لولا أن المصادر التاريخية لا تسعفنا بالكثير عن هذين الشخصين،لظننّا أن يكون أحدهما أو كلاهما،مدفوعًا-عمدًا- من كبار المُنافقين،لزعزعة صفوف المسلمين.و طالما لم يثبت لدينا هذا،على وجه اليقين،فإن القَدْرَ المُؤكّد أن الجهل والجاهلية كانت ملء النفس من كليهما.و حاول كبير المُنافقين"عبد الله بن أُبىّ بن سلول"استغلال الفرصة لإستعادة نفوذه،الذى كان قد تلاشى بالهجرة الشريفة إلى المدينة،و قيام الدولة الإسلامية الجديدة.و راح يُحَرّض قومه:" أو قد فعلوها ؟ -يقصد المهاجرين- نافرونا و كاثرونا فى بلادنا ؟ والله ما حالنا و هؤلاء إلّا كما قال الأوّل: سَمّن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجّن الأعزّ منها الأذل"و راح يلوم قومه-الأنصار-قائلًا:هذا ما فعلتم بأنفسكم،أحللتموهم بلادكم،و قاسمتموهم أموالكم،أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غيركم"!و سمع هذا زيد بن أرقم رضى الله عنه،و كان صبيًّا صغيرًا،فأبى إلّا أن يخبر النبى صلى الله عليه و سلم.و جاء كبير المُنافقين مُنْكِرًا،وأقسم للنبى بأغلظ الأيمان أنه ما قال هذا ! و لكن الله تعالى أنزل قرآنًا يفضح المنافق،ويُثبت كذبه و تطاوله،و يُؤكّد صدق زيد بن أرقم رضى الله عنه: (يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) سورة"المنافقون":٨

و كان من رحمة الله و لطفه بالأُمّة أن الأغلبية الساحقة من الصحابة رفضت الاستجابة لهذه النعرات القبيحة،و تحرّك صلى الله عليه و سلم بسرعة و حكمة،فقضى على الفتنة فى مهدها،وأمر الناس بالرحيل،فى وقت الظهيرة،و هكذا شغلهم بعناء طريق العودة إلى المدينة عن حديث الفتنة،وواصل السير بهم يومين متتاليين،حتى سقط الجميع على الأرض من شدّة التعب،فور أمره لهم بالتوقّف للراحة،و غرقوا فى نوم عميق أنساهم الحادث .و جاء أسيد بن حضير رضى الله عنه،ليسأل الرسول صلى الله عليه و سلم عن سبب قرار الرحيل المُفاجىء،فى وقت غير مُعتاد،وأجابه عليه السلام:"أو ما بلغك ما قال صاحبكم"؟! وأخبره النبى بمقولة عبد الله بن أُبَىّ:لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجَنّ الأعزّ منها الأذلّ! فصاح أُسيد رضى الله عنه: فأنت يا رسول الله تخرجه والله إن شئت..أنت الأعَزّ و هو الأذَلّ..ثم التمس من النبى الرفق بابن أُبَىّ،فقد

كان قومه على وشك تتويجه مَلِكًا على يثرب قبل الإسلام،و هذا هو سبب حقده المسعور على النبى و على الدين،الذى يظن أنه السبب فى ضياع فرصته فى رئاسة المدينة.واقترح عمر بن الخطاب إعدام المُنافق،قطعًا لدابر الفتنة،فرفض النبى صلى الله عليه و سلم،حتى لا يستغل الخصوم هذا فى تشويه الإسلام،بإدّعَاء أن محمدًا يقتل أصحابه .و كذلك جاء عبد الله بن عبد الله بن أُبَىّ"نجل زعيم المُنافقين"و كان صحابيًا جليلًا صالحًا-على عكس أبيه تمامًا-فاستأذن النبى أن يكون هو من يقتل أباه (لو أراد النبى ذلك)و ليس أحدًا آخر،حتى لا يُسوّل له الشيطان الثأر من قاتل أبيه،فيدخل النار.لكن النبى صلى الله عليه و سلم تلطّف به،و هدّأ من روعه،و قال له :"بل نرفق به،و نُحسن صُحبته ما بقى معنا".و كانت لهذه الحكمة والرَوِيّة نتيجة رائعة،فقد تصدّى الخزرج -قوم ابن سلول-له،و راحوا يلومونه و يسبّونه و يعاقبونه بأنفسهم.و وصل الأمر بولده الصالح إلى حَدّ أن وقف له على مشارف المدينة،و مَنَعَهُ من دخولها،إلّا أن يأذن له النبى صلى الله عليه و سلم بذلك.و هكذا لَقّن الرسول صلى الله عليه و سلم الجميع درسًا فى التأنّى،و قال لعمر بن الخطاب:"كيف ترى يا عمر ؟أما والله لو قتلته يوم قُلْتَ،لأرعدت من أجله أنوف –غضبت و تعصّبت له– لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته"فرَدّ الفاروق رضى الله عنه:"قد علمت-والله-أن أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم أعظم بركة من أمرى.

٦١- حديث الإفْك

بعد فشل المنافقين فى الوقيعة بين المُهاجرين و الأنصار لجأوا إلى حيلة أخرى بالغة الخِسّة والدناءة،للإساءة إلى البيت النبوى الشريف،هى الافتراء الإجرامى على أم المُؤمنين،الصدّيقة بنت الصدّيق،عائشة رضى الله عنها.و لولا أن الشبهة الآثمة قد تلقّفها خصوم الإسلام من المُنصّرين،و حاولوا من خلالها أن ينفثوا سمومهم وأحقادهم على الرسول والرسالة،ما استحقت الرَدّ عليها لتفاهتها و تهافتها أيضَا..و قد نزلت آيات كريمات ببراءتها من فوق سبع سماوات،كما برأ القرآن الكريم أختها السيدة مريم من قبل،و نفى عنها افتراءات اليهود،الذين لم يسلم الأنبياء من بذاءاتهم بدورهم-كداود و سليمان و لوط و موسى-عليهم السلام.و أثبت القرآن الكريم كذب الأفّاكين: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَ قَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(١٩) سورة النور

ثانيًا:يعلم القاصى و الدانى أن بيوت الأنبياء،صلى الله عليهم و سلم طاهرة مُنَزّهة عن الفواحش والقاذورات.وإجماع العلماء على أنه" ما زنت امرأة نبى قَطّ".و تجدر الإشارة هنا إلى أن ما ورد بالقرآن الكريم عن خيانة زوجتى نوح و لوط،عليهما السلام،إنما هى"خيانة المنهج"و ليست"خيانة الجسد"فهما لم تؤمنا بالرسالة،وانحازت كلتاهما إلى قومها ضد زوجها..قال تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) سورة التحريم:١٠..قال الضحاك فى تفسير الآية: (ما بغت امرأة نبى قَطّ) و قال ابن عباس:خيانة امرأة نوح أنها كانت تقول عنه:مجنون،و خيانة امرأة لوط أنها كانت تدل على ضيوفه.و قال عكرمة: الخيانة هنا فى الدين.و على هذا النحو سار المُفَسّرون فى جميع العصور.والأنبياء أكرم على رَبّهم من أن تتلطّخ بيوتهم-منازل الوحى-بشىء من هذا.

ثالثًا:كان حب السيد عائشة لزوجها الرسول و غيرتها الشديدة عليه أمرًا ظاهرًا مشهودًا من الكافة،و عاشت بعده ٤٦ سنة،و روت عنه أكثر من ألفى حديث شريف.و

مـا كـان لعلـوم السُـنّة والفقـه والسـيرة والتفسـير أن يُودعهـا الله إلّا فـى أطهـر الأوعية،وأشرف المعادن.و ما كانت ترى أو يملأ عينها و قلبها من الرجال أحد سواه.

رابعًا: ثبت أن الصحابى الجليل"صفوان بن المُعَطّل"الذى اتهموه معها،كـان عـاجزًا لا يأتى النساء،وأقسم أنه لم يكشف جسد امرأة قط طيلة حياته،و كان مشـهودًا لـه بـالتقوى والعِفّـة طـوال عمـره،و مـات شـهيدًا بعـد ذلك،رضـى الله عنـه.

خامسًا: إن مَن اعتاد ارتكاب الفواحش لا يخفى أمره على جيرانه و معارفه،و قد شـهد الكافة للسيدة الطاهرة بنقاء السيرة والسريرة،و كان ممن شهدن لهـا ضرائرها،كالسـيدة زينب بنت جحش رضى الله عنه،التى قاومت غيرة النساء فى داخلهـا،و هتفـت بنزاهـة وأمانة و نُبل"أم المُؤمنين"حقّا: أحمى سمعى و بصرى.والله ما علمت عنها إلّا خيـرًا..و لو كان هناك ما يُريب لكانت الضرائر فى طليعة من ينشرنه ،للانفـراد بقلـب الـزوج.و هناك شهادة جاريتها التى قالت أنها لم تنكر على السـيدة عائشـة شيئًا،سـوى أنهـا كانـت تنام عن العجين،فتأتى الشاة فتأكله..كما كان بيت أبى بكر مثالًا للعفّـة و الطهـارة سـواء فـى الجاهليـة أو بعـد الإسـلام.

سادسًا:لو كان فيما يزعمون أي قدر من الصدق،لوثب كُفّار قريش،و صـاحوا مُؤيّـدين للإفك،و لدعموه بما يعلمون عن حياة النبى و آل أبى بكر فى مكة مـن قبـل،لكن قريشًـا رفضت الشائعات الخبيثة،وأبى القوم-رغم كفرهم و عدائهم-ترديدها،لأنهم ما علموا عن الصادق الأمين،و صاحبه الصِدّيق و بيته الشريف إلّا كل خير و طهارة و نقاء.

٦٢- حابس الفيل

طوال تاريخ البيت الحرام لم يتجرّأ أحد من قريش على منع قبائل العرب من زيارة الكعبة،سواء للحَجّ أو للعُمْرَة.فقد كانوا-رغم الكُفر والجاهلية-يُعَظّمون بقايا الشعائر الموروثة عن أبينا إبراهيم وإسماعيل،على نبينا و عليهما الصلاة والسلام.و لهذا خرج الرسول صلى الله عليه و سلم على رأس١٤٠٠ من أصحابه-فى العام السادس الهجرى- لأداء مناسك العُمرة،كغيرهم من العرب.وأحرم وأصحابه بالعُمْرَة،و ساقوا معهم الهدى- الذبائح- ليتأكّد الجميع أنهم مُعتمرون لا مُقاتلون.و علمت قريش،فثارت نعراتها،وأقسم أكابر مُجرميها،على منعه من دخول مكة،مهما سال بسبب ذلك من دماء.و كان أول من قابلهم فى الطريق"بشر بن سفيان الكعبى الخزاعى"الذى أخبر النبى عليه السلام أن قريشًا حشدت له المقاتلين فى منطقة"ذى طوى"و على رأس فرسانها خالد بن الوليد،و قد عاهدوا الله ألا يدخلها عليهم أبدًا.فقال صلى الله عليه و سلم: (يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب.ماذا عليهم لو خَلّوا بينى و بين سائر العرب،فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين،و إن لم يفعلوا قاتلوا و بهم قوّة.فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به،حتى يظهره الله،أو تنفرد هذه السالفة"كناية عن الاستشهاد") و نُلاحظ هنا شفقة الحبيب على قومه،و رحمته بهم،رغم أنهم أخرجوه و حاربوه و قتلوا أصحابه،و لا عجب فقد أرسله ربّه (رَحْمَةً للعَالمِين) فهو عليه السلام كالطبيب،يحرص على شفاء المرضى،و يستخدم ما يُمكنه من الدواء بأقل قدر،بغير كى أو بتر.وإمعانًا فى تجنّب إراقة الدماء،أمر عليه السلام دليل القافلة بسلوك طريق آخر،للابتعاد عن مكان قوات المشركين،و تفادى الصدام المُبَكّر.ووصل الركب المُبارك إلى منطقة"الحُديبية"خارج الحرم،فبركت ناقة الرسول هناك.وأزال صلى الله عليه و سلم دهشة الصحابة،حين أخبرهم أنه قد (حَبَسَهَا حابس الفيل) أى أن الله تعالى هو الذى أمر الناقة بعدم دخول الحرم،لحكمة يعلمها،كما ألهم الفيل الحبشى التوقّف و عدم دخول مكة،فى موقعة جيش أبرهة الأشرم،الذى دَمّرته الطيور الأبابيل،عقابًا له على محاولة هدم الكعبة المُشرّفَة..و عندما تَوَقّفَت ناقته"القصواء"قال صلى الله عليه و سلم:" لا تدعونى قريش إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلّا أعطيتهم إياها"و هذا تأكيد آخر لسلمية الرحلة..و شكا له الناس من عدم وجود ماء بآبار المنطقة التى أمرهم بالنزول فيها،فأعطى أحدهم سهمًا،و أمره بغرسه فى بئر جاف،فانبثق الماء غزيرًا،ليشرب الصحابة و أنعامهم..و هى معجزة نبوية ثابتة،وأقل ما يُقال عنها،إن الذى فَجّر مياه زمزم تحت قدمى جدّه إسماعيل،ثم هدى إليها جَدّه عبد المُطلب بعد مئات السنين،هو سبحانه الذى سقاه و أصحابه هذا الماء من بئر الحديبية الجاف و غيره من المواضع.

٦٣- مفاوضات الحديبية

حاول المشركون مُمارسة ضغوط على المسلمين،أو إرهابهم،أو تحسين ظروف التفاوض لصالحهم،فأرسلوا قوّة قوامها ٥٠ فارسًا،لاختطاف بعض الصحابة وأسرهم،لكن العكس هو الذى حدث،واستطاع المسلمون اعتقال أفراد القُوّة بالكامل.و كان تصرّف الرسول صلى الله عليه و سلم فى غاية النبل والتسامح والعفو عند المقدرة،فأمر بإطلاق سراحهم،وأيضًا لتتأكّد قريش من أنهم لم يأتوا للقتال،بل للعُمرة فحسب.وإزاء هذا الدليل القاطع على حسن النيّة،لان موقف الكُفّار بعض الشىء،و بدأوا فى إرسال الوفود،واحدًا تلو الآخر.جاءه أولًا وفد بزعامة حليفه بديل بن ورقاء الخزاعى(و كانت خزاعة دائمًا حليفًا لآل هاشم فى الجاهلية والإسلام) فأخبره النبى صلى الله عليه و سلم بأنهم جاءوا لزيارة البيت الحرام،و لم يأتوا لقتال.و عاد بديل بن ورقاء إلى مكة،ليخبرهم بأن المسلمين جاءوا فقط للطواف بالكعبة،و ليس للحرب،فتصايح أئمة الكفر:وإن كان لا يريد قتالًا، والله لا يدخلها علينا عُنْوَة أبدًا،و لا تتحدّث عنا العرب بذلك! ثم تلاه مكرز بن حفص بن عامر بن لؤى،فسمع من النبى ذات التأكيد بأنه جاء للعُمرة،و ليس للقتال،و عاد مكرز فأخبرهم بذلك،دون جدوى.و كان ثالث الوافدين هو الحليس بن علقمة،كبير الأحابيش-حلفاء قريش-و من الحكمة النبوية،أنه عليه الصلاة والسلام كان يعرف تعظيم الحليس للمناسك -رغم كفره- فأمر الصحابة بإطلاق الهدى (ذبائح الحُجّاج والمعتمرين) أمامه.و هاب الحليس مشهد إبل الهدى،عندما رآها تتقاطر عليه من كُل جانب،و قد تآكلت أوبارها من طول الحبس عن بلوغ الحرم،فتراجع قبل بلوغ مجلس النبى،و هرول مُسرعًا،مُطالبًا قريش بالسماح للنبى وأصحابه بزيارة البيت و ذبح الهدى عنده.و رَدّ عليه الكُفّار بغلظة و جفاء:"اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك"! فغضب سيد الأحابيش،و كان عددهم كبيرًا،و صاح:"يا معشر قريش،والله ما على هذا حالفناكم،و لا عاقدناكم..كيف تصدّون عن بيت الله مَنْ جاء مُعَظّمًا له ؟! والذى نفس الحليس بيده لتُخَلّنّ بين محمد و بين ما جاء له،أو لأنفرنّ بالأحابيش نَفْرَة رجل واحد".و خاف المشركون من انفراط عقدهم،فاضطروا إلى مُلاطفة الحليس،و طلبوا منه منحهم بعض الوقت لتدبّر الأمر..وأمّا المبعوث الرابع فكان عروة بن مسعود الثقفى،الذى راح يُهَدّد بأسلوب جاف خشن:"يا محمد،أجمعت أوباش الناس ثم جئت بهم إلى قومك لتستأصلهم بهم؟ هذه قريش بجموعها،قد لبسوا ثياب النمور،يعاهدون الله ألّا تدخلها عليهم عُنْوَة أبدًا،و كأنّى بهؤلاء-يشير إلى الصحابة-قد انكشفوا عنك غَدًا"! و كانت هذه إهانة وَقِحَة،لا يقبلها الأسود،فرَدّ عليه أبو بكر الصدّيق بنخوة المسلم والعربى الأصيل:"امصص...اللات،

أ نحـــــــــــــــــــن نفـــــــــــــــــــرّ و ندعـــــــــــــــــــــــه"؟!
و صـدق رضـى الله عنه،فقـد خاضـوا معـه الحـروب فى"بدر"و"أُحُد"و"الخنـدق"و غيرها،و جعلوا نحورهم دائمًا،فداءًا لنحره الشريف،فى أحلك الأوقات،عندما كـانوا قِلّـة مُستضعفة،فكيف يتخلّون عنه اليوم،بعد أن أعزّهم الله به،و نصرهم على أعدائهم،المَرّة تلـو الأخـرى،و هـم اليـوم أقـوى وأعَـزّ وأكثـر؟! و علـم عـروة أن مَـن يُكَلّمـه هو"أبـو بكر"فامتنع عن الرَدّ عليه،لأن أبا بكر كـان لـه عليـه فضـل و معـروف فـى الجاهليـة.و ظهر الضيق على وجه الرسول صلى الله عليه وسلم-بسبب عبـارة أبـى بكـر-لكنـه لـم ينهره،لأنه يعلم أن العربى-فضلًا عن المسلم-لا يقبل الإهانة،و يأنف من الاتهام الباطـل له بالجبن والفرار،و من الطبيعى أن ينفعل،وأن يرد بعنف على مَن يتطاول عليـه،مثلما فعل ذلك المُشرك الحِلْف.. و لم يكن هذا هو كُل ما لقى عروة.فأثنـاء الحـديث كـان يمـد يده إلى اللحية الشريفة،ففوجئ بفارس مُقنّع يضربه على يده،مُحذّرًا له من تجاوز حدود الأدب مع رسول الله:"اكفف يدك عن لحية الرسول صلى الله عليه و سلم، قبل ألّا تصل إليك"أى لا تمد يدك وإلّا قطعتها،فصاح عروة بالفارس:ما أفظّك وأغلظـك! مـن هـذا يـا محمد؟! ابتسم صـلى الله عليـه و سلم،وأجابه:هذا ابـن أخيـك"المُغيرة بـن شُـعبة"! فكـاد عروة ينفجر،من شدة الغضب والعجب معًا،إذ كيـف يفعـل بـه ابـن أخيـه هـذا مـن أجـل محمد؟! و كان عروة قد دفع ديات١٣ رجلًا قتلهم المُغيرة قبل إسلامه،فصاح يسُب ابـن أخيه:"أى غُدَر! و هل غسلت سوءتك إلّا بالأمس"؟! ثم انصرف عروة بن مسـعود إلـى المشـركين،فقال لهم:"يـا معشـر قريش.إنّـى قـد جئـت كسـرى فـى مُلكـه،و قيصـر فـى مُلكه،فوالله ما رأيت أحدًا فى مُلكه مثل محمد فى أصحابه.و لقد رأيت قومًـا لا يسـلمونه إلى شىء أبدًا.فانظروا رأيكم.و لم تستجب قريش لعروة بدوره،فأرسـل النبـى صـلى الله عليه و سلم إليهم عثمان بن عفان رضى الله عنه،ليخبرهم بـأنهم يريـدون زيـارة الكعبـة فحسب،و لم يأتوا لقتال.فأجار بنو أميـة ولـدهم- عثمـان-حتـى أبلـغ الزعمـاء الرسـالة.و عرضوا عليه الطواف بالبيت،لكنه رضى الله عنه،رفض بشـدّة قائلًا:مـا كنـت لأطـوف بالبيت قبل رسول الله صلى الله عليه و سلم..ثم حدث أمر كاد أن يقلب كُـل شـىء رأسًـا على عقب.

٦٤- بيعة تحت الشجرة

تأخّرت عودة عثمان بن عفان رضى الله عنه من مكة، و سَرت شائعة خبيثة"أن المشركين قد قتلوه".و هنا عَلّم الرسول صلى الله عليه و سلم الأُمّة أن تكون على استعداد لمُواجهة كافة الاحتمالات،حسب التطورات.وإذا كان الأصل هو السعى إلى السلام،إلّا أن هذا لا يتعارض مع التصدّى بكل شدّة و حسم للمُعتدين،و ردع مَنْ يستغل التسامح واللين و رفق المسلمين.و على المرء ألّا يسعى إلى الحرب،فإن فرضها الآخر عليه،فليكن رجلًا،و ليقاتل حتى النصر أو الشهادة.و لهذا دعا الرسول صلى الله عليه و سلم أصحابه إلى البيعة تحت الشجرة -حيث كان واقفًا- فجاءوا عن بُكرة أبيهم و بايعوه على الموت،و فى رواية لجابر بن عبد الله رضى الله عنه،أنهم بايعوه على عدم الفرار،مهما اشتدت ضراوة القتال.و بايع النبى بنفسه الشريفة عن عثمان رضى الله عنه .و قد سُمْيت هذه "بيعة الرضوان"لأن الله تعالى قد رضى الله عن الصحابة الأبرار الذين حضروها،و بايعوا الله و رسوله فيها : (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيبًا *وَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) سورة الفتحً :١٨-١٩

و ما لبث عثمان أن عاد،بعد أن أخلت قريش سبيله،فهدأت الأوضاع..ثم جاء بعده سهيل بن عمرو،أحد سادات قريش لإبرام الصلح مع النبى صلى الله عليه و سلم.و عندما رآه النبى قادمًا قال لأصحابه: (قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل) و صدق عليه السلام،فقد طلب سهيل التصالح ووقف القتال بين الجانبين عشر سنوات،وأن يرجع المسلمون هذا العام،ثم يأتون للعمرة فى العام القادم،و أن يرد النبى من يأتيه من قريش مسلمًا،بينما لا يرد المشركون أحدًا يأتيهم من المسلمين،و أن من أراد التحالف مع النبى من قبائل العرب فليفعل،و من أراد التحالف مع قريش فله ذلك.

و من الطبيعى أن تثور ثائرة الصحابة بسبب الشروط التعسفية الجائرة التى تفرضها قريش،و قد التمس الرسول صلى الله عليه و سلم لهم بعض العذر،فهم لا يعلمون ما يعلم من ربّه،و لا تستوعب عقولهم البشرية القاصرة حكمة الله و تدبيره الخفى لدينه و نبيّه..و جاء عمر بن الخطاب قائلًا:يا رسول الله،ألست برسول الله؟ أجابه:بلى،فسأل عمر:ألسنا بالمسلمين؟فردّ النبى:بلى،قال عمر:أليسوا بالمشركين؟أجب:بلى،فهتف عمر:فعلام نُعطى الدَنِيّة فى ديننا؟! و كان جواب النبى صلى الله عليه و سلم على السؤال حاسمًا :

" أنا عبد الله و رسوله ..لن أُخالف أمره..و لن يُضيّعنى "

و هذا – فيما يرى كاتب هذه السطور– نص نبوى صريح،على أن الموافقة على الصلح كانت بوحى إلهى ،فلا مجال فيها للشورى،إذ لا اجتهاد،و لا رأى لأحد مع

الـــوحى.
و كذلك بَشّر النبى أصحابه بأنهم،رغم المنـع هـذا العام،سـيأتون البيـت و يطوفـون بـه.
و هذا ما جرى،بالفعل،بعد أشهر قلائل.

٦٥- شروط الصلح

اشتد الكرب على المسلمين عندما رفض مندوب قريش كتابة"بسم الله الرحمن الرحيم"فى أول معاهدة الصلح،أو كتابة"محمد رسول الله"وأصر على محو العبارتين،و كتابة"بسمك اللهم"و"محمد بن عبد الله"لكن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يُفسد الأمر بالتمسّك بألفاظ يرفضها الكافرون.أولًا:لأن جحودهم بها لن يُقدّم و لن يُؤخّر،فالله تعالى هو الرحمن الرحيم،و محمد صلى الله عليه و سلّم هو رسوله،رغم أنوف الجنّ والإنس أجمعين..ثانيًا:لأن مكاسب الهدنة،التى سنعرضها لاحقًا،كانت أهم وأعظم من إفشالها،بسبب خلاف حول الألفاظ..و ثالثًا:لأنه كان يعلم،من الله،أنهم لن يلبثوا إلّا قليلًا،و سيُؤمنون قريبًا بما يجحدون الآن..و زاد حزن الصحابة عندما جاء"أبو جندل بن سهيل بن عمرو"ابن مندوب قريش نفسه،لحظة كتابة المعاهدة.و كان قد أسلم،و هرب من محبسه،ليلحق بالنبى وأصحابه.فقام إليه أبوه و لطمه،و صاح قائلًا:يا محمد،هذا أول ما أُقاضيك عليه،يقصد ضرورة إعادة ولده،تطبيقًا لشرط إعادة من يُسلم-بعد العقد-إلى المُشركين.و حاول النبى صلى الله عليه و سلم إقناع سهيل بترك ابنه،لأن كتابة العقد لم تنته بعد،لكنه أصرّ على موقفه، وغضب الصحابة،و صاح أبو جندل مُستغيثًا بهم،لكن النبى صلى الله عليه و سلم أفهمه أنه يحرم علينا الغدر،وأن الاتفاق مع قريش قد تم،وأوصاه بالصبر،و بشّره بأن الله تعالى سيجعل له و لأمثاله فرجًا و مخرجًا قريبًا..و بعد إبرام الصُلْح طلب عليه السلام من أصحابه الحلق،و ذبح الهدى،للتحلّل من العُمرة،فامتنعوا من شدّة الحزن.و دخل عليه الصلاة والسلام،خيمته،حزينًا.و عندما فهمت زوجته،التى كانت برفقته-السيدة أم سلمة- الموقف،أشارت عليه برأى حكيم،هو أن يخرج،فلا يُكلّم أحدًا منهم،وأن يحلق هو شعره،و يذبح هديه،ليتحلّل من العُمرة،تمهيدًا للرجوع إلى المدينة،طبقا للشروط.و ما كاد الصحابة يرون الرسول صلى الله عليه و سلم يحلق و يذبح هديه،حتى ثابوا إلى الرُشد،و تسابقوا فى الحلق و ذبح الهدى.و هكذا كان رأى أم المُؤمنين العاقلة سببًا فى القضاء على فتنة لا يعلم عواقبها إلّا الله.و سرعان ما تتابعت الأحداث،بعد ذلك،لتُثبت حكمة النبى و بركات الصبر والرفق والتأنّى.فقد أنزل الله تعالى نصّا حكيمًا يمنع تسليم المُؤمنات إلى المشركين،و لم تعترض قريش،لأن هدفهم من الشرط هو الحد من عدد المُقاتلين الذين ينضمون إلى النبى،والنساء لا تُقاتل..و من ناحية أخرى،لم يرتدّ من المسلمين،أو يلحق بالكُفّار أحد،طوال عامى الهدنة.و لو كان قد فعلها فرد شاذ،فهو

مُنافق،أبعده الله،و طَهّر الصف الإسلامى منه.و هكذا نرى أن هذا الشرط لم تكن له قيمة،و لا أثر فى مُعظم الحالات..وأمّا أبو جندل وأمثاله من المُستضعفين،فسرعان ما جعل الله لهم فرجًا و مخرجًا،من حيث لا يحتسبون،كما بَشّره النبى صلى الله عليه وسلم تمامًا.

٦٦- فتح قريب

كان"أبو بصير"عُتبة بن أسيد هو أول مُن بعثت قريش فى طلب استرداده.فقد نجح فى الإفلات من الأسر،و جاء إلى النبى صلى الله عليه و سلّم مُسلمًا،و قَدِمَ بعده رجلان من المشركين،فطالبا النبى بتسليمه.و قال النبى صلى الله عليه و سلم له:"يا أبا بصير،إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت،و إنّه لا يصلح لنا فى ديننا الغدر،وإن الله جاعل لك و لمن معك من المُستضعفين فرجًا و مَخْرجًا،فانطلق إلى قومك"فتأثر أبو بصير،و قال بحُزْن:يا رسول الله،أتردنى إلى المُشركين،يفتنوننى فى دينى؟! فكَرّر صلى الله عليه و سلم مقولته:"يا أبا بصير انطلق،فإن الله تعالى سيجعل لك و لمن معك من المُستضعفين فرجًا و مخرجًا"فأطاع أبو بصير أمر النبى صلى الله عليه و سلم،و سار مع الرجلين فى طريق العودة إلى مكة.وأثناء الاستراحة- خلال الرحلة-أبدى أبو بصير إعجابه بسيف أحد الرجلين،و طلب منه أن يراه فوافق.و بسرعة البرق استل أبو بصير السيف،و عاجل الرجل بطعنات قاتلات،و لاذ الآخر بالفرار،عائدًا إلى المدينة،مُستجيرًا بالرسول صلى الله عليه و سلم.و أقبل أبو بصير هاتفًا:يا رسول الله وَفّت ذمتك،وأدّى الله عنك،أسلمتنى للقوم،و قد امتنعت بدينى أن أُفتن فيه،أو أن يُعبث بى..لكن الرسول صلى الله عليه و سلم هتف:"ويل أُمّه محش حرب لو كان معه رجال".و"محش الحرب"هو الذى يوقدها و يتسبّب فى إشعالها.و خشى أبو بصير أن يُسلّمه النبى مَرّة أُخرى،التزامًا بالعهد،فانطلق إلى ساحل البحر الأحمر.و تسامع الجميع بما فعل أبو بصير،فلحق به سبعون من المُستضعفين فى مكة،منهم"أبو جندل بن سهيل بن عمرو"و غيره،و شَكّلُوا كتيبة شديدة البأس،للردع و التأديب والإنتقام من الكُفّار الذين عَذّبُوهم و استولوا على أموالهم..و شَنّت كتيبة الثائرين غارات مُتتاليات،على قوافل قريش القادمة من وإلى الشام.و كانت الضربات مُوجعات،و الطعنات نافذات،فاستغاث المُشركون بالنبى صلى الله عليه و سلم،للتدخّل و كَفّ هؤلاء عنهم،و ناشدوه بالله والأرحام،أن يأويهم عنده،فلا حاجة لقريش بهم.و بذلك تنازل الكُفّار من تلقاء أنفسهم عن الشرط الظالم الذى يفرض إعادة المسلمين الجدد إلى مكة.و هكذا نجح هؤلاء الأبطال فى تأديب قريش،و كسر أنفها،وإجبارها على الإذعان،وإلغاء شرط التسليم..و تحقّق ما بَشّرَ النبى به أبا جندل يوم كتابة الصلح،ثم أعاد تأكيده لأبى بصير مَرّتين:"إن الله جاعل لك و لمن معك من المُستضعفين فَرَجًا و مَخْرَجًا"و هذا –كما نرى- من دلائل النبوة..و لم يبق من شروط الصلح سوى وقف القتال عشر سنوات،والسماح للنبى وأصحابه بأداء العُمرة فى العام القادم،وإعطاء الحرية لمن شاء من العرب فى التحالف مع النبى،أو الانضمام إلى قريش.و قد انضمت"خزاعة"مسلمها و كافرها إلى النبى-كعادتها مع بنى هاشم منذ عشرات السنين- بينما تحالف"بنو بكر"مع المشركين..و كانت ثمار الهدنة

عظيمة،بل اعتبرها كبار العلماء والمُؤرّخين فتحًا كبيرًا..فخلال سنتين فقط، بعد الهدنة،أسلم أضعاف من كانوا أسلموا طوال١٩سنة كاملة قبلها،هى كل ما مضى من عمر الإسلام.و يصف الإمام الزهرى رضى الله عنه صُلْح الحديبية قائلًا:"فما فُتِح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه..إنما كان القتال حيث التقى الناس..فلمّا كانت الهُدنة،و وُضعت الحرب،و أَمِنَ الناس بعضهم بعضًا،و التقوا فتفاوضوا فى الحديث و المُناقشة..فلم يُكَلّم أحد يعقل شيئًا فى الإسلام إلّا دخل فيه..و لقد دخل فى هاتين السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك و أكثر"انتهى.و يُؤكّد ابن هشام-راوى السيرة عن ابن إسحاق-رضى الله عنهما،كلام الإمام الزهرى،بدليل حاسم،هو أن عدد من كانوا مع النبى فى الحديبية ١٤٠٠ حسب رواية جابر بن عبد الله،بينما خرج معه بعد عامين أكثر من عشرة آلاف فى فتح مكة.أى سبعة أمثال مَن أسلموا قبل الصُلْح.و صدق الله العظيم القائل فى مُحكم التنزيل :

(لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا). سورة الفتح:٢٧

٦٧- درس فى حقن الدماء

كان من أسباب إبرام صُلْح الحديبية،ما أخبرنا به القرآن الكريم فى قوله تعالى:
(وَ لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥).سورة الفتح..فقد كان بمكة مسلمون و مسلمات يكتمون إيمانهم،و لو أذن الله لرسوله وأصحابه باجتياح الحرم،لسُفِكَت دماء زكية كثيرة،هى دماء هؤلاء المؤمنين والمُؤمنات وأطفالهم جميعًا،فضلًا عن آخرين يُفكّرون فى اعتناق الدين الحنيف،و قد أسلموا بالفعل لاحقًا.و هذه الحالات الأخيرة يُشير إليها قوله تعالى:
(لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ) فالهدف الأول للإسلام هو هداية الناس،و ليس الانتقام،و لا تصفية الحسابات.ولابد من التأنّى وإمهال غير المسلمين وقتًا كافيًا، لأن العقول تتفاوت فى إدراك الحَق،و كثيرون لا يُغَيّرون عقائدهم بسهولة و سرعة.
و لا يمكن السماح بإراقة دماء المُؤمنين-المجهولين عند جيش المسلمين-فى سبيل النيل من المُشركين..و مذهب الإمامين مالك والشافعى و غيرهما هو عدم جواز رمى الكُفّار أو حرق حصونهم إذا كانوا يحتجزون أسرى من المسلمين،ويتخذونهم تروسًا- دروعًا بشرية بلغة عصرنا-و كما نرى فإن الإمامين العظيمين قد حرصا على حقن الدماء- رغم حالة الحرب- إذا تعذّر الفصل بين المسلمين و غيرهم.

٦٨- فتح خيبر

كانت فلول يهود المدينة قد لاذت بحصون"خيبر"التى تَحَوّلت إلى وكر لتدبير المُؤامرات،و إعداد حشود لمهاجمة المدينة،عندما تسنح الفرصة.و لم يكن من الحكمة الانتظار حتى تُعاود جحافل غطفان و معها يهود خيبر،مُحاصرة المدينة،على غرار ما حدث فى غزوة الخندق،بل الصواب هو توجيه ضربة استباقية لإجهاض المُؤامرات،والقضاء على هذا الخطر الداهم إلى الأبد.و تحقيقًا لهذا الهدف،خرج النبى صلى الله عليه و سلم بجيش كبير،بعد صُلْح الحُديبية بشهرين،لفتح"خيبر"و ذَك آخر قلاع اليهود فى جزيرة العرب..و من الحكمة النبوية أيضًا أنه،عليه السلام،نزل بالجيش فى وادى"الرجيع"الذى يقع بين منازل غطفان و بين خيبر،و بهذا قطع خطوط الإمداد والاتصال بين الحليفين.و من تدبير الله تعالى لنبيّه أن غطفان كانت قد خرجت بالفعل للانضمام إلى اليهود فى المعركة،فأرسل الله تعالى جنودًا لم يرها أحد،أحدثت جلبة و ضجيجًا خلف مُؤخّرة الغطفانيين،فاستبد بهم الرُعب،و ظَنّوا أن المسلمين قد غَيّروا اتجاههم،و هاجموا ديارهم بعد خروجهم،و سرعان ما عادوا إلى مساكنهم،لحماية أموالهم و نسائهم،و تركوا يهود خيبر لمصيرهم المحتوم.و كانت لمحمد بن مسلمة،والزبير بن العوام،و على بن أبى طالب و غيرهم مواقف مشهودة فى الغزوة.فقد بارز محمد بن مسلمة رضى الله عنه"مرحبا"و هو أشد وأقوى فرسان خيبر،و كان من المعدودين فى الجزيرة العربية بأسرها.وأعان الله بن مسلمة عليه،فصرعه بعد مُبارزة ضارية.((و هناك رواية أخرى تقول أن عليا رضى الله عنه هو الذى بارز مرحبا و قتله)) ثم جاء بعد"مرحب"أخوه"ياسر"و طلب المُبارزة،فخرج إليه الزبير بن العوّام،وألحقه بأخيه بعد قتال تشيب لهوله الولدان.و كان هلاك مَرْحب و شقيقه ضربة ساحقة،انهارت بسببها الروح المعنوية لليهود،فضلًا عن شدّة الحصار الذى فرضه المسلمون عليهم،فاستسلم عدد من الحصون.وأمّا علىّ رضى الله عنه،فقد شهد النبى صلى الله عليه و سلم له فى خيبر،إذ قال:"لأُعطينّ الراية غدًا رجلًا يحب الله و رسوله،يفتح الله على يديه،ليس بِفَرّار"و تطلّع إليها الجميع،لكن الرسول استدعى عليًّا،و كان مريضًا بالرمد،فتفل النبى صلى الله عليه و سلم فى عينيه،فشفاه الله فى الحال،ثم أعطاه الراية ليفتح أصعب الحصون،قائلًا له"خذ هذه الراية،و امض بها،حتى يفتح الله عليك"..و هنا حديث شريف آخر،بالغ الأهمية-رواه البخارى و مسلم و غيرهما- يُثبت بوضوح أن الإسلام يسعى أولًا إلى هداية الناس قبل أى اعتبار آخر،فقد سأل علىّ النبى صلى الله عليه و سلم،عما يفعل مع اليهود،و هل يُهاجمهم على الفور،أم يدعوهم إلى

الإسلام أولًا ،فأمره بدعوتهم أولًا قبل القتال،و قال له:"انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام،وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه..فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم".و هى أغلى أنواع الإبل عند العرب،والمعنى أنه: إذا جعله الله سببًا فى هداية شخص واحد،فهذا أفضل له من كل أموال الدنيا و حطامها الفانى.و قد فعل علىّ ما أمره به النبى عليه السلام،لكن إخوة القردة والخنازير أصرّوا على الكُفر والعناد و القتال،فأعانه الله عليهم،واقتحم أعتى حصونهم وحده،و خلع بابه،و حمله ليتخذه درعًا،يصد به ضربات سيوفهم،حتى فتح الحصن،و دخله و تلاه باقى المسلمين،ثم سقطت الحصون التالية بعده بسهولة. ويقول أبو رافع-مولى النبى-أنه حاول مع سبعة رجال آخرين،بعد إنتهاء المعركة،حمل هذا الباب الذى كان علىّ يحمله و يتخذه ترسًا،فما استطاعوا أن يرفعوه أو يقلبوه ! و كما نرى ، فتلك بدورها كانت معجزة ثابتة- و من دلائل النبوة- ببركة الدعاء الشريف.

٦٩- دروس من غزوة خيبر

أثبتت غزوة خيبر استحالة تخلّى اليهود عن العداوة والغدر والخِسّة،حتى بعد أن استسلموا و اتفقوا مع النبى صلى الله عليه و سلم على زراعة أراضى المنطقة،مقابل نصف الثمار.فقد عمدت امرأة منهم إلى وضع السُمْ فى ذراع شاة،أهدتها إلى النبى صلى الله عليه و سلم.و ما كاد عليه السلام يضع قطعة من اللحم فى فمه الشريف،حتى لفظها،بعد أن علم بوحى من رَبّه أنها مسمومة.و كان الصحابى الجليل بشر بن البراء بن معرور معه،وأكل من الشاة،فاستشهد على الفور،لشدّة و كثرة السُم الموضوع بالطعام.و تم القبض عليها،و اعترفت بجريمتها النكراء،و قالت تبريرًا لذلك:"قلت إن كان ملكًا نستريح منه،وإن كان نبيًّا فسيخبره الله".و يُروى أنه صلى الله عليه و سلم قد عفا عنها.و ذكرت رواية أخرى أنها قُتلت على سبيل القصاص لبشر بن البراء رضى الله عنه..وقد تزامنت غزوة خيبر مع عودة جعفر بن أبى طالب والمُهاجرين معه من الحَبَشَة..و عن هذا قال صلى الله عليه و سلم: (ما أدري بأيهما أنا أُسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟) كما أخبر عليه الصلاة والسلام مهاجرى الحبشة بأن لهم أجر هجرتين،و للباقين أجر هجرة واحدة.

و من الأحكام الشرعية التى نزلت فى خيبر،أنه صلى الله عليه و سلم نهى عن زواج "المُتعة"و هو الزواج المُؤقت-بالنَصّ على زمن مُحدّد فى العقد- و حَرّم أكل لحم الحمير الأهلية-التى يقتنيها الناس للركوب و غيره من الأغراض- وأباح لحم الخيل.و فى غزوة خيبر أيضًا أكّدَ صلى الله عليه و سلم منهج الإسلام فى تحرير الرقيق،بزواجه من السيدة صفيّة بنت حُيى بن أخطب.و كانت قد وقعت فى الأسر،بعد هزيمة قومها،و رآها الصحابة،فقالوا :يارسول الله،هذه بنت سيد اليهود،ما تصلح إلا لك،فأعتقها صلى الله عليه و سلم،و تزوجها،و جعل عتقها مهرها،فصارت هذه سُنّة-كما قال الإمام ابن القيّم-أى أن يعتق الرجل جاريته ثم يتزوجها،و يكون مهرها هو العتق.و فى هذا إثبات أيضًا لحقيقة أن الإسلام لا يشقى به من كان عزيزًا قبله،بل يزيد الشريف شرفًا،و يرفع المملوك على عرش الملوك،على حَد قول ابن عباس رضى الله عنهما، فى مُناسبة أخرى.و كانت السيدة صفية قد رأت -قبل غزوة خيبر-فى منامها أن القمر وَقَعَ فى حِجْرِهَا،و حكت لزوجها اليهودى الرؤيا،فلَطَمَها بجنون و حقد،و صاح:تتمنيّن ملك يثرب ؟! (يقصد النبى صلى الله عليه و سلم) و شاء الله تعالى أن تَتَحَقّق الرؤيا سريعًا،فقُتِل زوجها فى الغزوة،و أنقذها الرسول صلى الله عليه و سلم من الرِقْ،و أعتقها و تزوّجها،لتُصبح واحدة من أمهات المُؤمنين..و عاشت معه محلًا للمودة و التكريم والحفاوة،و كان يغضب إذا دفعت الغيرة منها الأُخريات إلى التعريض بأصلها اليهودى،و يُعَلّمها أن تقول رَدّا عليهم بكُل فخر: (أبى هارون –و كانت من نسله- و

زوجى محمد).و سيُؤتيها الله أجرها مَرّتين،مثلها فى ذلك مثل أىّ شخص من أهل الكتاب يعتنق الإسلام،بنص القرآن الكريم:
(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَ يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) سورة القصص.

٧٠- عُمرة القضاء

فى ذى القعدة من العام السابع الهجرى خرج النبى صلى الله عليه و سلم وأصحابه لأداء عُمرة القضاء،بدلًا من العُمرة التى حالت قُريش بينهم و بين انجازها.واضطر أكثر المُشركين إلى الخروج من مكة،كى لا يروا بأعينهم أُولئك المُطاردين المُستضعفين السابقين،يطوفون بالكعبة المُشرّفة،و يسعون بين الصفا والمروة،أعِزّة آمنين..و لم يبق لهم من حيلة للتشفّى و التنفيس عن الحقد المسعور،سوى إطلاق الشائعات،فزعموا أن المسلمين قد أضعفتهم حُمّى المدينة.و كان أفضل رَدّ على الشائعة،هو أن يُهرول المُعتمرون خلال الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف،حول البيت الحرام،و كُل منهم يكشف منكبه الأيمن،لتظهر قوتهم و عافيتهم للكافة،فدعا صلى الله عليه و سلم تشجيعًا لأصحابه،بأن يرحم الله من يريهم من نفسه قُوّة.و كان لدُخُول النبى صلى الله عليه و سلم وأصحابه مكة،لأداء العمرة،والبقاء ثلاثة أيام بها،طبقًا للمعاهدة،دلالات وإشارات عُظمى.فقد علم سائر العرب أنّه لا سبيل إلى حصار الإسلام،أو القضاء على المسلمين،بعد أن ضعفت شوكة قريش،واشتدّت سواعد المُوحّدِين،و تضاعفت أعدادهم،و كثرت الوفود التى تتقاطر على المدينة،لمُبايعة النبى صلى الله عليه و سلم.و فى داخل قريش ذاتها بدأ كثير من الكافرين فى مراجعة النفس،و دراسة الإسلام والقرآن،فأفاقوا و أقلعوا عن العناد و الغى و الضلال.و من هؤلاء –على سبيل المثال و ليس الحصر- خالد بن الوليد و عمرو بن العاص و عبد الله بن أبى أمية و أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.فقد أسلم هؤلاء و غيرهم،فى الأشهر القلائل ما بين عمرة القضاء و فتح مكة،بعد أن تبيّن لهم أنه لا إله إلا الله حقّا و يقينًا،وأن محمدًا عبده و رسوله..و خلال وجوده بمكة،لأداء العُمرة،تزَوّج عليه السلام السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية،و دخل بها بعد التحلّل من المناسك،فى موضع خارج مكة"سَرَف"و هو ذات الموضع الذى توفيت فيه رضى الله عنها،بعد ذلك بسنوات! و السيدة ميمونة هى أخت"أم الفضل"زوج العباس بن عبد المطلب،عم النبى صلى الله عليه و سلم.و كما نرى ففى زواج النبى و ميمونة تأليف لقلوب أفراد قبيلتها "بنى هلال"إحدى القبائل العربية الكُبرى،و تشريف لهم..و كانت المُصاهرة الكريمة سبَبًا فى إسلام مَن لم يكونوا قد أسلموا منهم.و فى الزيجة أيضًا تكريم للعباس و زوجته وأولادهما.و كذلك كانت السيدة ميمونة أرملة،و كان فى اقتران الحبيب بها جبرًا لخاطرها،كما حدث مع أخواتها الأُخريات،أمهات المؤمنين،فقد كان مُعظمهن من الأرامل،و ليس بينهن بِكْر سوى السيدة عائشة،و مُطلّقة واحدة هى السيدة زينب بنت جحش.و كان للزيجة المباركة أثر فعّال على نفس ابن أختها الأخرى،خالد بن الوليد ،الذى أسلم بعدها بشهور-كما أشرنا-رضى الله عن الجميع.

& للمزيد عن أمهات المؤمنين،و ظروف زواجه صلى الله عليه و سلم بكل منهن،يمكن الرجوع إلى فصل"زوجات النبى"فى كتاب"زوجات لا عشيقات-التعدّد الشرعى ضرورة العصر"للمؤلف،و هو مُتاح مجانا فى كثير من المكتبات الإسلامية على الإنترنت.

٧١- سَرِيّة الأُسُود

يُعتبر ما سطره المُؤرّخون الغربيّون،و بعض مُؤرخينا الساذجين،عن موقعة"مُؤتة"مثالًا لأخطاء تسجيل و تحليل التاريخ،سواء كان هذا عَمدًا،أم بغفلة و سوء فهم.و لنبدأ بسبب بعث السَرِية،و هو أن نصارى الشام قتلوا"الحارث بن عمير"مبعوث النبى صلى الله عليه و سلم إلى ملك"بصرى".و من المُتعارف عليه،فى كل زمان و مكان،أن قتل المبعوثين والرُسُل يُشَكّل عملًا همجيًّا عدائيًّا،بل هو بمثابة إعلان حرب..والثأر من القاتل هنا ليس عُدوانًا،و لا ظُلْمًا بأى حال،و من المنطقى أن يكون الرَدّ علي الجريمة،هو تجريد حملة للقبض على القاتل والقصاص منه.و هذا ما فعله النبى صلى الله عليه و سلم،إذ أرسل سرية،قوامها ٣ آلاف مُقاتل،و رَتّب لها ثلاثة من القادة،هم على الترتيب:زيد بن حارثة،فإن أُصيب يحل محله جعفر بن أبى طالب،فإن أُصيب يخلفه عبد الله بن رواحة،رضى الله عن الجميع.وأوصاهم بأن يأتوا مكان استشهاد الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا،وإلا استعانوا بالله عليهم،و قاتلوهم..وقال لهم: (اغزوا بسم الله، في سبيل الله،مَنْ كفر بالله..لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأةً،و لا كبيرًا فانيًا، ولا مُنعزلًا بصومعة، ولا تقطعوا نخلًا ولا شجرةً، ولا تهدموا بناءً).و نُلاحظ هنا أنه عليه الصلاة والسلام قد أمر جنوده بالتزام هذه المبادىء النبيلة،وأخلاق المُجاهدين الرفيعة،رغم أن الآخرين غدروا بمبعوثه و قتلوه غيلة و خِسّة بلا ذنب.و هذه الكلمات الخالدات تعتبر دستورًا لمبادىء الحرب فى الإسلام،فهى للإصلاح لا للخراب،و للدفاع لا للعدوان،و تستهدف ردع الطاغين،و ليس إيذاء المدنيين المُسالمين..و فى كُل الأحوال،لابد من احترام حقوق الإنسان،و لو أثناء القتال.و عندما وصلت السرية إلى منطقة"مُؤتة"فُوجئت بحشود هائلة للرومان و نصارى العرب،تزيد على مائتى ألف مُقاتل،مُزوّدين بكُل أنواع العتاد والأسلحة،أى أنهم يبلغون سبعين ضعف جيش المسلمين الصغير.و هنا تشاور المسلمون،واقترح بعضهم التوقّف وإرسال رسالة سريعة إلى النبى صلى الله عليه و سلم،ليبعث إليهم بمَدَد عاجل،أو ليأمر بما يرى.و لكن أسود المُهاجرين والأنصار زأرت،رافضة التراجع،بغير مُنازلة جحافل الرومان،مهما بلغت التضحيات..و صاح البطل الشهيد الشاعر عبد الله بن رواحة:"يا قوم،والله،إن التي تكرهون لَلَّتِي خرجتم تطلبون،الشهادة..و ما نقاتل الناس بعدد و لا قوة و لا كثرة..ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به.انطلقوا،فإنما هي إحدى الحسنيين،إما نصر وإما شهادة"و كان لكلمات ابن رواحة تأثير عظيم على نفوس الجميع،فاستقر الرأى على الثبات،و مُواجهة الموقف بشجاعة،والصمود مهما كانت النتائج.

٧٢- مُعجزة عسكرية فى مُؤتة

واجه ٣ آلاف من المسلمين أكثر من مائتى ألف من الرومان،أى أن كل جندى مسلم حارب ٧٠ روميًا !! و أى خبير عسكرى فى العالم سيجزم بأن النتيجة المُؤكّدة هى إبادة سرية المسلمين عن بُكْرَة أبيها خلال ساعات لا أكثر،لكن هذا لم يحدث ! وأحسب أن ما أثار اللغط حول الموقعة هو استشهاد قادة المسلمين الثلاثة،زيد بن حارثة،و جعفر بن أبى طالب،و عبد الله بن رواحة،الواحد تلو الآخر،رضى الله عنهم.و سبب استشهادهم ليس هزيمتهم،و لكنه حرصهم على القتال فى الصفوف الأولى،وإصرارهم على نيل درجة الشهادة العظمى.و قد نعاهم الرسول صلى الله عليه و سلم فى المدينة،قبل ورود الأخبار من جبهة القتال بعدها بشهر.كما بَشّر أصحابه بتولّى خالد بن الوليد"سيف الله المسلول"القيادة،و نجاحه فى الصمود أمام الرومان،حتى إنتهاء المعركة،و هذه معجزة أخرى من دلائل النبوة.

و لا يعلم كثيرون أن المُواجهات الضارية استمرت خمسة أيام،أظهر المسلمون خلالها صُمُودًا أسطوريًا غير مسبوق فى التاريخ.و لجأ خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى استخدام عدة حيل و تكتيكات خداعية،أجبرت جحافل الروم على التراجع.فقد قام بتغيير مواقع جنوده،فوضع أهل الميمنة على اليسار،و حرّك اليسار إلى مكان الميمنة،كما كَلّف مجموعة من الجنود بإحداث جلبة و غبار كثيف خلف المسلمين،مع التكبير بأصوات مُدوّية،فاستبد الرُعب بالروم،و ظنّوا أن المسلمين قد جاءتهم إمدادات كبيرة،فاضطّروا إلى التراجع عن المواقع الأمامية،والابتعاد عن ساحة القتال،خشية الالتفاف حولهم.و لذات السبب خافوا من مُطاردة المسلمين،أثناء انصرافهم إلى الصحراء،لأنهم حسبوها مكيدة من خالد رضى الله عنه.فابتعد كلا الجيشين عن المكان تدريجيًّا،و لم يُطارد أحدهما الآخر،و بذلك انتهت الموقعة.و ما زالت تكتيكات"سيف الله المسلول"محلًّا للدراسة فى أرقى المعاهد العسكرية المُعاصرة،فقد كانت من الفنون الحربية الفريدة،التى لم يبتكرها أحد قبله،رضى الله عنه..أضف إلى هذا أن جميع من استشهدوا من المسلمين ١٢ بطلًا فقط،مُقابل ٣٤٠٠ قتيلًا رومانيًّا،و لم ينجح الرومان فى أسر جندى مسلم واحد،رغم التفوّق العددى الكاسح ! فإن كان المقياس هو حجم الخسائر،فكما نرى بلغت خسائر الروم حوالى ٣٠٠ ضعف خسائر المسلمين.وإذا كانت العبرة بسحق أحد الجانبين للآخر،فإن هذا لم يحدث..و الحرب كَرّ و فَرّ..

بل يمكن اعتبار الموقعة نصرًا للمسلمين،على ضوء أنهم حقّقوا أكثر من هدفهم،و هو القصاص من قاتل مبعوث النبى و قومه الذين ظاهروه،و بدلا من إعدام قاتل واحد أمكنهم الله من رقاب ٣٤٠٠ فى تلك المعركة.و لأن مَنْ رأى ليس كَمَن سمع -و رغم الخسائر الهائلة التى ألحقوها بالكُفّار-فقد ثار الأطفال والنساء فى المدينة على أفراد

السرية بعد عودتهم،لأنهم لم يعلموا ظروف الموقعة،و لا حجم الجيش الرومانى الضخم،كما أنهم لم يقبلوا ما ظَنّوه هزيمة،تحت أى ظرف،و لو كان المُقابل هو استشهاد الجميع..لكن الرسول صلى الله عليه و سلم،تدخّل لتصحيح المفاهيم،و نفى عن الأبطال تهمة الفرار،و أكّد أنّهم هم (الكُرّار إن شاء الله).

و قد وقع ما بَشّرَ به عليه السلام،إذ قاد-بنفسه الشريفة-جيشًا إلى"تبوك"بعد"مؤتة"بقليل،و هرب الروم من مُواجهتهم..ثم بعد ذلك بسنوات قلائل،سحقهم المسلمون،بقيادة خالد بن الوليد،نفسه،وألحقوا بهم عدة هزائم تاريخية،أشهرها"اليرموك"و طردوهم من جميع أنحاء الشام إلى غير رجعة.و بهذا تحقّقت رؤيا السيدة آمنة،التى رأت فيها نورًا يخرج من جوفها، ليُضىء قصور"بصرى"بالشام،و هو ذات ما أخبر به النبى أصحابه،فى أحلك أوقات الخوف والحصار،فى ليالى موقعة"الخندق".و صدق الله العظيم : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا)

سورة الفتح:٢٨

٧٣ - قريش تنقض العهد

بعد عامين من صُلْح الحُديبية نقضت قريش العهد.فقد غدر"بنو بكر"حلفاء قريش بقبيلة"خُزَاعَة"حلفاء الرسول صلى الله عليه و سلم،و شَنّوا هجومًا مُفاجئًا عليها-بمساعدة المشركين-فقتلوا بعض أفرادها وأصابوا آخرين و نهبوا مُمتلكاتهم.و جاء وافد الضحايا و شاعرهم عمرو بن سالم الخزاعى إلى المدينة،وأنشد مُستغيثًا بالنبى قصيدة مطلعها:"يا رب إنّى ناشد مُحمدًا & حلف أبينا و أبيه الأتلدا" يشير بذلك إلى تحالف خزاعة مع بنى هاشم فى الجاهلية ثم الإسلام.و مَن يُغيث المكروب،و يدفع الله به الخطوب،إلّا سيد الأوّلين و الآخرين ؟

و على الفور أجابه النبى صلى الله عليه و سلم:"نُصرت يا عمرو بن سالم"وأشار عليه الصلاة والسلام إلى سحابة ظهرت فى السماء قائلًا:"إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب"أى خُزَاعَة..و هذه الكلمات الشريفات تعنى بوضوح إنتهاء الهدنة،و ضرورة القصاص من القَتَلَة.و من أدلّة النبوّة أيضًا أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه:"كأنّكم بأبى سفيان قد جاءكم،ليشدّ العقد و يزيد فى المُدّة" أى أنه سيأتى مُحاولًا إصلاح الأمر،و سد الخرق،و تثبيت العقد.و لم يكن أبو سفيان قد خرج من مكة بعد،عندما أخبر النبى أصحابه بقدومه..و ما هى إلّا أيام حتى جاء زعيم قريش إلى المدينة-بالفعل-مُحاولًا الاعتذار عن الإعتداء على"خُزاعة"فى الحرم،و تأكيد الهدنة.و بدأ بمنزل ابنته أم المُؤمنين السيدة"أم حبيبة بنت أبى سفيان"و عندما أراد الجلوس على فراش الرسول صلى الله عليه و سلم، فُوجىء بابنته تنتزع الفراش من تحته !

سألها مُستنكرًا:ما أدرى يا بُنَيّة،أرغبت بى عن هذا الفراش،أم رغبت به عنى؟! فردّت بحزم و بلا تردّد: بل هو فراش رسول الله،و أنت مُشرك نجس،و لم أحب أن تجلس على فراشه صلى الله عليه و سلم.فقال بانكسار:و الله لقد أصابك يا بُنَيّة بعدى شَرّ.

و هكذا تكون المُؤمنة الحَقّة،فالله و رسوله أحب إليها من أمّها وأبيها و نفسها و بنيها.و لا عجب فهى من المُهاجرات الأُوُليات،فى سبيل الله،إلى الحبشة،رضى الله عنها.و خرج أبو سفيان من بيت ابنته مخذولًا،فذهب إلى الرسول صلى الله عليه و سلم فى مجلسه،و لكن النبى لم يرد عليه بشىء.فانصرف إلى أبى بكر،و رفض الصديق أن يشفع له عند النبى.و كان رد عمر بن الخطاب رضى الله عنه على زعيم المشركين أقسى و أشدّ: أنا أشفع لكم عند رسول الله صلى الله عليه و سلم؟! و الله لو لم أجد إلّا الذّر-الحصى- لجاهدتكم به.فمضى أبو سفيان إلى علىّ بن أبى طالب و زوجته السيدة فاطمة،و كان ابنهما الحسن صغيرًا يلعب إلى جوارهما،و طلب من علىّ الشفاعة عند

النبى،لكن عليًّا أجابه:ويحك يا أبا سفيان..والله لقد عزم الرسول صلى الله عليه و سلم على أمر ما نستطيع أن نُكَلّمه فيه.فالتفت أبو سفيان إلى السيدة فاطمة قائلًا:يا ابنة محمد،هل لك أن تأمرى ابنك هذا،فيُجير بين الناس،فيكون سيد العرب إلى أبد الدهر؟ فردّت السيدة فاطمة بحسم: والله ما بلغ ابنى ذاك،و ما يُجير أحد على رسول الله صلى الله عليه و سلم.وألحّ أبو سفيان فى طلب مشورة علىّ،فاقترح عليه أن يذهب إلى المسجد،و يُعلن أنّه قد أجار بين الناس..و فعل أبو سفيان ذلك،وانصرف إلى مكة.و عندما حكى لباقى زعماء المشركين ما جرى،و ما فعله بمشورة علىّ،سألوه:و هل أجاز محمد جوارك للناس؟ فلمّا أجاب بالنفى،صاحوا به:والله ما زاد الرجل على أن لعب بك،فما يُغنى عنك ما قلت..و هكذا فشلت كل مُحاولات تثبيت الهُدنة (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) سورة الأنفال:٤٤

٧٤ - إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ

خرج النبى صلى الله عليه و سلم على رأس جيش قوامه عشرة آلاف من الصحابة،و دعا رَبّه ألّا تعلم قريش بخروجه،ليُداهم المُشركين على حين غِرّة،فلا يجدون وقتًا للاستعداد للقتال،و يُضطّرون إلى الاستسلام ،حقنًا للدماء.و قد فشلت مُحاولة"حاطب بن أبى بلتعة"لتحذير قريش،إذ أوحى الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه و سلم بأمره،و تم القبض على المرأة حاملة الرسالة إلى قريش،فور خروجها من المدينة.و اعتذر حاطب بوجود أولاده وأهله هناك،و أنه أراد أن يتّخذ عند المشركين معروفًا،حتى لا يمسّوا أسرته بسوء.و طالب عمر بن الخطاب بإعدام حاطب لخيانته،و لكن الرسول صلى الله عليه و سلم عفا عنه،و قال للفاروق:"إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا،و مَا يُدْرِيكَ،لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ،فَقَالَ:اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ "رواه البخارى و مسلم و غيرهما.و كان حاطب من السابقين المُقاتلين فى غزوة بدر و غيرها..و طالما أنه قد تم منع وصول الرسالة إلى قريش،و لم يحدث منها ضرر،فالعفو مأمول عند الرسول،و قد تاب الرجل،فلا فائدة من إعدامه.و جاء العباس بن عبد المطلب بأهله وأولاده مُسلمًا.و رأى الحشود الهائلة،فأشفق على قومه،وأراد أن يقنعهم بالدخول فى الإسلام و عدم القتال،حتى لا يسحقهم الجيش الجَرّار.فركب بغلة النبى البيضاء،و وَجَدَ أبا سفيان فى الطريق،فأردفه خلفه،عائدًا به إلى النبى صلى الله عليه و سلم،و منع الفاروق من قتل زعيم المشركين،لأنه قد أجاره.و أسلم أبو سفيان،بعد حوار قصير مع النبى صلى الله عليه و سلم..و بعد رؤية الأعداد الهائلة،تأكّد من عدم جدوى المُواجهة،و قَرّر العودة إلى مكة لإقناع الجميع باستحالة المُقاومة.و هنا نلمح فطنة العباس رضى الله عنه،إذ أراد تأليف قلب زعيم المُشركين،فطلب من النبى صلى الله عليه و سلم أن يُؤثر أبا سفيان بشىء،ارضاءًا لغروره و حُبّه للفخر.واستحسن صلى الله عليه و سلم اقتراح عَمّه، فاستجاب له،و قال قولته الحكيمة الخالدة:"نعم،من دخل دار أبي سفيان فهو آمن،ومن أغلق عليه داره فهو آمن،ومن دخل المسجد فهو آمن"
و كما نرى فإن تأمين بعض المشركين الداخلين فى دار أبى سفيان سيرضى غروره،و لن يضر الإسلام بشىء.و فى ذات الوقت كانت رسالة سلام،لتهدئة الجميع،و حقن الدماء،فلن يُقاتل المسلمون إلّا مَن يُصِرّ على حمل السلاح ضدهم.و قد فطن الكُفّار لهذا فصاحوا بأبى سفيان:ويحك ! و ما تُغنى عنّا دارك ؟! فأخبرهم بتأمين كُل من يلزم بيته،و كُل من يلوذون ببيت الله الحرام،وأن النبى صلى الله عليه و سلم لن يُقاتل إلّا مَن يقاتله.و من نتائج الحكمة النبوية أن كلماته تلك التى أبلغها أبو سفيان،أقنعت قريشًا بالاستسلام،و احتمى معظمهم ببيوتهم أو بالكعبة،إلّا قليلًا منهم،تَفَوّقت عليهم فرقة من المسلمين،بقيادة خالد بن الوليد،وأخمدت مُقاومتهم المُسلّحة.و هكذا سيّطر المسلمون

علـــــــى جميـــــــع أنحـــــــاء مكّـــــــة المُكَرّمـــــــة بـــــــلا دمـــــــاء..
و صـــــــــــــــــــــــدق الله العظـــــــــــــــــــــــيم:
(إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (١١) وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًـا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) سورة النصر.

٧٥- جاء الحق و زَهَقَ الباطل

دخل صلى الله عليه و سلم مكة،خافضًا رأسه،مُتواضعًا لرَبّه،حامدًا له على نعمته و فضله و نصره.و طاف بالبيت سبعًا.ثُم دعا عثمان بن طلحة حاجب الكعبة،فأخذ منه المفتاح،و دخلها،وأمر بإزالة ما فيها من صور و تماثيل المُشركين،و صلى فيها بعد تطهيرها منها.و سأله على بن أبى طالب أن يُعطى المُفتاح لآل هاشم،لكنه صلى الله عليه و سلم رفض استغلال الانتصار فى سلب آل طلحة حجابة الكعبة بالقُوّة،و قال لعثمان بن طلحة،و هو يُعيد إليه المفتاح:"هاك مفتاحك يا عثمان..اليوم يوم وفاء و بِر".و ذكر الحافظ ابن حجرالقصة-في"فتح البارى"-قائلا:"و روى ابن عائد أن النبي،صلى الله عليه وسلم،دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان [بن أبي طلحة] فقال:"خذوها-الحجابة-خالدة مخلدة،إني لم أدفعها إليكم،ولكن الله دفعها إليكم، ولا ينزعها منكم إلا ظالم"..و من طريق ابن جريج أن عليًا قال للنبي-صلى الله عليه وسلم: اجمع لنا الحجابة و السقاية،فنزلت الآية الكريمة: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا }.سورة النساء:٥٨،فدعا النبى عثمان،و قال له:"خذوها يا بني شيبة خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم". و حان وقت الصلاة،فأمر الرسول صلى الله عليه و سلم بلالًا الحبشى بأن يُؤذّن بصوته الجميل النَدِىّ.و صُعق زعماء المُشركين حين سمعوا صوت العبد السابق الذى كانوا يُعَذّبونه و يفعلون به ما شاءوا مِن قبل.و قال أحدهم"عَتّاب بن أسيد"لأبى سفيان:لقد أكرم الله أسيدًا-والده-ألّا يكون سمع هذا.و قال آخر هو"الحارث بن هشام":والله لو أعلم أنه-يقصد النبى-على حَق لاتبعته.وأمّا ثالثهما"أبو سفيان"فرفض التعليق،و قال:لا..لن أقول شيئًا..لو تكلّمت لأخبر عنّى هذا الحصى.و جاء النبى صلى الله عليه و سلم،فأخبرهم بما قاله كُل واحد منهم،فهتف عَتّاب والحارث:نشهد أنك رسول الله..والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا،فنقول أنه هو الذى أخبرك.و قام عليه الصلاة والسلام على باب الكعبة،فحمد ربّه،وأثنى عليه بما هو أهل له،ثم سأل المُشركين:يا معشر قريش،ما ترون أنّى فاعل بكم ؟فأجابوه:خيرًا..أخ كريم و ابن أخ كريم..فقال لهم صلى الله عليه و سلم مقولته التى خَلّدها التاريخ،باعتبارها مضرب الأمثال فى العفو و التسامح والصَفْح والإحسان،رغم كل ما فعلوه به و بأصحابه قبل ذلك :
((اذهبوا فأنتم الطُلَقَاء))..و لم يشمل قرار العفو العام بضعة أشخاص،لأنهم ارتكبوا ما نُسميّه فى عصرنا"جرائم حرب"فكان إعدامهم عقابًا على تلك الجرائم ،و ليس بسبب الكُفر فى حد ذاته،وإلّا لكان الحُكْم هو إعدام جميع مشركى مكّة،و هذا لم يحدث..و قد كان للعفو العام تأثير عظيم على النفوس،فقد أسلم معظم سكُان مكة،بعد أن أدركوا أنه الحَق،و أنّ هذه مكارم نبى،وأنه ليس ملكًا يسعى إلى سُلطان دنيوى..و هناك موقف نبيل آخر.فقد كان عليه السلام يدعو ربه ،على جبل الصفا،حين كان الأنصار

يتهامسون،متساءلين،عَمّا إذا كان الرسول صلى الله عليه و سلم سيبقى ببلده الأول-بعد الفتح-أم سيرجع معهم إلى المدينة؟ و بعد أن فَرَغَ من دُعائه سألهم:ماذا قلتم؟ فمنعهم الحياء منه أن يُخبروه ، فقال لهم – و قد علم ما قالوه:- "معاذ الله..بل المحيا محياكم ، و الممات مماتكم ".أى أنه سيعيش معهم فى المدينة،ما بقى من حياته الشريفة،إلى أن يموت فيها بينهم.و مَنْ أحق بالوفاء و حفظ المعروف،و ردّ الجميل منه صلى الله عليه و سلم ؟!

٧٦- يوم حُنَين

لم يكن قد بقى من عرب الجزيرة أحد يُعادى الإسلام-بعد فتح مَكّة-سوى هوازن و ثقيف و حلفاء لهم.إذ خشى زعيمهم مالك بن عوف على مكانته و نفوذه،فحشد جيوشهم وأخرج معهم الأطفال والنساء و كُل مُمتلكاتهم من الأغنام والإبل والماشية،ليمنعهم من الفرار فى حالة الهزيمة! و سمع بهذا حكيمهم"دُريد بن الصمّة،و كان شيخًا كبيرًا طاعنًا فى السنّ،فسخر من حماقة مالك بن عوف،و قال:"راعى ضأن والله –يقصد أنه لا يفهم شيئًا فى قيادة الجيوش و خوض الحروب- و هل يرد المُنهزم شىء ؟! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلّا رجل بسيفه و رُمحه..و إن كانت عليك فضحتك فى أهلك و مالك"لكن ابن عوف أصَرّ على رأيه..وأحسب أن الله تعالى قد قَدّر هذا،ليكون الكُلُ غنيمة للمسلمين لاحقًا.و علم النبى صلى الله عليه و سلم بحشود هوازن و ثقيف،فكان لابد من الخروج إليهم،منعًا لانتهاك حُرْمَة مَكّة،بالقتال فيها،و للمُبادرة بمُواجهة المُعتدين فى معاقلهم.و خرجت أعداد هائلة،للمَرّة الأولى فى معارك الإسلام،تُقَدّر ب١٢ ألفًا-عشرة آلاف قدموا فى الفتح،و٢٠٠٠ من أهل مكة،مَنْ أسلم و مَنْ لم يزل على الشرك بعد-و استعار صلى الله عليه و سلم دروعًا من صفوان بن أمية،و كان ما يزال كافرًا.و هنا تسلّل الغرور إلى نفوس كثيرين،و بصفة خاصة من كانوا حديثى عهد بالإسلام..فقد أعجبتهم كثرتهم،وهتفوا بسذاجة:"لن نُغلب اليوم مِن قِلّة"! و نسوا أن النصر دائمًا وأبدًا هو من عند الله،بقوة العقيدة،و ليس بالعدد و لا بالعُدّة..و كان لابُدّ من درس قاس-مثل درس أُحُد-ليُفيق كُل مفتون بالأسباب،و يتوب إلى مُسَبّب الأسباب.و هكذا فُوجىء المسلمون بجحافل هوازن و ثقيف،تنقض عليهم من أعالى مرتفعات منطقة"حُنين"والسهام تنهال عليهم كالأمطار،فانفرط عقد الجيش،و تراجع أكثرهم..و ثبت صلى الله عليه و سلم،كالجبل الراسخ،و حوله الصفوة من آل هاشم و من السابقين الأولين من المُهاجرين

والأنصار.و هتف صلى الله عليه و سلم وسط حشود الأعداء،بشجاعة لا نظير لها:"أنا النبى لا كذب..أنا ابن عبد المطلب"و أمر عَمّه العباس،و كان صوته قويًّا مُدويًّا،فنادى بأعلى صوته:يا معشر الأنصار..يا أصحاب الشجرة-يقصد أهل بيعة الحديبية-فوثبوا جميعًا كالأسود الضوارى،هاتفين: لبيك لبيك..و ما أن انتظم منهم مائة،حتى شَدّوا على أضعاف عددهم من هوازن و ثقيف،وأعانهم الله بجنود من الملائكة.و هنا بَشّرهم النبى صلى الله عليه و سلم بالنصر و حَثّهم على الصمود هاتفًا: (الآن حمى الوطيس) أى اشتد القتال..و خلال وقت قصير،قُتل من المشركين عشرات،و تم أسر ستة آلاف،وهرب الباقون.و من إعجاز القرآن الكريم أنّه حكى أحداث الغزوة كُلّها فى آيتين اثنتين: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)..سورة التوبة.

٧٧- العفو عن هوازن

أمر النبى صلى الله عليه و سلم بالتأنّى فى توزيع الغنائم ،انتظارًا لقدوم وفد هوازن و حلفائها،فى طلب العفو والصلح.و عندما جاءوا ناشدوه الإفراج عن الأسرى،و قالوا:يا رسول الله،إن فيهم خالاتك و عمّاتك و حواضنك،اللاتى أرضعنك و رَبيّنَك،فامْنُنْ مَنّ الله عليك-يقصدون أخوات و بنات السيدة حليمة السعدية-و كذلك جاءته أخته من الرضاعة،لذات الغرض،،فرحّب بها و فرش لها ثوبه وأجلسها عليه.و كان تصرفه عليه السلام بالغ الحكمة والذكاء،فقد تنازل لهم عن نصيبه و نصيب بنى عبد المُطّلب،فاقتدى به المهاجرون والأنصار،و تبعهم باقى الجيش فى التنازل عن أنصبتهم فى الأسرى..و بهذا التوجيه الشريف تم تحرير ستة آلاف نسمة.والتأثير النفسى لهذا العفو والمَنْ والتسامح الإسلامى أعظم أثرًا من حطام الدنيا الفانى.و يكفى أن هذا الموقف النبيل قد تسبّب فى دخول قبيلة هوازن و أتباعها بالكامل فى الإسلام،بعد أن كانوا من ألد الخصام.و أما الغنائم من الإبل والأغنام،فقد تم توزيعها على الناس،و خاصة الذين أسلموا حديثًا من زعماء قريش،لتأليف قلوبهم،و محو الضغائن من صدورهم،و تقوية إيمانهم.و شكا بعض الأنصار لبعض من أن المُؤلّفة قلوبهم قد حصلوا على الجزء الأكبر من الغنائم.فجمعهم صلى الله عليه و سلم،و بدأ بالثناء عليهم،و بيان فضلهم و تضحياتهم العُظمى فى سبيل الله،ثم شرح لهم السبب،و هو تأليف قلوب ضعاف الإيمان من زعماء قريش،و كَفْ شرورهم،وأنه ترك الأنصار،لما يعلمه من قوة إيمانهم و نُبْلِهم وإيثارهم..ثم ألا يكفيهم أن يعود الناس بالإبل والأغنام،وأن يرجعوا هم برسول الله صلى الله عليه و سلم إلى ديارهم؟! وأكّد عليه الصلاة والسلام أنّه لولا الهجرة لكان هو بنفسه الشريفة واحدًا من الأنصار.واختتم عليه الصلاة و السلام الكلام،بدعوات للأنصار هى خير من الدنيا و ما فيها:

(اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار) فبكوا جميعًا حتى ابتلّت لحاهم،و هتفوا:"رضينا بالله و رسوله،قسمًا و حَظّا"..رضى الله عنهم و رضوا عنه.

٧٨ ــ إسلام ثقيف

بعد النصر في "حُنين"حاصر المسلمون"الطائف"التى تُحَصّنَ مجرموها بقلاعهم،و ساعدتهم الهضاب و جبال المنطقة على المُقاومة.واستشار النبى صلى الله عليه و سلم أصحابه،فوَصَفَ له أحد حكمائهم الأمر بأن الطائف تُشبه جُحْر ضب-حيوان صحراوى من الزواحف-فإن صبر الصيّاد على مُراقبته و حصاره مُدّة أخذه،وإن تركه لم يضرّه.و على كُل حال فقد تلقّى القوم درسًا،و لمسوا عزم المسلمين على تأديبهم،بعد هزيمة حلفائهم في"حُنين" و لن يتجاسروا على مُجرّد التفكير فى العدوان مَرّة أخرى.فأمر النبى صلى الله عليه و سلم بفك الحصار والعودة إلى مكة.و قد كان تَعَذّر فتح الطائف من حكمة الله تعالى و رحمته.إذ حَقَنَ الله دماء أهلها،و ما لبثوا أن جاءوا إلى النبى بعد ذلك تائبين مُسلمين لله رب العالمين.و كان عدد من رقيق المدينة قد تمكنوا من الهروب أثناء حصارها،باستخدام حبال و بَكَرَة حديدية للنزول من الهضبة، وأسلموا و لاذوا بالرسول صلى الله عليه و سلم.و بعد أن أسلم سادات الطائف، طلبوا منه رَدّ العبيد إليهم،لكنه صلى الله عليه و سلم لَقّنهم والعالم بأسره درسًا عظيمًا آخر،عندما رفض طلبهم،وأعلن أن هؤلاء هم: (عُتقاء الله و رسوله) و من هذا نستنبط حُكْمًا،هو أن الرقيق إذا تَرَكَ دار الشرك،و جاء مُسلمًا يحظر رَدّه إلى الكُفّار..فقد جاء الإسلام لتحرير الناس،من العبوديّة لغير رَب الناس.

٧٩- النفير إلى تبوك

فى العام التاسع بعد الهجرة الشريفة أعلن الرسول صلى الله عليه و سلم عزمه على غزو الشام.و كانت هذه هى المرّة الأولى التى يتم فيها تحديد اتجاه الجيش،فقد كان عليه الصلاة والسلام يتّخذ كافة الاحتياطات دائمًا،و منها التعتيم على وجهة المُقاتلين،لتضليل جواسيس المُشركين.لكن هذه الغزوة جاءت فى ظروف صعبة،فالحَرّ شديد،والطريق إلى الشام طويل،والناس يُحبّون الجلوس،لينعموا بالظلال والثمار.فأراد صلى الله عليه و سلم أن يكون كل امرىء على بَيِّنَة من الأمر،ليُقرّر هل سيُشارك فى الغزو أم لا بمحض اختياره.و قد كان من الضرورى تأديب قَتَلَة مبعوث النبى،ثم بث الرُعب فى قلوب الروم،و تأكيد أن المسلمين قادرون على استكمال ما بدأوه فى غزوة "مُؤتة"وأن الدولة الإسلامية لها درع و سيف،كفيل بردع من لا يرتدع بغير القوة.و كان توقيت الغزوة و ظروفها لحكمة إلهية كُبرى،هى تعرية المُنافقين،و فضحهم،و استمرار الفرز و التمحيص والتمايز بين المُؤمنين الصادقين و غيرهم.وبالفعل انسحب عبد الله بن أُبَىّ بن سلول بفريق كبير،مثلما فعل فى"أُحُد"واعتذر كثيرون للنبى صلى الله عليه و سلم بحجج واهية،فلم يُعاقبهم صلى الله عليه و سلم،و وَكّل أمرهم إلى الله.و فى المُقابل استعدّ معه ثلاثون ألفًا من خيار الصحابة،كُل منهم يعدل جيشًا بمُفرده..و تنافس عدد من أغنياء الصحابة فى التبرّع لتمويل الغزوة..فتبرع أبو بكر الصدّيق،و عبد الرحمن بن عوف،و عمر بن الخطاب..و لكن عثمان بن عَفّان،رضى الله عنه،كان هو صاحب النصيب الأكبر من الجهاد بالمال فى ذلك اليوم،إذ جاء بألف دينار من الذهب الخالص،فنثرها فى حِجْر النبى صلى الله عليه و سلم،أثناء جلوسه فى مسجده الشريف.و راح عليه الصلاة والسلام يُقَلّب المال بين يديه و يُردّد:"مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ،مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ"وإلى جوار هؤلاء الذين أنفقوا،أبى الله تعالى إلا أن يُسجّل موقفا خالدا لبعض الذين لم يُرزقوا سعة من المال،و دليلًا على إيمانهم وإخلاصهم،فقد طلبوا من الرسول صلى الله عليه و سلم،سلاحًا و إبلًا يركبونها،للغزو معه،و لم يكن عنده لهم شىء.فتآثر القوم،وانصرفوا باكين،حُزْنًا و أسفًا على فوات فرصة الجهاد،بسبب ضيق ذات اليد..و قد أثنى الله على الصحابة المُجاهدين بالمال والنفس،فى سورة التوبة بقوله تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الآية:١٠٠..وأنزل سبحانه آيات أخرى،بالعفو عن آخرين،أمثال الباكين للعُذْر، تُبشّرهم بالرحمة والأجر- و نيّة المرء خير من عمله -كما فضحت الآيات المُنافقين القاعدين المُتخاذلين: (لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا

نَصَحُواْ لِلّهِ وَ رَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَ لاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٩٣) سورة التوبة.

٨٠ ـ معجزات فى تبوك

لا يصمد فى الشدائد إلّا الأبطال من الرجال.و من أولى بهذا من الأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين ؟! و هكذا خرج ثلاثون ألفًا مع الرسول صلى الله عليه و سلم،فى جو شديد الحرارة،و طرق وعرة طويلة.و شهدت الغزوة مُعجزات عديدة،كُلّها من دلائل النبوة بلا ريب.فقد أخبر النبى أصحابه بأن"أبا خيثمة"سيأتى بعدهم،وبالفعل شاهدوا فارسًا يُسرع خلفهم،وإذا هو"أبو خيثمة"رضى الله عنه..و تلاه آخر من بعيد يُهرول على قدميه،فقال صلى الله عليه و سلم:"كُن أبا ذَرّ"فلمّا اقترب منهم تبيّنوا أنه هو نفسه"أبو ذَرّ الغفارى"رضى الله عنه،فقالوا:هو والله أبو ذر يا رسول الله.فقال عليه الصلاة والسلام:"رحم الله أبا ذّرّ،يمشى وحده،و يموت وحده،و يُبعث وحده".كما أخبرهم الصادق الأمين بأن الله تعالى سيبعث لأبى ذر،فى الصحراء،جماعة من المُؤمنين المُسافرين،يقومون بدفنه.و بعد سنوات تحقّقَ ما أخبرهم به.فقد أقام أبو ذر فى خيمة خارج المدينة-فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه-و حضرته الوفاة،فبكت امرأته حزنًا،لأنه لا يوجد معها من يدفنه سوى غلام له،فطمأنها رضى الله عنه،و ذكّرها بالحديث الشريف،وأمرها أن تقوم مع غلامه بغسله و تكفينه،ثم تضع جثمانه على الطريق،انتظارًا لقدوم قافلة،سيُشارك أصحابها فى الصلاة عليه،و حفر قبره،و دفنه.و ما كادت الزوجة والغلام يضعان الجسد الطاهر على قارعة الطريق،حتى شاهدا قافلة من المسلمين،فيها عبد الله بن مسعود و جماعة معه.و عندما علموا أنه أبو ذّرّ،ترحّموا عليه و هتفوا:فديناه بأنفسنا وأهلنا..و بكى ابن مسعود أخاه بحرارة ،و راح يُقَبّله و يهتف:صدق رسول الله صلى الله عليه و سلّم،يقصد الحديث الذى أخبرهم فيه،يوم تبوك،بموت أبى ذر وحده فى الصحراء،ثم قدوم مجموعة من المسلمين للصلاة عليه و دفنه،و هذا ماجرى بالضبط..و كانت المعجزة الثالثة فى الطريق إلى"تبوك"هى هطول المطر الغزير،الذى يندر سقوطه فى صيف الجزيرة،شديد الحرارة،نادر السُحُب.و بهذا المطر أنقذ الله الجيش والدواب من الهلاك عطشًا..و رغم هذه المعجزة الثابتة أبى بعض المُنافقين إلّا المُكابرة والجدال بالباطل،و رفضوا الإذعان للحق،فقال أحدهم:إنما هى سحابة عابرة ! و كانت المُعجزة الرابعة هى انسحاب جيش الرومان،بعد أن علم هرقل بقدوم النبى صلى الله عليه و سلم على رأس جيشه،رغم أن عدد قوات الروم يبلغ ٧ أضعاف جيش المسلمين،وابتعد"هرقل"عن منطقة"تبوك"على الحدود بين الشام والجزيرة،لائذًا بحصونه فى الشمال.و هذا مصداق الحديث الشريف:" نُصرت بالرُعْب"رواه البُخارى و مسلم و غيرهما،و معناه أن الله تعالى ينصر رسوله والمُؤمنين بالخوف الشديد منهم ،يُلقيه فى قلوب الكافرين،فيفرّون أمامهم،رغم قلة عدد

المسلمين فى كُل معارك صدر الإسلام. و يبدو أن"هرقل"خشى الهزيمة الساحقة،لأنه كان يعلم استحالة الانتصار على النبى..و دليلنا على هذا هو تصَرّيحه،فى حواره مع أبى سفيان،قبل إسلامه،بأن محمدًا نبى و رسول،و أنه سيمتلك موضع قدمى هرقل"يقصد أرض الشام"،و قال"هرقل"أيضًا أنه لو كان عنده لغسل قدميه الشريفتين،صلى الله عليه و سلم-رواه البخارى- و كان من نتائج غزوة"تبوك"أيضًا اقتناع عرب الشام من النصارى،بعدم جدوى الاعتماد على المُحتلين الرومان فى حمايتهم،وأن الأفضل لهم التحالف مع النبى وأصحابه،فهم-على الأقل-عرب مثلهم،و الكُلُ أحفاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام،فاستجابوا لدعوة الرسول صلى الله عليه و سلم،و عقد معه زعماء"أيلة"و"أذرح"و"الجرباء"صلحًا ،ووافقوا على دفع الجزية،نظير دفاع جيش المسلمين عنهم ضد أى عدوان من الفرس أو الروم أو غيرهم..و كان أمير"دومة الجندل"عنيدًا قوى الشوكة،فأرسل النبى صلى الله عليه و سلم إليه سيف الله المسلول"خالد بن الوليد"على رأس٥٠٠ فقط من الصحابة الأبطال،وأخبره بأنه سيجده يصطاد الأبقار الوحشية..و هى المُعجزة الخامسة فى الرحلة،فقد فُوجىء"أكيدر الكندى"أمير دومة-لأول مَرّة فى حياته-بأعداد هائلة من الأبقار الوحشية،تدخل مدينته،و تحك قرونها بباب حصنه،فسال لُعابه،و طلبت منه زوجته عدم إهدار الفرصة السانحة،وأن يُبادر بصيد أكبر عدد مُمكن منها،ليجمع ثروة طائلة.و هكذا خرج"أكيدر"لمُطاردة البقر،فوَقَعَ أسيرًا -بكُل سهولة- فى قبضة خالد بن الوليد رضى الله عنه.و كان أسره خيرًا له،فقد عفا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عنه،و حَقَنَ دماء قومه،فأسلم و صار حليفًا.و بصفة عامة كان الصُلح خيرًا للجميع و بركة عليهم فى الدنيا والآخرة،إذ لم تمرّ سنوات معدودات،حتى دخلت معظم قبائل الشام فى دين الله أفواجًا.

٨١ – (و ظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ)

كان كعب بن مالك من السابقين الأوّلين من الأنصار،الذين شهدوا بيعة العقبة الكُبرى،و هو أيضًا أحد شعراء الصدر الأول من الإسلام.و كان الرسول صلى الله عليه و سلم يُحبه.و لكنه ابتلى بشيء من التراخى فى الاستعداد لغزوة"تبوك"فقد ظَنّ أنه يستطيع اللحاق بالجيش فى أى وقت،و قَدّر الله عليه ألّا يفعل.و راحت نفس كعب تتمزّق حين تلفّت حوله،فلم ير بالمدينة أحدًا-بعد خروج الجيش-سوى المُنافقين المعلومين،والعجزة والمرضى والنساء.و عندما عاد الرسول صلى الله عليه و سلم وأصحابه من الغزوة جلس بالمسجد،و جاء إليه مَن تَخَلّفوا،ليعتذروا بحجج مختلفة،فقبل منهم ظاهر أمرهم،و فوّض الأمر فى سرائرهم إلى الله تعالى.و أبى إيمان و خُلُق كعب،رضى الله عنه،أن يكذب على النبى،أو أن يختلق أعذارًا واهية،و صَمّم على الصدق معه مهما كانت العواقب.و كان معه فى مثل حاله صحابيان جليلان من أهل"بدر"هما هلال بن أميّة و مرارة بن الربيع،فلم يزد الرسول صلى الله عليه و سلم على أن أمهلهم،إلى أن يقضى الله فى أمرهم بالوحى.وأمر الصحابة بعدم الكلام أو التعامل معهم طوال فترة الانتظار..وأحسب أنها كانت عقوبة نفسية قاسية،لابد منها،حتى لا يتكرّر التخلّف عن الجهاد منهم أو من غيرهم.و اشتد الأمر على هلال و مرارة،رضى الله عنهما،فاعتزلا الناس،و جلسا فى المنزل يبكيان.أمّا كعب فكان يتجلّد،رغم وطأة المُقاطعة الشديدة على نفسه،و يخرج إلى المسجد،ليشهد الصلاة،و يمشى فى شوارع المدينة،فلا يُكلّمه أحد.و ما لبث الرسول صلى الله عليه و سلم أن أمر الثلاثة باعتزال زوجاتهم،إلى أن يحكم الله فيهم.و كان من البلاء كذلك أن ملك"غسّان"بالشام-نصرانى-أرسل إلى كعب ،و كان صديقًا له قبل الإسلام،رسالة يعرض عليه فيها أن يستضيفه عنده،بعد أن علم بمُقاطعة النبى له،و على الفور أحرق كعب الرسالة،فما كان لمثله أن يلحق بمُشرك،أو يترك الرسول صلى الله عليه و سلم،مهما جرى.و بعد ٥٠ ليلة،مضت ثقيلة كأنها خمسين سنة،جاء الفرج من الله،و سمع كعب رضى الله عنه صحابيًّا يصيح بعد صلاة الفجر:يا كعب بن مالك،أبشر..فسجد كعب رضى الله عنه فى الحال،حمدًا لله تعالى.و خلع ثوبه،وأعطاه هدية لصاحب البشارة.

واستعار ثوبًا آخر من أحد أقاربه،وانطلق إلى مجلس الرسول صلى الله عليه و سلم فى المسجد،فتلقّاه عليه الصلاة و السلام بوجهه المُنير كالقمر،بل أجمل،و قال له:"أبشر بخير يوم مَرّ عليك منذ ولدتك أُمّك"و أعلن كعب أمامه تبرّعه بكل أمواله لله،شكرًا على نعمة التوبة والعفو،لكنه صلى الله عليه و سلم أرشده و أرشد الأمّة كلها،إلى أن الأفضل هو التصدّق ببعض المال،وإمساك الباقى،للإنفاق منه على النفس والأهل والعيال.و

كذلك عاهد كعب الله و رسوله ألّا يتخلّى عن الصدق قط طـوال حياته،بعـد أن نَجّـاه الله بصدقه.و خَلّد القرآن الكريم قصة كعب و صاحبيه،بقوله تعالى فى سورة التوبـة: (لَقَـد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاَثَـةِ الَّـذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَـيْهِمْ أَنفُسُـهُمْ وَ ظَنُّـواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)

82 - مسجد الضِرَار

كان فريق من المنافقين بضاحية"قباء"خارج المدينة قد بنوا مسجدًا،لاتخاذه وكرًا،و تفريق الصف،وإنقاص عدد المصلين فى مسجد قباء،الذى هو أول مسجد أنشىء بعد الهجرة،فقد بناه الرسول صلى الله عليه و سلم و صلى فيه.و طلب المنافقون من النبى صلى الله عليه و سلم أن يُصلى بهم في مسجدهم الجديد.و كان هدفهم هو خداع المسلمين،وإظهار أن المسجد بُنى بمُباركة و مُوافقة النبى.و تبريرًا لما فعلوه قالوا:يا رسول الله،إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلّة-المرض-و ذى الحاجة،والليلة المطِيرة،و ربما جاء السيل فيملأ الوادى،و يقطع بيننا و بين القوم-مسجد قباء-فنصلى فى مسجدنا،فإذا ذهب السيل نصلى معهم.

و قد استمهلهم صلى الله عليه و سلم،إلى أن يرجع من غزوة تبوك.و لكن الله تبارك و تعالى أطلع رسوله على الهدف الحقيقى من بناء مسجد الضِرَار،و هو تفريق المسلمين،وإثارة النزاعات والخلافات بينهم،واتخاذه وكرًا لتدبير المُؤامرات،والإجتماعات الشيطانية،وإيواء أعداء الله و رسوله.و نهاه رَبّه عن الصلاة فيه إستجابة لمطلبهم،وأمره بهدمه فى الحال.و بالفعل كَلّف الرسول صلى الله عليه و سلم الصحابيين الجليلين مالك بن الدخشم و معن بن عدى بحرق مسجد النفاق،فقاما،رضى الله عنهما،بالتنفيذ على الفور.و كانت هذه الخطوة حاسمة و ضرورية للقضاء على آخر محاولات المنافقين لطعن الإسلام و المسلمين،و قطع دابر الفتن،و منع إثارة القلاقل فى المجتمع.و أنزل الله تعالى آيات كريمات تُلَخّص الحال،بأبلغ مقال:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَ كُفْرًا وَ تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)<سورة التوبة.

٨٣ - عام الوفود

بعد فتح مكة و الانتصار الساحق على هوازن و ثقيف،ثم انسحاب الروم أمام المسلمين فى"تبوك"و تحالف قبائل جنوب الشام معهم،لم يبق شك لدى أحد فى جزيرة العرب،فى صدق الرسول صلى الله عليه و سلم،و ظهور الدين الحنيف،فتقاطرت وفودهم على المدينة المُنَوّرة،لمُبايعة النبى صلى الله عليه و سلم والإسلام لله بين يديه.و قد أحصى ابن سعد فى كتابه"الطبقات الكبرى"عشرات الوفود من جميع أنحاء الجزيرة،فى ٥٠ صفحة كاملة،

و لهذا يُسَمّى المُؤرّخون العام الهجرى التاسع -أو العاشر حسب بعض الرواة- ب"عام الوفود"لكثرة من وفدوا فيه على المدينة،للدخول فى الإسلام.و أمر النبى أبا بكر بأن يحج بالناس،هذا الموسم.و كان الجميع-المشركون و المؤمنون-يحجون معًا من قبل،و لكن بعد تحطيم كُل الأصنام فى المنطقة،لم يعد معقولًا استمرار طواف الوثنيين بالكعبة المُشرفة،رمز التوحيد فى الأرض،و لا أن يتطفّل على بيت الله من لا يُؤمن به. كما لا يليق أن يطوف الناس-عُراة كما ولدتهم أمهاتهم-فهذا من سوء الأدب مع الله،فضلًا عن تنافيه مع الفطرة و الذوق ،و إخلاله بالجو الروحانى الصافى للعبادات،فى بيت الله الحرام.و كذلك لم يعد مقبولًا ترك الغادرين الذين ينقضون العهود،و يقتلون المسلمين كلّما سنحت لهم الفرصة،بل لابد من ردعهم بعد إنتهاء الأشهر الحُرُم،بإستثناء من لا تزال عهودهم سارية لفترات أخرى،فلابد من احترام العقود طوال المدة.و بجميع ما سبق،وأحكام أخرى،أنزل الله تبارك و تعالى آيات خالدات من سورة التوبة،و أرسل النبى صلى الله عليه و سلم عليًّا بن أبى طالب،ليتلوها على الناس فى موسم الحج.و يُعلن أنه:"لا يدخل الجَنّة كافر،و لا يحج بعد العام مشرك،و لا يطوف بالبيت عريان،و من كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه و سلم،فعهده إلى مُدّته".والواقع يثبت أنه لم يقع قتال بعد نزول هذه الآيات،و حتى وفاة النبى صلى الله عليه و سلم،لأن الأغلبية الساحقة من المشركين دخلت فى دين الله أفواجًا.و يبدو لنا أن القلة الضئيلة الباقية لم تجد ذريعة للعدوان،فضلًا عن ضعف شوكتها،و قوة الدولة الإسلامية،و ما لبث بعضهم أن أسلم،و مات الباقون تباعًا،كما هلك عبد الله بن أُبَّى رأس النفاق،و أمثاله،واحدًا تلو الآخر.و بهذا ترسّخت جذور شجرة الإسلام فى كافة أنحاء الجزيرة العربية،لكى تمتد فروعها و ظلالها الوارفة إلى كُل أنحاء الأرض ،و لو كره الكافرون.

٨٤- دعوة الملوك إلى الإسلام

لم يكتف النبى صلى الله عليه و سلم بدعوة العرب إلى الإسلام،فقد أرسله رّبه إلى الجميع: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ).سورة الأنبياء:١٠٧،و قال تعالى فى موضع آخر: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (١٥٨) سورة الأعراف..وقال سبحانه: (وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا.(٢٨) سورة سبأ.و لهذا أوفد صلى الله عليه و سلم مندوبين عنه برسائله إلى جميع ملوك عصره،يدعوهم فيها إلى الإسلام،و عدم منع رعاياهم من التعرّف على دين الحق والدخول فيه،وإلّا تحمّلوا أوزار إضلال هؤلاء جميعًا.و تفاوتت ردود هؤلاء على رسائل الهداية.فأمّا كسرى ملك الفرس فقد غضب،و تطاول،و مَزّق رسالة النبى،وأرسل إلى عامله باليمن"بازان"يأمره بالقبض عليه و إرساله إليه مُقيّدًا بالسلاسل.فدعا النبى عليه أن يُمَزّق الله مُلكه..و بعث"بازان"رجلين إلى الرسول،لكنه صلى الله عليه و سلم صَعَقَهُمَا بنبأ هلاك ملكهما،إذا أخبره جبريل بأن كسرى قد قُتِل،وبالفعل تبيّن مصرع كسرى فى تلك الليلة،فأسلم"بازان"حاكم اليمن،وأقَرّه الرسول على عمله.و لا شك أن استجابة الدعاء الشريف على كسرى-بهلاكه-ثم إخباره للمبعوثين بمقتله،قبل أن تأتى الأنباء من فارس بأسابيع،هو من دلائل النبوة الثابتة.

وأما المقوقس حاكم مصر فَرَدّ رَدّا ليّنًا،وأخبر الرسول صلى الله عليه و سلم أنه كان يعلم بمبعث نبى بعد عيسى،لكنه لم يتوقّع أن يكون من العرب.وأهدى المقوقس جاريتين من مصر للنبى،وأموالًا وأمتعة.وإحدى الجاريتين هى السيدة مارية،التى أنجبت للنبى"إبراهيم"أحب ولده إليه،وأختها التى أهداها صلى الله عليه و سلم إلى حسان بن ثابت.

و كان"النجاشى"ملك الحبشة الذى آوى المُهاجرين من المسلمين قد أسلم،فأرسل إليه الحبيب،طالبًا منه،إيفاد المُهاجرين عنده إلى المدينة،و تزويجه السيدة"أم حبيبة بنت أبى سفيان"وإرسالها مع الآخرين،و دفع النجاشى مهرها من ماله الخاص،بالنيابة عن الرسول صلى الله عليه و سلم.و كان زوجها قد مات بالحبشة،فواساها النبى بنفسه الشريفة،كما أن فى زواجه منها تأليف لقلب أبيها زعيم قريش.و كذلك رَد أمير البحرين وأخوه بكل أدب–ابنا الجلندى-وأعلنا إسلامهما لله رب العالمين،فأقرّهما النبى على حكم بلدهما.و هناك رسائل أخرى لحُكّام محليّين،تفاوتت الردود عليها..و لكن أهم ما يلفت الانتباه هو رَدّ فعل"هرقل"قيصر الروم على رسالة النبى صلى الله عليه و سلم إليه،لأن ما قاله هرقل هو من دلائل النبوة.فقد اعترف،كما يُثبت حواره مع أبى سفيان بن حرب-رواه البخارى و غيره– برسالة محمد صلى الله عليه و سلم.إذ سأل أبا سفيان عدة أسئلة،و رغم شركه،لم يقدر أبو سفيان على الكذب بشأن النبى،فلمّا فرغ،قال هرقل:

سألتك عن نسبه،فذكرت أنه فيكم ذو نسب،و كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها.و سألتك:هل قال أحد منكم مثل هذا القول،فأجبت:لا،فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يقتدي بقول قيل قبله، و سألتك هل كان من آبائه من ملك،فأجبت : لا،قلت: لو كان من آبائه من ملك،لقلت:رجل يطلب مُلك أبيه.وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال،فأجبت:لا،فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.وسألتك:أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم،فذكرت أن الضعفاء اتبعوه،وهم أتباع الرسل.وسألتك أيزيدون أم ينقصون،فذكرت أنهم يزيدون،وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.وسألتك:أيرتد أحد سخطة لدينه -كراهية له-بعد أن يدخل فيه،فأجبت:لا،و كذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.وسألتك:هل يغدر،فأجبت:لا، وكذلك الرسل لا تغدر.وسألتك بما يأمركم،فذكرت أنه يأمركم بأن تعبدوا الله و لا تُشركوا به شيئًا،و ينهاكم عن عبادة الأوثان،و يأمركم بالصلاة والصدق والعفاف،فإن كان ما تقول حقًا،فسيملك موضع قدمي هاتين -الشام- و قد كنت أعلم أن نبيًّا يخرج،و لم أكن أظن أنه منكم.و لو أعلم أني أخلص إليه لتجشّمت لقاءه،و لو كنت عنده لغسلت عن قدميه.ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دحية الكلبي إلى عظيم بُصرى،فدفعه إلى هرقل،فقرأه،فإذا فيه:بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله و رسوله إلى هرقل عظيم الروم:سلام على من اتبع الهدى..أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام،أسلم تسلم،يؤتك الله أجرك مرتين،فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين-أتباعه- و(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) قال أبو سفيان:فلما قال هرقل ما قال،وفرغ من قراءة الكتاب،كثر عنده الصخب،وارتفعت الأصوات،وأخرجونا،فقلت لأصحابي حين خرجنا:لقد بلغ من أمر ابن أبي كبشة-يقصد النبي-أن يخافه ملك بني الأصفر. و أضاف"أبو سفيان":فما زلت مُوقنًا أنه سيظهر،حتى أدخل الله عليّ الإسلام.

٨٥- حِجّة الوداع

فى أواخر شهر ذى القعدة من العام العاشر الهجرى،خرج الرسول صلى الله عليه و سلم فى عشرات الألوف من أصحابه و قبائل المناطق القريبة،لأداء مناسك الحج والعُمرة.و يُقَدّر عدد مَنْ شهدوا الحج معه من جميع أنحاء الجزيرة بأكثر من مائة ألف حاج،فيما عُرف ب"حجّة الوداع"لأنه صلى الله عليه و سلم لم يحج بعدها و لا غيرها،و كانت هذه هى رحلته الأخيرة إلى الحرم الشريف قبل وفاته.و فيها شرح صلى الله عليه و سلم للناس و أراهم-عمليًّا-كيفية أداء المناسك،وكان يقول:"خُذُوا عنّى مناسككم"و ما سُئل صلى الله عليه و سلم حينها عن شىء من الشعائر،إلّا قال:"افعل و لا حرج"إثباتًا لحقيقة أن الإسلام يسر لا عُسر،و كان هديه الشريف و أمره الدائم للصحابة الكرام مَنْ بعده:"يسّرُوا و لا تُعسّرُوا،و بشّرُوا و لا تُنَفّرُوا"فمن نوى العمرة فقط فهو جائز،ثم يتحلّل،بعد طواف و سعى،ثم يُحرم من جديد يوم الثامن من ذى الحجّة للحج،قبل خروجه إلى"منى"ثم"عرفات"و بعد رمى الجمار،يطوف و يسعى مَرّة ثانية،للحج هذه المرة،وهذا هو"المُتمتّع"و عليه دم –أى ذبيحة قربانًا لله،يأخذها الفقراء و مساكين الحرم- و من شاء أن يُؤدّى الحج والعمرة معًا-و يُسمّى"القارن"- فله ذلك ،فيطوف بالكعبة طواف القدوم،و يسعى بين الصفا و المروة،ثم يبيت بمنى،و يقف بعرفة،و يرمى الجمرات،و يطوف بعدها طواف الإفاضة،و يتحلّل بحلق الشعر أو تقصيره،و بهذا تنتهى المناسك.و عليه دم أيضًا.و من شاء فليُؤدّ الحج فقط-يقول:لبيك بحج-و لا شىء عليه،و يمكنه أداء العُمرة فى وقت آخر..و كانت خطبة الوداع التى ألقاها الرسول صلى الله عليه و سلم فى حشود الحجيج يوم عرفة،هى مسك الختام،فقد تضمنت خُلاصة الوصايا والنصائح النبوية الجامعة،للبشر كافة،التى بها تتحقّق سعادة الدارين للطائعين،و هى تُشكّل-حسبما أرى- إعلانًا إسلاميًّا عالميًا لحقوق الإنسان،سبق كافة المواثيق الوضعية،بمئات السنين.و فيما يلى نص الخطبة المُباركة،كما وردت بصحيح مسلم وأُمهات كتب السُنَن والسيرة :

(أيُّها النَّاسُ،اسمعوا قولي،فإنّي لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعدَ عامي هذا، بِهذا الموقِفِ أبدًا.أيُّها النَّاسُ،إنَّ دماءَكم وأموالَكم عليْكُم حرامٌ،إلى أن تلقَوا ربَّكم كحُرمةِ يومِكم هذا،وَ كحُرمةِ شَهرِكم هذا،وإنكم ستلقونَ ربَّكم،فيسألُكم عن أعمالِكم و قد بلَّغتُ،فمن كانت عندَهُ أمانةٌ فليؤدِّها إلى منِ ائتمنَهُ عليْها،وإنَّ كلَّ ربًا موضوعٌ،و لكن لَكم رؤوسُ أموالِكم،لا تظلِمونَ ولا تُظلَمونَ،قضى اللَّهُ أنَّهُ لا ربًا،وإنَّ ربا العبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ موضوعٌ كلُّهُ.وإنَّ كلَّ دمٍ كانَ في الجاهليَّةِ موضوعٌ،وإنَّ أوَّلَ دمائكم أضعُ دمَ ربيعةَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلب-وَكانَ مسترضَعًا في بني ليثٍ،فقتلتْهُ هُذيلٍ-فَهوَ أوَّلُ ما أبدأُ بِهِ من دماءِ الجاهليَّةِ ..أما بعدُ أيُّها النَّاس،إنَّ الشَّيطانَ قد يئِسَ أن يعبدَ في أرضِكم هذِهِ أبدًا، ولَكنَّهُ رضى أن يطاعَ فيما سوى ذلِكَ، مِمَّا تحقِّرونَ من أعمالِكم،فاحذروهُ على دينِكُم.

أيُّها النَّاسُ:"إنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ، و يحرّموا ما أحلَّ اللَّهُ"وإنَّ الزَّمانَ قدِ استدارَ كَهيئتِهِ يومَ خلقَ اللَّهُ السَّمواتِ والأرضَ،وَ« إنَّ عدَّةَ الشُّهورِ عندَ اللَّهِ اثنا عشَرَ شَهراً منْها أربعةٌ حُرُمٌ » ثلاثةٌ متواليةٌ،و رجبُ الَّذي بينَ جُمادى وشعبانُ.أمَّا بعدُ أيُّها النَّاسُ،فإنَّ لَكم على نسائِكم حقًّا و لَهنَّ عليْكم حقًّا،لَكم عليْهنَّ أن لا يوطِئْنَ فُرُشَكم أحدًا تَكرَهونَه،و عليْهنَّ أن لا يأتينَ بفاحشةٍ مُبيّنةٍ، فإن فعلنَ فإنَّ اللَّهَ قد أذنَ لَكم أن تَهجُروهنَّ في المضاجِعِ،وأن تضرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مُبرّحٍ،فإنِ انتَهينَ فلَهنَّ رزقُهنَّ وَكسوتُهنَّ بالمعروفِ واستوصوا بالنِّساءِ خيرًا،فإنَّهنَّ عندَكم عَوانٍ لا يملِكنَ لأنفسِهنَّ شيئًا، وإنَّكم إنَّما أخذتُموهنَّ بأمانةِ اللَّهِ،واستحللتُم فروجَهنَّ بِكلمةِ اللَّهِ،فاعقلوا أيُّها النَّاسُ قولي،فإنِّي قد بلَّغتُ.وقد ترَكتُ فيكم ما إنِ اعتصمتُم بِهِ فلن تضلُّوا أبدًا،أمرًا بيّنًا،كتابَ اللَّهِ وسنَّةَ نبيِّهِ..أيُّها النَّاسُ،اسمعوا قولي واعقِلوهُ،تعلمُنَّ أنَّ كلَّ مسلمٍ أخ للمسلِمِ،وأنَّ المسلمينَ إخوَةٌ،فلا يحلُّ لامرئٍ من أخيهِ إلا ما أعطاهُ عن طيبِ نفسٍ منه،فلا تظلِمُنَّ أنفسَكمُ..اللَّهمَّ هل بلَّغتُ،قالوا:اللَّهمَّ نعَم،فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم:اللَّهمَّ اشْهَدْ) و نُلاحظ أن الخطبة الشريفة تضمنت كل مبادىء حقوق الإنسان،و مكارم الأخلاق،وأسس العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، و حرص صلى الله عليه و سلم على تطبيق ما يدعو إليه على قبيلته قبل أى أحد آخر،فبدأ بإلغاء ربا عمه العباس،وإهدار دم ابن عمه الآخر-الحارث بن عبد المطلب-و بهذا أرسى قاعدة هامة،هى عدم المحاباة لقرابة أو صداقة أو مصلحة ما..كما نُلاحظ أن قوله صلى الله عليه و سلم:"لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا"كان إشارة واضحة إلى اقتراب أجله الشريف،لم ينتبه إليها كثيرون..فداه نفسى ووالدى وولدى.

٨٦- مرض الحبيب

كان من أواخر ما نزل على الرسول صلى الله عليه و سلم الآية الكريمة: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا).المائدة:٣.وأكّد الحافظ ابن حجر رضى الله عنه نزولها قبل وفاة النبى صلى الله عليه و سلم بثمانين يومًا.و بكى أبو بكر الصدّيق،رضى الله عنه،حين سمعها،لأنه فهم أن الحبيب قد أدى الأمانة،وأبلغ الرسالة،و لم يبق بعد الكمال شيء إلّا نفاد الأجل.وأصَرّ صلى الله عليه و سلم على استكمال ما كان قد بدأ،و هو تأمين حدود بلاد المسلمين،فأعدّ جيشًا بقيادة أسامة بن زيد،لغزو المنطقة التى استشهد فيها أبوه"مُؤتة"و كان عمر أسامة حينها أقل من ٢٠ سنة،و فى الجيش أكابر الصحابة من السابقين الأولين من المُهاجرين والأنصار.لكن الرسول صلى الله عليه و سلم أراد أن يتعوّد الناس الطاعة والإلتزام بالأوامر،و لو كان القائد صغيرًا،طالما أن لديه الدراية والكفاءة اللازمة.و فى هذا أيضًا إتاحة الفرصة للشباب و تدريبهم على تولّى مقاليد الأمور،و تكريم لأسامة،بتوليته مكان أبيه الشهيد.و لكن الجيش اضطر إلى المُرابطة خارج المدينة،و انتظار التطورات،بعد أن بلغهم نبأ مرض النبى صلى الله عليه و سلم.و كان عليه السلام قد شعر بصُداع بعد عودته إلى المدينة بأسابيع قلائل،و راح الألم يتزايد شيئًا فشيئًا،فطلب عليه الصلاة و السلام من زوجاته السماح له بتلقّى العلاج فى حُجرة السيدة عائشة،فوافقن بكل نُبل وأريحية،و تنازلن عن حقهن فى المبيت عندهن،لأن حبهن للرسول والزوج تَغَلّب على غيرتهن الفطرية،فآثرن هواه على عشقهن له.و رغم اشتداد الحُمّى،ظل صلى الله عليه و سلم يُصلى بالناس عدة أيام،حتى غلبه المرض،فكَلّف أبا بكر بإمامة المسلمين فى الصلاة.و كانت إشارة نبوية حكيمة،غير مُباشرة،و توجيهًا لطيفًا-بلا إلزام و لا إجبار-إلى اختيار أبى بكر من بعده،لتولّى خلافته.و قد فهمها الصحابة الأذكياء،فيما بعد،فقالوا: رضيه الرسول صلى الله عليه و سلم لديننا،أفلا نرضاه لدنيانا ؟! و ذات يوم أحس بتحسّن طفيف،فطلب أن يصبّوا عليه ٧ قِرَب ماء من آبار مُختلفة،لينشط و يخرج إلى الناس،ليعهد إليهم.و بالفعل خرج صلى الله عليه وسلم،و خطب فى الناس،فنهى عن الاعتراض على قيادة أسامة بن زيد للجيش،كما اعترضوا على قيادة أبيه من قبل،و شهد له عليه الصلاة والسلام بأنه يستحقها،كما استحقها أبوه من قبله.وأثنى على أبى بكر،بما قَدّم فى سبيل الله،و بحُسن صحبته لرسوله،كما أثنى على الأنصار،الذين آووا و نصروا،و ضحّوا فى سبيل الله بكل ما يملكون،وأوصى بهم خيرًا،وأمر بالإحسان إلى المُحسن منهم ،والتجاوز –العفو- عن المسيء منهم.و كانت إحدى عبارات الحديث واضحة تمامًا فى أن الحبيب صلى الله عليه و سلم يُوشك أن يُغادر الأرض،إذ قال:"إن الله خَيّرَ عبدًا بين الدنيا و بين ما

عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله"و فهمها الصديق،فبكى بحرارة:و هتف:"فديناك بأنفسنا و أبنائنا".و من دلائل النبوة أنه صلى الله عليه و سلم قد أخبر ابنته السيدة فاطمة–فى مرضه-بأن روحه ستصعد إلى بارئها،فبكت،ثم أخبرها بأنها أول من سيلحق به من أهله،فضحكت.و بالفعل لم تمكث بعده إلّا ستة أشهر فقط،و كانت أول من مات بعده من أهله.كما قال لأمهات المُؤمنين:"أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا"فَكُنَّ يَتَطَاوَلْنَ-يقمن بقياس أطوال أيديهن-ثم ماتت بعده السيدة زَيْنَبُ بنت جحش،فعلمن أنه كان يقصد أطولهن يدًا فى الصدقة و فعل الخيرات،و كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَتَصَدَّقُ على الفقراء و المساكين بالعائد.

صلى الله عليه و على آله وأزواجه وأصحابه و سلم تسليمًا كثيرًا.

٨٧- مع الرفيق الأعلى

فى يوم الإثنين الذى قُبضت فيه روحه صلى الله عليه و سلم،تحامل على نفسه،و خرج عاصبًا رأسه الشريف،إلى صلاة الفجر،و كاد المسلمون يُفتنون فى صلاتهم من شدة الفرحة به،و فهم أبو بكر من الضجّة أن الرسول صلى الله عليه و سلم قد جاء،فتأخر عن موضع الإمام،لكن النبى دفع فى ظهره برفق،ليبقى مكانه و يُصلّى بالمسلمين،و صلى الرسول خلفه.و فى هذا حُجّة أخرى على الشيعة،الذين يتطاولون على مقام الشيخين الوزيرين-الصدّيق والفاروق- فالنبى هو الذى أمر أبا بكر بإمامة الناس فى الصلاة،فاختاره المسلمون خليفة بعد وفاته بالبيعة العامة،ثم رَشّح أبو بكر عمر من بعده،ووافق المسلمون و بايعوه بالإجماع أيضًا..و فى رواية أخرى أنه عليه السلام كشف ستار الحجرة،وابتسم سعيدًا برؤية انتظام صفوف المسلمين،و خشوعهم فى الصلاة،لكنه لم يقو على الخروج إليهم،فأشار إلى أبى بكر بالبقاء فى مكانه إمامًا،ثم أرخى الستر بينه و بينهم..و كانت عنده من ٥ إلى ٩ دنانير فقط،فأمر بتوزيعها على الفقراء والمساكين. و روى الإمام أحمد:"عن عائشة قالت:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ:"مَا فَعَلَتْ الذَّهَبُ "قَالَتْ:قُلْتُ:هِيَ عِنْدِي،قَالَ:"ائْتِينِي بِهَا" فَجِئْتُ بِهَا،وَهِيَ مَا بَيْنَ التِّسْعِ أَوْ الْخَمْسِ،فَوَضَعَهَا فِي يَدِهِ،ثُمَّ قَالَ:"مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِاللَّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ و هذه عنده"؟ وأمر بالتصدّق بها..و رُوى:"ما ترك صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِينَارًا،وَ لا دِرْهَمًا،وَ لا عَبْدًا،وَ لا أَمَةً،إلا بَغْلَتَهُ الشَّهْبَاءَ الَّتِي كَانَ يَرْكَبُهَا،وَ سِلاحَهُ،وَأَرْضًا جَعَلَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أى صَدَقَةً.و قد ثبت أنه صلى الله عليه و سلم أعتق ٦٣ نفسًا-ذات عدد سنوات عمره-هم كل ما وصل إلى يده الشريفة من عبيد أو إماء،فضرب المثل و قدّم القدوة الحسنة فى تحرير الناس من العبودية لغير رب الناس.

و هكذا أصرّ عليه الصلاة والسلام على الخروج من الدنيا،كما عاش،بلا مال أو متاع كان زاهدًا فيه طوال عمره الشريف.فقد كان فراشه وسادة خشنة،محشوّة بالليف،و غالب طعامه التمر و الماء،و يمر الشهر تلو الآخر بغير أن تُوقد فى بيته نار للطهى.و كان –كما روى الترمذى و غيره- كثيرًا ما يربط على بطنه الشريف حجرًا أو حجرين من شِدّة الجوع..ثم اشتدت عليه سكرات الموت،فجعل يمسح وجهه و رأسه الشريف بالماء،قائلًا:" لا إله إلا الله ، إنّ للموت لسكرات "و رأى سواكًا فى يد السيدة عائشة،وأطال النظر إليه،ففهمت أنه يريده،فأعدته له،و ساعدته على استعماله.و اشتد عليه الأمر،فكان يُغشى عليه ثم يُفيق،و رأسه الشريف على فخذ زوجته عائشة.و بكت ابنته السيدة فاطمة،صائحة:وا كرباه،فردّ عليها صلى الله عليه و سلم:"لا كرب على أبيك بعد اليوم"ثم جعل يُرَدّد:"اللهم فى الرفيق الأعلى"فقالت السيدة عائشة:خُيّرت فاخترت،و الذى بعثك بالحَق..و كان صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح"إنه لم

يُقبض نبي قط حتى يرى مقعده في الجنّة،ثم يُخَيّر"أى يُخيّره الله بين الجنة و بين الدنيا.قالت عائشة:"فلما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم،و رأسه على فخذي،غشي عليه ساعة،ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السقف،ثم قال:"اللهم الرفيق الأعلى"قالت عائشة: قلت إذا لا يختارنا،وعرفت الحديث الذي كان يحدّثنا به وهو صحيح"تعنى قوله إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يُخَيَر.فكانت آخر كلمة تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم،هى قوله"اللهم الرفيق الأعلى"والحديث رواه الشيخان البخارى و مسلم و غيرهما.و كانت وفاته صلى الله عليه و سلم،مُصيبة كُبرى على الجميع..يصف صاحبه و خادمه أنس بن مالك رضى الله عنه الحال يوم وفاته قائلًا:"لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ،فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ،وَ مَا نَفَضْنَا أَيْدِيَنَا مِنَ التُّرَابِ،وَ إِنَّا لَفِي دَفْنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ,حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا "

و فقد الفاروق رضى الله عنه اتزانه من وطأة الفجيعة،و هدّد بقطع أيدى و أرجل من يزعمون وفاة النبى..لكن الله تعالى قَيّض للأُمّة،من يضبط أمرها فى الشِدّة،و هو الصدّيق،رضى الله عنه،الذى دخل على النبى فى مثواه الأخير بحُجرة عائشة،فأقبل حتى كشف عن وجه الرسول صلى الله عليه وسلم فقبّله،و قال: بأبي أنت وأمي، طِبْتَ حيًّا ومَيّتًا..أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذُقتها،ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا..ثم غَطّى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم، و خرج،وعمر يُكلّم الناس،فطلب منه الإنصات،فأبى إلا أن يتكلم،فلما رآه أبو بكر لا يُنصت أقبل على الناس،فأقبلوا عليه،فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:أيها الناس،إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات،و من كان يعبد الله،فإن الله حي لا يموت،ثم تلا هذه الآية من سورة آل عمران: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) قال الراوى"أبو هريرة": فو الله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت،حتى تلاها أبو بكر يومئذ،وأخذها الناس عن أبي بكر،فإنما هي في أفواههم.و قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها،فعقرت حتى وقعت إلى الأرض،ما تحملني رجلاي،وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات..و كان كفنه بسيطًا،و قبره الشريف مُجرّد حفرة بحُجرة السيدة عائشة،غاية فى التواضع والبساطة،فهو إمام الزاهدين،و قدوة العارفين،و سيد الأولين و الآخرين.

خاتمة

و لئن كان الرسول صلى الله عليه و سلم قد غاب عنّا بجسده الشريف،إلّا أن القرآن العظيم الذى أُنزل عليه باق فينا،ما بقيت السماء والأرض.و كذلك تبقى سُنّته و سيرته العطرة،قدوة للتابعين،و منارًا للحائرين،و هداية للضالين،إلى يوم الدين..و نشهد أنّه صلى الله عليه و سلم قد بَلّغ الرسالة،و أدى الأمانة،و نصح للأُمّة،و كشف الله به الغُمّة،فجزاه الله خير ما جزى رسولًا عن الإنسانية جمعاء.

&&&

الصلاة و السلام علي سيدنا و عظيمنا و قائدنا و رسولنا

الأكرم يوم وُلِد،و يوم بُعث،و يوم بلّغ،و يوم بَشّر،و يوم أنذر ،

و يوم هاجر،و يوم قاتل،و يوم انتصر،و يوم قُبض،و يوم يبعثه

الله شاهدًا علينا، و شفيعًا لنا - بإذنه سبحانه و تعالى - حين يقوم الحساب

٨٨- أهم المراجع

& أولا : القرآن الكريم .

& ثانيا:أمهات كتب التفسير:

١ - تفسير الإمام ابن كثير.
٢- تفسير الإمام القرطبي.
٣- تفسير الإمام البغوى
٤- تفسير الإمام الرازى
٥- تفسير الإمام النسفى
٦- تفسير الإمام البيضاوى
٧- حلقات تفسير شيخنا محمد متولى الشعراوى (فيديو)
٨- "المنتخب فى تفسير القرآن الكريم" تأليف مجموعة من كبار علماء الأزهر
٩- تفسير الإمام السيوطى
١٠- تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدى
١١- تفسير"في ظلال القرآن"للشيخ سيد قطب

& ثالثا: أمهات كتب الحديث:

-١- صحيح الإمام البخاري.
٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلانى
-3- صحيح الإمام مسلم .
٤ - شرح صحيح مسلم للإمام النووي .
-٥- سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والبيهقى و معجم الطبرانى.
-٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل.
٧-"الموطأ"للإمام مالك بن أنس.

-٨ - المستدرك على الصحيحين للإمام الحاكم.
& ثالثًا: كتب السيرة و منها:
١ - السيرة النبوية للإمام ابن محمد بن إسحاق،برواية تلميذه ابن هشام.
2- الروض الأُنف للإمام السهيلى.
٣ - "زاد المعاد في هدي خير العباد"للإمام ابن القيم .
٤ – "الفصول في اختصار سيرة الرسول" و"معجزات النبى"و"البداية و النهاية"للإمام ابن كثير .
٥ – الجزءان الأول والثانى من"سير أعلام النبلاء"للإمام الذهبى
٦- "تاريخ الأمم و الممالك"للإمام الطبرى ، و تفسيره للقرآن الكريم
٧- جوامع السيرة النبوية-ابن حزم الأندلسى
٨-مختصر سيرة النبي وسيرة أصحابه العشرة-لعبد الغني المقدسي
٩-الشفا بتعريف حقوق المصطفى- للقاضى عياض
-١٠- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير – محمد ابن سيد الناس
-١١- الدُرر فى اختصار المغازى والسير- للإمام ابن عبد البر
-١٢- "فقه السيرة"للشيخ محمد الغزالي .
١٣- نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين-للشيخ محمد الخضري
١٤ – السيرة النبوية للشيخ محمد أبو زهرة
-١٥- "الرحيق المختوم" للمباركفوري .
-١٦- "عبقرية محمد"و"الصديقة بنت الصديق"لعباس محمود العقاد.
- ١٧- السيرة النبوية فى ضوء العلم والفلسفة - محمد فريد وجدى
- ١٨ – السيرة النبوية للدكتور محمد على الصلابي.
١٩- السيرة النبوية على ضوء الكتاب و السُنّة- د.محمد أبو شهبة
٢٠- السيرة النبوية الصحيحة- د. أكرم ضياء العمري
٢١- تاريخ الإسلام في عصر النبوة – د.عبد الشافي محمد عبد اللطيف
٢٢-"حياة محمد"للدكتور محمد حسين هيكل

& رابعا: كتب الشمائل و الدلائل و منها:
-١- صفة النبي -أبو الحسن علي بن المدائني
-٢- صفة أخلاق النبي - داود بن علي الأصبهاني
-٣- الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية- الإمام الترمذى
-٤- دلائل النبوة - الإمام البيهقى
-٥- دلائل النبوة – أبو نعيم الأصبهانى
٦- أعلام النبوة – الإمام الماوردى
٧- الأنوار فى شمائل النبى المختار- الإمام البغوى
٨- غاية السول فى خصائص الرسول- ابن المُلقّن
٩- المواهب اللدنية فى المنح المحمدية- الإمام القسطلانى
١٠- "أنموذج اللبيب فى خصائص الحبيب"و"الشمائل الشريفة"و"الخصائص الكبرى"للإمام السيوطى
& خامسا: كتب و مراجع متنوعة:
-١-"سُبُل السلام"للإمام الصنعانى
-٢- "حلية الأولياء" لأبى نعيم
-٣- "حِكَم النبى محمد"- للأديب الروسى العالمى ليو تولستوى.
٤- العظماء مائة أعظمهم محمد – مايكل هارت
٥- " الأبطال"- المُفكّر و الأديب العالمى توماس كارليل
-٦- "محمد نبى لزماننا" – كارين أرمسترونج
-٧ - الدعوة الإسلامية - توماس أرنولد
٨-زوجات لا عشيقات-التعدد الشرعى ضرورة العصر- حمدى شفيق
٩-الإسلام مُحرّر العبيد-التاريخ الأسود للرق فى الغرب- حمدى شفيق
١٠- شبهات حول المسلمات-حقوق النساء فى شريعة السماء- حمدى شفيق